سلسلة رسائل الغرباء

(١)

الغرباء الأولون

أسباب غربتهم - ومظاهرها - وكيفية مواجهتها

(أسلوب جديد في دراسة السيرة النبويّة)

تأليف

سلمان بن فهد العودة

بسم الله الرحمن الرحيم

الغُربَاءِ الأَولُون

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية

الدمام : شارع ابن خلدون ت: ٨٤٢٨١٤٦
ص.ب: ٢٩٨٢ الرمز البريدي: ٣١٤٦١
الاحساء : الهفوف - شارع الجامعة
ت : ٥٨٢٤٦٧٢ ص.ب: ١٧٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد ..

فإن النبي ﷺ حين بعث كان وحيدا غريبا في عالم مليء بالشرك، والإلحاد، والفساد، وإنما جاء ﷺ ليغير هذا الواقع، وليعيد الناس إلى عبادة الله، ويقيمهم على المنهج الصحيح، ويبلغهم رسالات ربهم .

وقد آمن به ـ عليه الصلاة والسلام ـ نفر من ذوي الفطرة السليمة، والمعدن الكريم، والتفوا حوله، وآزروه في دعوته، وكان غالبهم من المكيين، وقليل منهم من القبائل الأخرى القاطنة خارج مكة، وكان هؤلاء الأتباع المؤمنون غرباء في بلادهم، وبين قومهم.

ومازال النبي ﷺ والمؤمنون به يجاهدون في سبيل نصرة هذا الدين، وتكثير أتباعه، وإقامة دولته حتى زالت الغربة، ودانت القبائل للإسلام، وقامت دولته في المدينة ـ أولا ـ، ثم بسطت سلطانها على معظم الجزيرة العربية، ففتحت مكة، وجاءت وفود القبائل تبايع الرسول ﷺ على الإسلام، وأكمل الله الدين، وأتم على المؤمنين النعمة، ورضي لهم الإسلام دينا.

ولم يمت ﷺ إلا بعد أن أقر الله عينه بنصر الدين، والتمكين لأهله، ودحر الوثنية، واليهودية، وغيرهما، وخلوص الجزيرة العربية للإسلام.

وبوفاته ﷺ حدث أول ثلم في واقع المسلمين، إذ إن أول خلاف حقيقي

حدث بينهم، كان الخلاف على اختيار الأمير يوم السقيفة(١).

وبانتهاء عصر الخليفتين الراشدين، حدث ثلم آخر، إذ كان عمر ـ رضي الله عنه ـ الباب الذي يحفظ الله به الأمة من الفتن، فلما قتل، كسر الباب، وأطلت الفتن برأسها على المسلمين(٢).

وبانتهاء عصر الخلافة الراشدة ـ وهي ثلاثون سنة ـ كما أخبر النبي ﷺ حدث ثلم ثالث(٣).

---

(١) كما في حديث عائشة رضي الله عنها:
ـ رواه البخاري في: ٦٢ ـ فضائل أصحاب النبي ﷺ ٥ ـ باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلا..، (١٩٤/٤).

(٢) كما في حديث حذيفة رضي الله عنه:
ـ رواه البخاري في: ٩ ـ كتاب المواقيت، ٤ ـ باب: الصلاة كفارة، ٢٤ ـ كتاب الزكاة، ٢٣ ـ باب: الصدقة تكفر الخطيئة.
٣٠ ـ كتاب الصوم، ٣ ـ باب الصوم كفارة. ٦١ ـ كتاي المناقب، ٢٥ ـ باب علامات النبوة في الإسلام، ٦٢ ـ كتاب الفتن، ١٧ ـ باب الفتنة التي تموج كموج البحر.
ـ ورواه مسلم في: ١ ـ كتاب الإيمان، ٦٥ ـ باب إن الإسلام بدأ غريبا برقم (٢٣١)، (١٢٨/١)، ٥٢ ـ كتاب الفتن، ٧ ـ باب الفتنة التي تموج كموج البحر، برقم (٢٦)، (٢٢١٨/٤).
ـ والترمذي في: ٣٤ ـ كتاب الفتن، ٧١ ـ باب، برقم (٢٢٥٨)، (٥٢٤/٤).
ـ وابن ماجة في: ٣٦ ـ كتاب الفتن، ٩ ـ باب ما يكون من الفتن، برقم، (٣٩٥٥)، (١٣٠٥/٢).
ـ والإمام أحمد في المسند: (٣٨٦/٥، ٤٠١، ٤٠٥) .

(٣) كما في حديث سفينة رضي الله عنه:
ـ رواه أبو داود في : ٣٤ ـ كتاب السنة، ٩ ـ باب ما جاء في الخلافة، برقم: (٥٠٣/٤).
ـ والإمام أحمد في المسند: (٢٢٠/٥ - ٢٢١) .

وبانتهاء عصر الخلفاء الأثنى عشر، حدث ثلم رابع[1].

وبانقراض القرون المفضلة حدث ثلم خامس[2].. وهكذا.

وإن كان حدث للمسلمين من التوسع والفتوح، ودخول كثير من الشعوب في الإسلام، خلال ذلك، وبعده، شيء كبير.

وقد أشار النبيّ ﷺ إلى غربة الإسلام الأولى، وغربته التالية، وحال الغرباء

---

(١) كما في حديث جابر بن سمرة، المروي عنه من طرق وفيه: لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثنى عشر خليفة، كلهم من قريش.

ـــ رواه مسلم في: ٣٣ ـــ كتاب الإمارة، ١ ـــ باب: الناس تبع لقريش، برقم (٥-١٠)، (١٤٥٢/٣).

ـــ وأبو داود في: ٣٠ ـــ كتاب المهدي، ١ ـــ باب، وبرقم (٤٢٧٩ـــ٤٢٨١)، (٤٧١/٤).

ـــ والترمذي في: ٣٤ ـــ كتاب الفتن، ٤٦ ـــ باب ماجاء في الخلفاء برقم (٢٢٢٣)، (٥٠١/٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ـــ وأحمد في المسند: (٨٦/٥،٨٧،٨٨،٨٩،٩٠،٩٢،٩٣،٩٦،٩٧،٩٨،٩٩،١٠٠، ١٠١،٠١٠٦،١٠٧).

(٢) كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. قال عمران: لا أدري ذكر النبي ﷺ بعدُ قرنين، أو ثلاثة.

ـــ رواه البخاري في: ٥٢ ـــ كتاب الشهادات، ٩ ـــ باب لا يشهد على جور، (١٥١/٣)، ٦٢ ـــ فضائل أصحاب النبي ﷺ، (١٨٩/٤)، ٨١ ـــ كتاب الرقائق، ٧ ـــ باب ما يحذر من زهرة الدنيا: (١٧٣/٧)، ٨٣ ـــ كتاب الأيمان والنذور، ٢٧ ـــ باب إثم من لا يفي بالنذر (٢٣٣/٧).

ـــ ومسلم في: ٤٤ ـــ كتاب فضائل الصحابة، ٥٢ ـــ باب فضل الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، برقم (٢١٤،٢١٥)، (١٩٦٤/٤).

ـــ وأبو داود: في: ٣٤ ـــ كتاب السنة، ١٠ ـــ باب في فضل أصحاب رسول الله ﷺ، برقم (٤٦٥٧)، (٤٤/٥).

=

بقوله « **بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء** »[1].

وعودته غريبا قد تعني الغربة في أمكنة معينة، وأزمنة معينة، حيث قد يعود الدين غريبا في مكان من الأمكنة، ثم يظهر ويعلو وتزول غربته، كما حدث أول مرة.

وقد تعني ما يقع في آخر الدنيا، حتى لا يبقى من المسلمين إلا القليل، وهذا يكون بعد الدجال، ويأجوج ومأجوج، عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث الله ريحا طيبة، فتقبض أرواح المؤمنين، ثم تقوم الساعة[2].

ويقابل الغربة الواقعة في الأمة، الوعدُ بفرقة ناجية، والوعدُ بطائفة منصورة، والوعدُ بتجديد الدين لهذه الأمة، والوعدُ بالخير الكثير الطيب لهؤلاء الغرباء، من الفرقة الناجية، أو الطائفة المنصورة، أو غيرهما، وهو بعض المعبر عنه في الحديث بـ « **طوبى للغرباء** » .

وقد كان ما لقيه المؤمنون الأولون من عون الله، ونصره، وتأييده، وتسخيره الناس ــ مؤمنين، وغير مؤمنين ــ لحماية الغرباء في مكة، ثم في الحبشة، ثم في المدينة، حيث لقوا من الإعزاز والإكرام ما لقوا، كان ذلك جزءاً من هذا الوعد.

وما حصل لهم من الأذى الدنيوي كانوا يعوضون عنه ــ عاجلا ــ من لذة

= ــ والترمذي في: ٣٤ ــ كتاب الفتن، ٤٥ ــ باب ماجاء في القرن الثالث، برقم (٢٢٢١،٢٢٢٢)، (٤/٥٠٠)، وقال في الثاني: حديث حسن صحيح.

ــ والنسائي في: ٣٥ ــ كتاب النذور، ٢٩ ــ الوفاء بالنذر: (١٧/٧).

وأحمد في المسند: (٤/٤٢٦،٤٢٧،٤٣٦،٤٤٠) .

ــ وله شواهد كثيرة منها: عن عبدالله بن مسعود، وعائشة، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، والنعمان بن بشير، وبريدة الأسلمي. رضي الله عنهم.

(١) سيأتي تخريجه ــ بإذن الله ــ في الصفحات التي تتلو هذه المقدمة، بصورة مفصلة.

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٩٦/١٨). وسيأتي مزيد تفصيل لذلك إن شاء الله تعالى.

الإيمان، وحلاوته، ما ينسيهم مرارة الأذى، وكان يحصل لأعدائهم من الشر أضعاف أضعافه[1]، وكذلك الغرباء بعدهم، وعدهم ـ ﷺ ـ بالنجاة، في حين أن غيرهم هالكون[2]، ووعدهم بالظهور والنصر على من خالفهم[3]، ووعدهم بما هو أعم وأشمل من ذلك كله، وهو الخير الكثير الطيب، الذي تدل عليه كلمة «طوبى» ، الواردة في حديث الغربة، وهي تشمل خيري الدنيا والآخرة.

وقد كان الحديث عن الغربة، وأهلها، وأحكامها، من الموضوعات المهمة التي يتطلع المسلم الغريب ـ في هذا الزمان، وفي كل زمان ـ إلى معرفتها، والأنس بأخبارها، والفهم الصحيح لأحكامها، حتى يعبد ربه على بصيرة.

وقد اتجهت الرغبة إلى الكتابة في هذا الموضوع، وما يتعلق به، أو يتفرع عنه، وذلك لأسباب عديدة منها:

١ ـ جدة الموضوع، وطرافته، حيث لم يسبق أن كتب فيه بشكل متكامل، وغاية ما ألف فيه، إنما هي رسائل مختصرة، كرسالة الإمام الآجري[4]، ورسالة الحافظ ابن رجب الحنبلي[5]، أو كتب عنوانها يتعلق بالغربة، ولكن مضمونها يتعلق بوصف واقع معين، في بلد معين، في زمان معين[6].

أما البحوث الموضوعية المعاصرة، فلا أعلم أحدا كتب حول موضوع الغربة،

---

(١) انظر: الفتاوى: (١٨/٢٩٤) .

(٢) كما في حديث الفرقة الناجية، وسيأتي تخريجه ودراسته والكلام على معانيه في رسالة مستقلة بإذن الله تعالى.

(٣) كما في حديث الطائفة المنصورة، وسيأتي تخريجه ودراسته، والكلام على معانية في رسالة مستقلة بإذن الله تعالى.

(٤) واسمها: «صفة الغرباء»، وستأتي ترجمته ـ رحمه الله ـ .

(٥) واسمه: «كشف الكربة، في وصف حال أهل الغربة»، وستأتي ترجمته.

(٦) كرسالة: «بيان غربة الإسلام، بواسطة صنفي المتفقهة، والمتفقرة، من أهل مصر، والشام، وما يليهما من بلاد الأعجام» لعلي بن ميمون الإدريسي المغربي، المتوفى سنة (٩١٧هـ). وقد حققها الدكتور/ عبيد بن عبدالله السحيمي، لنيل درجة الدكتوارة، من شعبة الدعوة، بالجامعة الإسلامية.

وإن كان ثم جوانب محدودة من الموضوع يوجد من كتب فيها[1].

٢ ــ أهمية الموضوع الواقعية، باعتبار المسلم يشعر بغربته في هذا الزمان، وباعتبار أن كثيرا من شرائع الإسلام قد تغربت، فأصبح الجهاد غريبا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غريبا، والحكم بشرع الله غريبا.

فلابد أن يعرف الغريب معنى غربته، ولوازمها ومقتضياتها، وخصائصها، وأحكامها، حتى يكون في غربته متأسيا بالغرباء الأوائل، غير حائد عن منهجهم.

وتبرز أهميته ـ أيضا ـ في معرفة الغربة الأولى وأسبابها، وصورها، وكيفية دفعها، وهذا يرسم أمام المسلم الطريق الصحيح لدفع الغربة في كل مكان، وفي كل زمان، ويعطيه القدوة الحسنة في ذلك، برسول الله ﷺ وأصحابه، الذين بدأ الإسلام ـ على أيديهم ـ غريبا، وما زالوا يجاهدون في سبيله حتى أزالوا غربته، ودفعوها.

٣ ــ إن دراسة مثل هذا الموضوع دراسة حديثية، ومحاولة تأصيل بعض قضاياه تأصيلا شرعيا، ببيان أدلتها وأصولها من الكتاب والسنة، يعتبر ضرورة في هذا العصر الذي وجد فيه متحمسون للإسلام كثيرون، لا ينطلقون في حماسهم من المنطلقات الصحيحة، ولا يلتزمون بالنص الشرعي التزاما حقيقيا، بل قد يطوّع بعضهم النصوص لهوى النفوس ـ دون وعي ـ.

والداخل على النص يجب أن يخلع على عتبته آراءه الخاصة وتصوراته الذاتية، ويسلم قياده لهذا النص، يتجه به حيثما توجه.

أما الذين يدرسون النصوص لتأييد مقررات سابقة في نفوسهم، فإن الغالب عليهم ألا ينتفعوا من هذه النصوص، فالإخلاص في طلب الحق شرط أساسي

---

(١) حيث توجد دراسات متفرقة حول موضوع ـ التجديد ـ مثلا، وكذلك موضوع الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعزلة.

لتحصيل الهداية وإدراكها.

ولقد تمر بالمسلمين ـ اليوم ـ قضايا كثيرة في جميع جوانب حياتهم ـ الدعوية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وسواها ـ يتصرفون فيها بمقتضى آرائهم البحتة، التي لابد أن تكون متأثرة بالظروف المحيطة، دون أن يخضعوا هذه القضايا للدراسة الشرعية، ويضبطوها بالضوابط الثابتة في الكتاب والسنة.

ولست أزعم أن هذه الرسائل حققت شيئا كثيرا من هذا المطلب، ولكن يكفي أن تكون محاولة لتوجيه النظر إليه، والإسهام فيه، وبيان ثراء النصوص، وسعتها، وإمكانية البحث في كثير من قضايا العصر المستجدة على ضوئها، ومحاولة للتأكيد على أهمية ربط الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، بالأصول الشرعية الثابتة، والانطلاق منها.

منهج كتابة هذه الرسائل

لعل من المفيد ـ قبل أن أعرض منهجي في هذه الرسائل ـ أن أشير إلى المراحل التي سلكتها في اعدادها منذ البداية.

وقد أحسست ـ عند التفكير بالكتابة في الموضوع أنه ـ ليس موضوعا مقيدا بلفظ الغربة ـ كما قد يتوهم البعض ـ، بل هو شامل للعديد من الكتب المتفرقة المتناثرة في دواوين السنة، ولذلك لم أقنع بكتب الفهارس، وفهارس الكتب، بل عزمت على قراءة ما تيسر من دواوين السنة قراءة متأنية حتى أطمئن إلى عدم الغفلة عن شيء مهم من النصوص ـ وشجعني على ذلك ما أدركته من أهمية الإطلاع على هذه الداووين.

فرتبت برنامجا لقراءتها ـ بدءا بالصحيحين، ثم السنن الأربع، ثم الدارمي والموطأ، ثم المطبوع من صحيح ابن خزيمة، ثم صحيح ابن حبان بواسطة (الإحسان) لعلاء الدين الفارسي (المطبوع منه)، ثم مستدرك الحاكم، وسنن البيهقي، ومشكل الآثار للطحاوي (المطبوع منه)، ثم كتب الزوائد: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (ويستفاد منه تغطية الأبواب والكتب التي لم تطبع بعد من الصحيح)[1]، وكشف الأستار عن زوائد البزار، ومجمع الزوائد حيث يستفاد منه العزو إلى الإمام أحمد، والطبراني في معاجمه الثلاثة، وأبي يعلى (ومعها زوائد البزار)، ومن المعلوم أن كتب الزوائد هذه كلها للحافظ نور الدين الهيثمي، وهي مرتبة ترتيبا موضوعيا يسهل للباحث الظفر بطَلِبَته، وإن كان لا يغني عن الرجوع إلى الكتب الأصلية المطبوعة أو المخطوطة (إذا تيسرت) والعزو إليها والتخريج منها، وهذا ما حاولت الالتزام به .

---

(١) ثم ظهرت مطبوعة مفهرسة، كثيرة التحريف .

ومن بعد ذلك قرأت عددا من الكتب المؤلفة في موضوعات خاصة وهي:

- في العقيدة: التوحيد للإمام الحافظ ابن منده (رسالتا ماجستير).
  وكتاب شرح أصول الاعتقاد للإمام اللالكائي (المطبوع منه).
- في الزهد: ككتاب الزهد لوكيع، والزهد لهناد بن السري، والزهد للإمام أحمد، والزهد لابن أبي عاصم، والزهد لابن المبارك (ومعه زوائد نعيم بن حماد)، والزهد الكبير للبيهقي.
- كتب في موضوعات متفرقة: كفضائل الصحابة للإمام أحمد، وكتاب العزلة للخطابي، وصفة الغرباء للآجري، وغيرها..

وقد استغرقت قراءة هذه المصنفات وقتا ليس بالقصير، وكنت أسجل ـ خلال القراءة ـ النصوص المتعلقة بالبحث، حتى توفر ـ بحمد الله ـ عدد كبير من النصوص في معظم هذه الموضوعات.

أما عن طريقتي في البحث فألخصها في النقاط التالية:

أ ـ جمع أهم النصوص الحديثية المتعلقة بالموضوع، وتقسيمها إلى مجموعات بحسب عناصر الموضوع وفقراته، ثم دراسة الموضوع من خلال هذه النصوص ـ مع ضم ما قد يتعلق به من الآيات القرآنية، إن وجدت ـ والاعتماد في ذلك على آراء العلماء السابقين وأقوالهم، إذا وقفت على شيء منها ـ بعد البحث ـ.

فإن لم يتيسر ذلك اجتهدت فيها بما لا يخرج عن جو النص ودلالته، ومن البدهي أن أقوال العلماء ـ رحمهم الله ـ في بعض الأحيان مختلفة متفاوتة، وإنما مهمة الباحث فيما كان للعلماء السابقين فيه كلام أن يمحص هذه الأقوال والاجتهادات، ويختار منها ما يرى أنه أقرب إلى الصحة، مدعما اختياره بالدليل.

ب ـ عنيت بالخلاصات والنتائج التي هي من أهم ما يحتاجه الناس عموما، وطلبة

العلم والباحثون خصوصا، إذ هي الأمور المقصودة من وراء البحث أصلا، ولذلك فربما أطلت فيها النفس بعض الشيء وربطتها بجوانبها الواقعية ما أمكن، رغبة في النزول بالبحوث والدراسات الشرعية إلى ميدان الحياة العمليّ.

ج ـ قمت بتخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية، ـ أو ما يقوم مقامها عند تعذرها، أو تعسرها ـ ودراستها دراسة حديثية على التفصيل التالي:

١ ــ إن كان الحديث في الصحيحين، أو أحدهما أكتفيت بالعزو إليهما، وإلى المصادر الأخرى التي ورد فيها الحديث، دون تعرض للطرق، ولا للرجال، لأن المقصود صحة الحديث وثبوته، وهذا حاصل في وجوده في البخاري، أو مسلم، أو فيهما ـ مما ورد مورد الاحتجاج ـ.

٢ ــ فإن لم يكن فيهما، ولا في أحدهما، فإنني أدرس إسناده، ثم أحكم عليه، بعد النظر في متنه، ومراعاة ماقد يكون فيه من شذوذ، أو علة قادحة. فإن كان ضعيفا قمت بدراسة إسناد آخر، وهكذا حتى يرتقي الحديث إلى درجة الاحتجاج.

ثم أسوق من المتابعات، والشواهد ما يؤيد ثبوته، دون التزام بدراستها، ولا باستقصائها.

٣ ــ وعند دراسة الرجال راعيت الاختصار، بحيث أقتصر ـ غالبا ـ على الحكم على الرجال من خلال ما ترجح، بعد قراءة أقوال الأئمة المتقدمين، ومقارنتها بالنتيجة التي توصل إليها الحافظان الجليلان: الذهبي، وابن حجر ـ رحمهما الله ـ، إلا أن يكون في الرجل اختلاف لا يطمئن الباحث معه إلى النتيجة المذكورة بشأنه، فلابد حينئذٍ من عرض الأقوال حتى يتمكن القاريء من تأييد الحكم أو الاعتراض عليه من خلالها.

٤ ــ وقد حَرَصت على ذكر أقوال الأئمة في تصحيح الأحاديث، وتضعيفها، كالإمام الترمذي، والحاكم والذهبي، والعراقي، والهيثمي، وابن

حجر، وابن تيمية، والسيوطي... وغيرهم.

وذلك لأن من العسير أن يستقل الباحث في الحكم على حديث ما ـ مع قلة بضاعته في هذا الشأن ـ ويغفل عن حكم الأئمة السابقين الذين تفرغوا لهذا الشأن، وقصروا همهم عليه فصار لديهم ملكة قوية لمعرفة الأسانيد والمتون تمكنهم من تمييز صحيحها من معلولها، ومحفوظها من شاذها.

وقد أتعقب ما تُظهر الدراسة أن فيه نظراً من هذه الأقوال، وغالب ذلك من قول الحاكم أو الهيثمي رحمهما الله لتساهلهما في التصحيح

والمخالف لحكم إمام من الأئمة إنما يرجح حكم إمام آخر يعتقد أنه أصاب في هذا الموضع.

موضوعات هذه الرسائل :

أما عن الموضوعات التي ستطرقها هذه السلسلة ـ بإذنه تعالى ـ فهي مجموعة أبحاث متكاملة، ذات علاقة وطيدة بموضوع (غربة الإسلام) وستخرج بإذن الله تعالى بالتسلسل التالي :

الرسالة الأولى: [الغرباء الأولون] وهي هذه الرسالة، وفي مقدمتها تمهيد عن معاني الغربة، ثم تخريج لحديث « بدأ الإسلام غريباً ... » ثم الكلام عن غربة الإسلام الأولى: أسبابها، مظاهرها، كيفية مواجهتها .

الرسالة الثانية : [صفة الغرباء] وتشمل الحديث عن (الفرقة الناجية) ثم (الطائفة المنصورة) ثم (العلاقة بين الغرباء، والفرقة الناجية، والطائفة المنصورة).

الرسالة الثالثة : [من وسائل دفع الغربة] وتشمل (الصبر والثبات) ثم (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ثم (الجهاد).

الرسالة الرابعة : [العزلة والخلطة] ويدخل فيها أيضا ـ الكلام على التقية والإستسرار بالدين.

هذه هي الرسائل التي تم اعدادها وفي النية إلحاق موضوعات أخرى مثل:

- غربة الإسلام الحاضرة وأسبابها ومظاهرها ووسائل دفعها .
  وذلك إن بسط الله في العمر ونسأ في الأثر .

وفي الأخير أشكر الله تعالى المانّ بكل خير، ثم أشكر من أعان على إعداد هذه الرسائل ومراجعتها وهم عدد من الشيوخ والأساتذة والأخوة الزملاء، أخصّ منهم بالذكر شيخي (أحمد معبد عبدالكريم) استاذ مادة الحديث بكلية أصول الدين التابعة لجامعة الإمام، بالرياض الذي تفضل بقراءة هذه الرسائل وكتابة الملاحظات عليها، فجزاه الله خيراً.

ورحم الله أخاً قرأ فدعا لي بظهر الغيب، أو وجد عيباً فأصلحه.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
والحمد لله رب العالمين .

المؤلف
١٤٠٩/٥/٢٢هـ
بريدة - القصيم



أولا : تمهيـــــد

في

معاني الغربة، والمقصود بها في هذه الدراسة



معاني الغربة ـ عموما ـ
والمقصود بها في هذه الدراسة

أولا: المعاني اللغوية :

يرجع اشتقاق كلمة «الغربة» إلى مادة «غ ر ب» الثلاثية وهي أصل صحيح[1]، ومادة واسعة جدا ذكر صاحب القاموس لأحد تصريفاتها (وهو الغَرْبُ) أربعة وعشرين معنى[2]، واستدرك عليه شارح القاموس محمد مرتضى الزبيدي[3] عشرة معان لم يذكرها، فصار مجموعها أربعة وثلاثين معنى[4].

وإذا كانت هذه المعاني لتصريف واحد.. فما بالك بسائر ما يتفرع عن المادة؟.

أما كلمة « الغربة » فتطلق على معان عدة :

أ ـ منها النوى والبعد، يقال: اغترب غربة، إذا بعد، ونوى غربة: بعيدة[5].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: (٤/٤٢٠).

(٢) القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: (١/١١٣-١١٤).

(٣) هو: محمد بن محمد بن محمد الحسيني الواسطي، الملقب بالمرتضى، المولود سنة خمس وأربعين ومائة وألف للهجرة، المتوفى سنة ألف ومائتين وخمسة، صاحب المؤلفات الشهيرة في سائر الفنون، ومنها: تاج العروس من جواهر القاموس، وله قرابة سبع وثلاثين كتابا أو رسالة في الحديث وعلومه.

انظر ترجمته موسعة في: فهرس الفهارس والأثبات للكتاني: (١/٥٢٦-٥٤٣)، وكتاب: الزبيدي في كتابه تاج العروس، للدكتور/ هشام طه شلاش، وغيرهما.

(٤) تاج العروس للزبيدي: (١/٤٠٤-٤٠٧) .

(٥) القاموس: (١/١١٤)، الصحاح: (١/١٩٠-١٩١)، اللسان: (١/٦٣٨)، التاج: (١/٤٠٥).

ب ـ ومما يقرب من هذا المعنى النزوح عن الوطن، والاغتراب، يقال: رجل غُرُب ـ بضم الغين والراء ـ، وغريب: أي بعيد عن وطنه، والجمع: غرباء[1].

ج ـ ويقرب منهما: الغريب بمعنى أنه ليس من القوم[2]. قال الشاعر:

وإني والعبسيّ في أرض مَذْحِجٍ
غريبان شتى الدار مختلفان
وما كان غض الطرف منا سجية
ولكننا في مذحج غُرُبان[3]

د ـ وتطلق على الغموض والخفاء وعدم الشهرة، ومنه غريب الحديث: أي خفيه الذي لا يظهر معناه[4]، وأغرب: أتى بالغريب[5].

هـ ـ وتطلق على الذهاب والتنحي عن الناس، يقال: غرب عنا، يغرب غربا[6].

وهذه المعاني الخمسة يوجد بينها معنى مشترك تدور حوله معظم استعمالاتْ هذه الكلمة ـ فيما أرى ـ .

فالنوي والبعد يعني فراق الإنسان لوطنه إلى موطن آخر، وتركه قومه إلى قوم آخرين فيكون غريبا بينهم، ليس منهم، ويغلب على حاله عندهم ـ أول

---

(١) اللسان: (٦٣٩/١)، القاموس: (١١٤/١)، مجمل اللغة لابن فارس: (٦٩٤/٣)، التاج (٤٠٧/١).

(٢) اللسان: (٦٤٠/١)، الصحاح: (١٩١/١)، التاج: (٤١٠/١).

(٣) البيتان في: اللسان: (٦٤٠/١) ونسبهما لطهمان بن عمرو الكلابي، والتاج: (٤١٠/١-٤١١)، ونسبهما له أيضا، وهو شاعر أموي عاش في زمن عبدالملك بن مروان وكان لصا فاتكا فقطعت يده، فهرب من موطنه باليمامة إلى اليمن، راجع: ديوانه، ومعجم الشعراء في لسان العرب للدكتور/ياسين الأيوبي: ص(٢٥٠)، رقم الترجمة (٦٠٥).

(٤) اللسان: (٦٤٠/١) .

(٥) الصحاح: (١٩٢/١)، القاموس: (١١٤/١) .

(٦) القاموس: (١١٣/١)، اللسان: (٦٣٨/١)، التاج: (٤٠٤/١) .

الأمر ـ الغموض وعدم البيان.. والمفارق لوطنه وقومه ذاهب متنح عنهم.

والذي جمع هذه المعاني أن غربة الشيء تعني أنه غير موافق كليا أو جزئيا للأشياء التي حوله لغموضه وخفائه، فالرجل الغريب هو من يكون من قوم غير قومه، والكلمة الغريبة هي التي تختلف عن سائر الكلمات في خفائها وعدم وضوحها للناس.. وهكذا.

وقد تكون دلالة هذه الكلمة على مدلولها بالمطابقة كتسمية المقيم بين قومٍ سوى قومه غريبا، وقد تكون بالالتزام كتسمية النازح عن وطنه غريبا لأن نزوحه يقتضي أن يقيم بين ظهراني قوم آخرين فيكون غريبا بينهم. فإذا صح هذا، فإننا نكون قد جمعنا معظم معاني هذه الكلمة في معنى واحد عام مشترك[1].

ثانياً : استعمالاتها في السنة النبوية :

وقد جاء استعمال الغربة، في السنة النبوية، على معان عدة، يجمعها المعنى المشترك العام الذي أشرت إليه من قبل، وأشير الآن إلى معنيين متقاربين منها:

(أ) فجاءت بمعنى المقيم في غير وطنه، وبين قوم غير قومه .

فعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** ».

وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[2].

---

(١) وانظر للاستزادة:
القاموس: (١ـ١١١٣-١١١٥)، معجم مقاييس اللغة: (٤/٤٢٠-٤٢٢)، المجمل: (٣/٦٩٥)، اللسان: (١/٦٣٧-٦٤٨)، الصحاح: (١/١٩١-١٩٤)، التاج: (١/٤٠٤-٤١٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري: (٣/٣٤٨-٣٥٢) وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٨١ ـ كتاب الرقاق، ٣ ـ باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل: (٧/١٧٠). =

فشبه ﷺ الحال التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن الناسك المسدد بحال الغريب الذي ليس له مسكن يؤويه، ولا بيت يكنه، وأموره كلها من المركب والمأكل والمشرب والمسكن مؤقتة عابرة لحال غربته.

= والترمذي في جامعه، ٣٧ ــ كتاب الزهد، ٢٥ ــ باب ما جاء في قصر الأمل، رقم الحديث (٢٣٣٣)، (٥٦٧/٤-٥٦٨).

وابن ماجة في سننه، ٣٧ ــ كتاب الزهد، ٣ ــ باب مثل الدنيا، رقم الحديث (٤١١٤)، (١٣٧٨/٢) مقتصرا منه على المرفوع.

وابن حبان في صحيحه: كما في الاحسان، كتاب: ذكر الأخبار عن الوصف الذي يجب أن «يتصف» المرء به في هذه الدنيا الفانية الزائلة (*) رقم الحديث: (٦٨٧)، ٥٧/٢-٥٨، وأخرج المرفوع منه أيضا في روضة العقلاء: ص (١٤٨)، ذكر الحث على لزوم القناعة.

والإمام أحمد في الزهد: ص (٩)، وفي المسند: (٤١/٢، ٢٤، ١٣٢).

وابن أبي عاصم في الزهد: ص (٧٢-٧٣)، رقم (١٨٥) مقتصرا على المرفوع.

وابن المبارك في الزهد، باب التحضيض على طاعة الله عز وجل: ص (٥) رقم (١٣).

والخطابي في العزلة، باب في ترك الاستكثار من الأصدقاء..، ص (٣٩).

والطبراني في المعجم الصغير: من اسمه أحمد، (٢٩/١-٣٠).

والبيهقي في السنن، كتاب الجنائز، باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستعمله من قصر الأمل، (٣٦٩/٣).

وأبو نعيم في الحلية: (٣٠١/٣) في ترجمة مجاهد بن جبر، ورقمها (٢٤٣).

والنسائي في سننه الكبرى، في الرقائق، ذكره الحافظ المزي في تحفة الأشراف، في ترجمة عبدالله بن عمر، رواية عبدة بن أبي لبابة الأسدي عنه حديث رقم (٧٣٠٤)، (٤٨١/٥).

والبغوي في شرح السنة، كتاب الرقاق، باب قصر الأمل، حديث رقم (٤٠٢٩)، (٢٣٠/١٤-٢٣١)، وقال: هذا حديث صحيح.

والآجري في صفة الغرباء، باب الحث على بلوغ مراتب الغرباء برقم: ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ص (٣٠-٣٣).

(*) كلمة «يتصف» ليست في المطبوعة، وأضفتها ــ ضرورة ــ ليستقيم السياق.

قال ابن بطال: «لما كان الغريب قليل الانبساط إلى الناس، بل هو مستوحش منهم، إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه.، فهو ذليل في نفسه خائف، وكذلك عابر السبيل.. شبه بهما.. وفي ذلك إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف»[١].

فألمح ابن بطال إلى جانب من المعنى وهو أن المقصود تشبيه المؤمن بالغريب لقلة انبساطه إلى الناس، واستيحاشه منهم، وعدم استئناسه معهم.

وثمت جانب آخر من المعنى، وهو أن الغريب المزمع العودة إلى موطنه لا يكاد يتعلق قلبه بشيء في بلد غربته، بل قلبه متعلق بوطنه الذي سيعود إليه[٢].

وكذلك المؤمن: شأنه مع الدنيا ألا يتعلق قلبه بشيء منها، لتعلقه بالدار الآخرة، التي إليها الرجعى، وفيها المستقر.

وللمعنى جانب ثالث، وهو أن الغريب سالم من الرذائل التي منشؤها الاختلاط بالناس والانبساط إليهم، والاشتغال عن الخالق، فهو قليل الحسد والحقد والنفاق والنزاع، قليل الوقوع في أعراض الناس، والوشاية بهم[٣].

وفي الحديث ترقٍّ وتدرج إذ أعقب الأمر بمشابهة الغريب بقوله: «أو عابر سبيل». ولا شك أن تعلقات عابر السبيل أقل من تعلقات الغريب[٤].

ـ وهذا المعنى ـ الذي هو إطلاق «الغربة» على الغربة الحسية، وهي مفارقة الأهل والوطن، ومساكنة قوم آخرين، قد ورد في أحاديث كثيرة جداً، لا داعي لسردها هنا[٥].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: (٢٣٤/١١).

(٢) فتح الباري: (٢٣٤/١١-٢٣٥).

(٣) شرح الكرماني على البخاري: (١٩٤/٢٢)، والمعنى نفسه في: عمدة القاري للعيني: (٣٣/٢٣).

(٤) شرح الكرماني على البخاري: (١٩٤/٢٢)، ونقل العبارة ابن حجر في الفتح منسوبة للكرماني: (٢٣٥/١١)، ونقلها العيني غير منسوبة (٣٣/٢٣).

(٥) انظر للمثال: =

(ب) وجاءت بمعنى الاغتراب المعنوي، وهو أن يكون المرء على حال من الاستقامة ولزوم الجادّة، ومجانبة، الفتن والأهواء، وملازمة السمت الذي كان عليه الصدر الأول، مع قلة النصير والمعين والموافق، وكثرة المنابذ والمخذل والمخالف، فيسمى صاحب هذه الحال «غريبا» ذهابا إلى المعنى العام الذي أشير إليه قبل — وهو عدم موافقته لمن حوله، إذ له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في واد.

وهذا المعنى هو المقصود في هذا البحث أصلا، وهو المفهوم من قوله ﷺ: **«إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ»**[1].

= البخاري: كتا مناقب الأنصار، باب قصة زمزم — باب ١١ .

ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، حديث (١٠).

وأحمد: ٢٨٩/٦ .

وابن ماجه — كتاب الجنائز، باب ما جاء فيمن مات غريبا، باب ٦١، حديث (١٦١٣) .. وغيرها.

(١) يأتي تخريجه في الصفحات التالية — بإذن الله — .

ثانياً : حديث « بدأ الاسلام غريبا »

تخريج ودراسة

قد ورد هذا الحديث ــ باختلاف سياقاته وعباراته ــ من طرق كثيرة جدا، موصولا ومرسلا، ورواه عن النبي ﷺ عدد كبير من الصحابة يربو على العشرين، وهذا تفصيل أحاديثهم:

١ ــ عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال:

«إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا، كما بدأ. وهو يأرز[1] بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»[2].

---

(١) أصل الأرز: الاجتماع والانقباض، غريب الحديث للخطابي: (٥٢١/٢)، والمعنى أنه يرجع إليها، ويجتمع بعضه إلى بعض فيها، النهاية: (٣٧/١)، وضبطه بكسر الراء المهملة ــ على المشهور ــ في المضارع، وقيده بعضهم بالفتح، انظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار: للقاضي عياض: (٢٧/١)، وشرح النووي على مسلم: (١٧٧/٢).

(٢) رواه مسلم في: ١ ــ كتاب الإيمان، ٦٥ ــ باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين، حديث رقم (١٤٦)، (١٣١/١).

وابن منده في الإيمان: ٨٠ ــ ذكر ابتداء الإسلام والإيمان وتغربه..، برقم (٤٢١)، (٥٢٠/٢).

ورواه البيهقي في الزهد الكبير برقم (٢٠٢) ص (١٤٧)، وفيه زيادة.

ورواه من وجه آخر بلفظ مسلم إلا أحرفا يسيرة جدا، رقم (٢٠٣، ص ١٤٧-١٤٨).

ورواه البزار في مسنده دون ذكر المسجدين، وزاد: «فطوبى للغرباء»، كما في كشف الأستار للهيثمي ــ كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ، رقم الحديث (٣٢٨٨)، (٩٩/٤)، وفي اسناده: ليث، وهو ابن أبي سليم روى عنه مسلم مقرونا بغيره، وضعفه يحيى والنسائي والقطان وأبو حاتم، وقال أحمد: مضطرب الحديث، ورواه عيسى بن يونس وابن حبان بالاختلاط. الميزان: (٤٢٠/٣)، =

٢ ــ وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ:
« بدأ الإسلام غريبا، وسيعود ــ كما بدأ ــ غريبا، فطوبى[(١)] للغرباء »[(٢)].

= التهذيب: (٤٦٥/٨).
وقد وردت هذه الزيادة عن ابن عمر من طريق أخرى عند البيهقي في الزهد الكبير، وهي السابقة برقم (٢٠٢)، ولكن فيها يحيى بن المتوكل وهو شديد الضعف جدا، انظر: التهذيب: (٢٧٠/١١)، الميزان: (٤٠٤/٤).
ورواه أبو يعلى في مسنده وفي أوله قصة، وزاد: «فطوبى للغرباء يوم القيامة» قيل له: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين إذا فسد الناس صلحوا» ذكره في: المطالب العالية لابن حجر ــ كتاب الزهد والرقائق ــ باب الوصايا النافعة: (١٤٨/٣).
ولكن في اسناده: كوثر بن حكيم، وهو متروك الحديث، وانظر في ترجمته: الكامل لابن عدي: (٢٠٩/٦-٢٠٩٨)، والضعفاء الصغير للبخاري ص (٩٨)، والضعفاء والمتروكون للنسائي: ص (٨٩)، ولكنها ـ بفقرتيها ــ صحيحة عن غيره ــ رضي الله عنه ــ كما سيأتي تفصيل ذلك في موضعه ــ إن شاء الله ــ.
والحديث ورد في كتاب البدع والنهي عنها لابن وضاح عن سالم بن عبدالله قال: سمعت رسول الله...، والراوي عنده هو الراوي عند البيهقي: يحيى بن المتوكل عن أمه أنها سمعت سالم بن عبدالله بن عمر ــ قال يحيى: وقد رأيت سالما يحدث عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ.
الزهد الكبير، برقم (٢٠٢) ص: (١٤٧).
ومن هنا يظهر السقط من إسناد ابن وضاح حيث جاء في المطبوع هكذا: «سمعت سالم بن عبدالله يقول: سمعت رسول الله ﷺ ...».
البدع والنهي عنها: باب في نقض عرى الإسلام: ص (٦٥) .
(١) طوبى: فُعلَى من الطيب، قاله الفراء، قال: وإنما جاءت الواو لضمة الطاء.. واختلف المفسرون في معناها، فقيل: الخير والفرح والنعيم، وقيل: الجنة، وقيل: شجرة في الجنة. انظر: شرح النووي: (١٧٦/٢)، النهاية: (١٤١/٣).
(٢) رواه مسلم في: ١ ــ كتاب الإيمان، ٦٥ ــ باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا، وأنه يأرز بين المسجدين، رقم (١٤٥)، (١٣٠/١).
ورواه ابن ماجة في سننه: ٣٦ ــ كتاب الفتن، ١٥ ــ باب بدأ الإسلام غريبا، رقم =

....

= الحديث (٣٩٨٦)، (١٣١٩/٢-١٣٢٠).
والإمام أحمد في مسنده: (٣٨٩/٢).
وابن منده في الإيمان: ٨٠ ــ ذكر ابتداء الإسلام والإيمان وتغربه...، برقم (٤٢٢، ٤٢٣)، (٥٢٠/٢-٥٢١).
والإمام اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، في سياق ما روي عن النبي ﷺ، في الحث على اتباع الجماعة والسواد الأعظم...، رقم الحديث (١٧٤)، (١١٢/١).
والآجري في كتاب: صفة الغرباء: ص (٢٠)، رقم الحديث (٤).
والطحاوي في مشكل الآثار، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: «إن الإسلام بدأ غريبا»، (٢٩٨/١).
ورواه أبو عوانة في صحيحه، بيان أن الساعة لا تقوم مادام في الأرض من يوحد الله... (١٠١/١).
ورواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» في ترجمة عثمان بن الحسن بن علي بن محمد، رقمها (٦١٠٢)، (٣٠٧/١١).
ورواه أيضا في شرف أصحاب الحديث، قول النبي ﷺ بدأ الإسلام غريبا..، ص (٢٣)، رقم (٣٧).
ورواه ابن عدي في الكامل، في ترجمة بكر بن سليم الصواف (٤٦٢/٢).
وقد رواه هؤلاء الأئمة من طريق أبي حازم عن أبي هريرة ــ خلا الطحاوي وأحمد وابن منده ــ في إحدى روايتيه فقد رووه من طريق العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه، عن أبي هريرة.
وقد ورد عن أبي هريرة من طريق ثالثة، ولكنها معلّة، أشار إليها ابن أبي حاتم في كتاب «العلل» فقال:
«سألت أبي عن حديث رواه ابن أبي أويس قال: حدثني أبي عن عمر بن شيبة بن أبي كثير، مولى أشجع، وثور بن يزيد، وخاله موسى بن ميسرة الديليين، وغيره عن نعيم المجمر، وعن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، (رفعوا الحديث)، قال النبي ﷺ: «يعود الإسلام كما بدأ ــ أي: أنه بدأ غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء، فقيل: يارسول الله من الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس». =

٣ ـــ وعن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة(١) عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال:

إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية(٢) من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريبا، ويرجع غريبا، فطوبى للغرباء الذين يُصْلِحون ما أفسد النّاس من بعدي من سنتي(٣).

= قال أبي: عمر بن شيبة مجهول، وهذا حديث موضوع» أ.هـ.

(١) في مطبوعة الترمذي بتعليق عطوة عوض جاء الإسناد هكذا:
... كثير بن عبدالله عن عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة عن أبيه عن جده*، وهو تحريف فاحش، وسبق مثله في الحديث رقم (٤) والتصويب هنا من المتن المطبوع مع تحفة الأحوذي: (٣٨٢/٧)، ومن المصادر التي أخرجت الحديث، ومن كتب التراجم ــ وانظرها بعد.
وقد جاء في مطبوعة التاريخ الصغير للبخاري: ابن طلحة ـــ بالطاء لا بالميم ـــ، والصواب: ملحة أو مليحة، انظر: التاريخ الصغير (١٥٢/٢).
وانظر للتصويب: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر: (٣٤٧/٨)، رقم الترجمة (١٩٤٣)، والاصابة في تمييز الصحابة (١٣٢/٧) رقم الترجمة (٥٩١٩)، واسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير: (٢٥٩/٤)، رقم الترجمة (٣٩٩٤).
وانظر: مصادر ترجمة كثير بن عبدالله فيما يأتي.

(٢) الأروية: هي الأنثى من الوعول، وهي شياه الجبل، وقيل غير ذلك وتجمع جمع قلة على أراوي، فإذا كثرت فهي الأروي، انظر: غريب الحديث للخطابي: (٦٥/٢)، والنهاية: (٢٨٠/٢).

* وفي الترمذي المطبوع مع العارضة لابن العربي، كذلك، وقد جاء في بعض الأصول عندهم على الصواب، فحرفوه، وسموا التحريف، تصويبا!، (٩٦/١٠).

(٣) رواه الترمذي في: ٤١ ـــ كتاب الإيمان، ١٣ ـــ باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبا..، برقم (٢٦٣٠)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وفي بعض النسخ: حسن، كما في المطبوع مع تحفة الأحوذي: (٣٨٣/٧)، وكما في تحفة الأشراف: (١٦٧/٨)، واللفظ للترمذي. =

٤ ــ وعن عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء»[1].

= ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ، فضل المدينة المنورة: (١/٣٥٠).
والبزار مقتصرا على قوله: «إن الدين... فطوبى للغرباء»، كشف الأستار (٤/٩٨-٩٩).
وأبو نعيم في الحلية، في ترجمة عمرو بن عوف المزني، ولم يذكر أوله، رقم الترجمة (٩٨)، (٢/١٠).
والخطيب في شرف أصحاب الحديث، قول النبي ﷺ: بدأ الإسلام غريبا...، دون ذكره أوله، وفي آخره: «الذين يحيون سنتي من بعدي، ويعلمونها عباد الله» ص (٢٣).
والبيهقي في الزهد الكبير، بنحو لفظ الخطيب، برقم (٢٠٧) ص: (١٥٠).
ورواه البغوي في شرح السنة تعليقا بلفظ الترمذي، في كتاب الإيمان باب: الإسلام بدأ غريبا..، بدون رقم، (١/١٢٠-١٢١).
وهذا الاسناد ضعيف جدا، لأن مداره على كثير بن عبدالله المزني ضعفه ابن المديني والساجي ويعقوب بن سفيان، وقال النسائي والدارقطني: متروك الحديث، وقال ابن حبان: روى عن أبيه عن جده نسخة موضوعة، لا يحل ذكرها في الكتب، ولا الرواية عنه إلا على جهة التعجب، وانظر مواضع ترجمته في: تهذيب التهذيب (٨/٤٢١)، الجرح والتعديل: (٧/١٥٤)، تاريخ يحيى بن معين: (٢/٣٩٤) وغيرها...
وقال الذهبي في الميزان: «وأما الترمذي فروي من حديثه: «الصلح جائز بين المسلمين» وصححه، فلهذا لا يعتمد العلماء على تصحيح الترمذي» (٣/٤٠٦-٤٠٧).
لكن الحديث صح من طرق أخرى ــ سبق بعضها، ويأتي باقيها إن شاء الله خلا قوله: «وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل»، فقد انفرد بهذه الزيادة كثير بن عبدالله، وحاله كما عرفت.

(١) رواه الترمذي في سننه: ٤١ ــ كتاب الإيمان، ١٣ ــ باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا، رقم الحديث (٢٦٢٩)، (٥/١٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود إنما نعرفه من حديث حفص بن غياث عن الأعمش، وأبو الأحوص اسمه: عوف بن مالك بن نضلة الجشمي، تفرد به حفص*. =

* في المطبوعة جاء الإسناد هكذا: «حدثنا أبو حفص بن غياث»، والصواب حفص بن =

= ورواه ابن ماجه في: ٣٦ ــ كتاب الفتن، ١٥ ــ باب بدأ الإسلام غريبا، حديث (٣٩٨٨) بنحوه، وزاد: قال: قيل: ومن الغرباء؟ قال: النزاع من القبائل: (١٣٢٠/٢).
والدارمي بنحو رواية ابن ماجه في: ٢٠ ــ كتاب الرقاق، ٤٢ ــ باب إن الإسلام بدأ غريبا. حديث (٢٧٥٨)، (٢٢٠/٢).
ورواه الطحاوي في مشكل الآثار ــ باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: إن الإسلام بدأ غريبا..، (٢٩٧/١-٢٩٨)، بإسنادين، وفي روايته الأولى: الرعاع من القبائل، وفي الثانية: رعاع الناس.
ورواه ابن وضاح القرطبي في البدع والنهي عنها ــ باب في نقض عرى الإسلام ودفن الدين..، ص (٦٥)، كرواية ابن ماجه.
ورواه البيهقي في الزهد الكبير كذلك، برقم (٢٠٨)، ص (١٥٠).
ورواه الآجري في صفة الغرباء برقم (٢) ص (١٧-١٨).
وعنه البغوي في شرح السنة ــ كتاب الإيمان ــ باب: الإسلام بدأ غريبا، وسيعود كما بدأ، برقم (٦٤)، (١١٨/١)، وقال: هذا حديث صحيح غريب.
وأخرجه ــ أيضا ــ الإمام أحمد في مسنده: (٣٩٨/١).
والخطابي في غريب الحديث، في مادة «نزع»: (١٧٤/١-١٧٥).
والخطيب البغدادي في: شرف أصحاب الحديث ــ قول النبي ﷺ: بدأ الإسلام غريبا، برقم (٣٩)، ص (٢٣).
ورواه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال، ترجمة سليمان بن حيان أبي خالد الأحمر (١١٣٠/٣) وفيه «نوازع الناس».
ورواه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (ل: ٢٥ ب).
ومدار هذا الحديث على: الأعمش عن أبي اسحق عن أبي الأحوص عن عبدالله.
والأعمش هو سليمان بن مهران الأعمش: ثقة حافظ مدلس، من الطبقة الثانية، وقد روي عن أبي إسحق، وروي عنه أبو اسحق، انظر: التقريب: (٣٣١/١)، تهذيب الكمال: (٥٤٦/١)، تعريف أهل التقديس لابن حجر: ص (٦٧). =

= * غياث، كما جاء بعد، وهو كذلك في المصادر الأخرى التي أخرجت الحديث، وفي كتب التراجم، انظر: التهذيب (٤١٥/٢)، وفي المتن المطبوع مع تحفة الأحوذي: (٣٨٠/٧).

٥، ٦، ٧، ٨ ــ وعن أبي الدرداء، وأبي أمامة، وواثلة بن الأسقع، وأنس بن مالك أن النبي ﷺ قال:

« إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا، قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس، ولا يمارون(١) في دين الله، ولا يكفرون أحدا من أهل التوحيد بذنب »(٢)

= وأبو إسحق هو: عمرو بن عبدالله الهمذاني السَّبيعي ــ بفتح السين المهملة، ثقة عابد اختلط بآخره، وهو مدلس من الطبقة الثالثة، انظر: التقريب (٧٣/٢)، والتهذيب: (٦٣/٨)، وتعريف أهل التقديس: ص (١٠١).

وأبو الأحوص: عوف بن مالك بن نضلة الجشمي: ثقة، تهذيب: (١٦٩/٨)، والتقريب: (٩٠/٢).

فهذا الإسناد: ضعيف، لاختلاط أبي إسحق السبيعي وتدليسه فالزيادة التي فيه لا تصح، وهي: «النزاع من القبائل». أما بقية الحديث، فهو ثابت كما سبق، وسيأتي.
أما قول الترمذي ــ رحمه الله ــ: «إنما نعرفه من حديث حفص بن غياث عن الأعمش.. تفرد به حفص»، فينفيه أنه رواه عن الأعمش ـ غير حفص بن غياث: سليمان بن حبان، أبو خالد الأحمر، وروايته عند الطحاوي في المشكل وعند ابن عدي في الكامل ــ كما تقدم في التخريج ــ، فثبت عدم تفرد حفص به. والله أعلم.
وفي مطبوعة الزهد الكبير للبيهقي: «.. حفص بن غياث عن أبي اسحق عن أبي الأحوص»، وفي سائر المصادر أن بين حفص، وأبي إسحق: الأعمش.

(١) في الطبراني المطبوع: «ولا يمارسون»، والتصويب من مجمع الزوائد حيث ذكر الحديث في ثلاثة مواضع وعزاه للطبراني في الكبير، وهي: (١٥٦/١)، كتاب العلم ــ باب ما جاء في المراء، (١٠٦/١) كتاب الإيمان ــ باب لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، (٢٥٩/٧) كتاب الفتن ــ باب افتراق الأمم.
ومن المصادر الأخرى التي أخرجت الحديث .
والمراء هو الجدال والمخاصمة، لأن كل واحد من المتماريين يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه، كما يمتري الحالب اللبن من الضرع. انظر: النهاية: (٣٢٢/٤).

(٢) رواه الطبراني في معجمه الكبير، في ترجمة أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي، رواية عبدالله بن يزيد بن آدم عنه، وفي أوله سياق طويل في التحذير من المرأ وبيان اختلاف =

٩ ــ وعن أنس بن مالك ــ رضي لله عنه ــ عن رسول الله ﷺ قال: **إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء**(١).

= الأمة ــ وسيأتي ــ رقم الحديث (٧٦٥٩)، (٨/١٧٨-١٧٩).
والآجري في صفة الغرباء بلفظ: «إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا فطوبى للغرباء»، رقم (٥) ص ٢١.
وابن حبان في المجروحين، في ترجمة كثير بن مروان السلمي (٢/٢٢٥) وساقه بتمامه.
والخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة كثير أيضا، كرواية الآجري سواء، رقم الترجمة (٦٩٥٤)، (١٢/٤٨١).
والبيهقي في الزهد الكبير، دون ذكر السياق الأول، برقم (٢٠١)، ص (١٤٧).
ومدار الحديث عند جميعهم على كثير بن مروان الشامي* عن عبدالله بن يزيد** الدمشقي.
وقد أعله الهيثمي بالأول، قال مرة: ضعيف جدا، وقال مرة: كذبه يحيى والدارقطني.
وكثير قال فيه يحيى والدارقطني: ضعيف، وقال يحيى ــ مرة ــ: كذاب، وقال يعقوب بن سفيان الفسوي: ليس حديثه بشيء، انظر: الميزان: (٣/٤٠٩)، والمعرفة والتاريخ: (٢/٤٥٠)، والمجروحين لابن حبان: (٢/٢٢٥).
ولكن في الحديث علة أخرى فإن عبدالله بن يزيد هو ابن آدم الدمشقي، ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، وذكر عنه حديثا، وقال: سألت أبي عنه فقال: لا أعرفه وهذا حديث باطل.
وقال الإمام أحمد: أحاديثه موضوعة، انظر: الجرح والتعديل: (٥/١٩٧)، والمغني في الضعفاء: (١/٣٦٣)، والديوان ص (١٨٠).
فالحديث على هذا باطل، ولكن أصل المتن المتعلق بالغربة صحيح عدا وصف الغرباء بترك المراء وترك التكفير.

* في نسخة المجروحين المطبوعة: «السلمي» والتصويب من المصادر التي أخرجت الحديث، ومن كتب التراجم.

** وفي نسخة المجروحين أيضا: «عبدالله بن بريد»، في موضعين، والتصويب من مصادر الحديث، وكتب التراجم.

(١) رواه ابن ماجه في : ٣٦ ــ كتاب الفتن، ١٥ ــ باب بدأ الإسلام غريبا حديث =

١٠ ــ وعن سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ قال:: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« إن الإيمان بدأ غريبا، وسيعود كما بدأ، فطوبى يومئذ للغرباء، إذا فسد الناس. والذي نفس أبي القاسم بيده ليأرِزن الإيمان بين هذين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها »[1].

= رقم (٣٩٨٧)، (٢/١٣٢٠).

والطحاوي في المشكل: باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: إن الإسلام بدأ غريبا.. (١/٢٩٨).

كلاهما من طريق يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، أو سعد بن سنان، عن أنس.

ويزيد: ثقة فقيه. انظر: التهذيب (١١/٣١٨)، والتقريب: (٢/٣٦٣).

وسنان بن سعد، أو سعد بن سنان، مختلف في اسمه: صدوق له أفراد. انظر: التهذيب (٣/٤٧١)، التقريب (١/٢٨٧).

فالحديث ــ بهذا الإسناد ــ حسن .

وقد تابع سعدا:

مالك بن دينار عند الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ترجمة عمار بن محمد بن مخلد التميمي، ورقمها (٦٧٠٤)، (١٢/٢٥٧).

ومالك: ثقة زاهد. انظر: التهذيب (١٠/١٤)، التقريب (٢/٢٢٤).

والحسن البصري عند أبي نعيم في أخبار أصبهان: ترجمة إسماعيل بن زياد بن عبيد الخزاعي، (١/٢١٢).

والحسن: ثقة فقيه إمام مشهور، ولكنه يرسل ويدلس، وقد لقي أنسا، وأخذ عنه، وسبق.

فالحديث عن أنس صحيح، وله طرق أخرى ستأتي ــ إن شاء الله ــ.

(١) رواه الإمام أحمد عن أبي حازم عن ابن لسعد بن أبي وقاص قال: سمعت أبي..، (١/١٨٤)، وكذلك رواه عبدالله بن أحمد في زياداته على المسند في الموضع ذاته.

والبزار عنه عن ابن سعد ــ وأحسبه عامراً ــ عن أبيه، إلى قوله: «فطوبى للغرباء»، كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا..، حديث رقم (٣٢٨٦)، كشف الأستار (٤/٩٨) . =

١١ ــ وعن جابر بن عبدالله ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ **« إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء، قال: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس »**(١).

= ونسبه الهيثمي في المجمع لأبي يعلى، كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا.. (٧/٢٧٧).
وابن منده في الإيمان: ٨٠ ــ ذكر ابتداء الإيمان والإسلام وتغربه..، برقم (٤٢٤)، (٥٢١/٢) وسمى ابن سعد: عامرا.
ورواه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (ل ٢٦/أ).
وعامر بن سعد: إمام ثقة مكثر، انظر ترجمته في التهذيب: (٥/٦٤)، وسير أعلام النبلاء: (٤/٣٤٩)، وطبقات ابن سعد (٥/١٦٧) وغيرها فالحديث صحيح ·
وقد قال فيه الهيثمي في المجمع: «ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح».
وقال الشيخ أحمد شاكر: (٣/٩٥)، رقم الحديث (١٦٠٤).
«إسناده صحيح على إبهام ابن سعد بن أبي وقاص، فإن أبناءه كلهم ثقات معروفون».
وصحح الشيخ الالباني إسناد أبي عمرو الداني، كما في حاشية المشكاة: (١/٦٠).
أما قول الشيخ أحمد شاكر ــ رحمه الله ــ إن أبناء سعد كلهم ثقات معرفون، فما يسلم له ذلك ــ وكانوا عشرة ــ بل إن فيهم من لم يذكر بجرح ولا تعديل ــ فيما وقفت عليه من المصادر ــ كعمر وعمير وإسماعيل ويحيى وعبدالرحمن.
وانظر أسماءهم وتراجمهم في: طبقات ابن سعد: (٥/١٦٧-١٧٠) وسير أعلام النبلاء: (٤/٣٤٨-٣٥١)، والمعارف لابن قتيبة ص (١٠٦)، وطبقات خليفة بن خياط، ص (٢٤٣) وغيرها..
بل إن من العلماء من نال من عمر بن سعد لأنه اشترك في قتل الحسين، انظر: التهذيب، ومختصر سنن أبي داود للمنذري: (٢/١٤٢).
ولكن تصريح ابن منده باسم ابن سعد، وأنه عامر، وإشارة البزار إليه قد كفت المؤونة في ذلك.

(١) الحديث رواه الطبراني في معجمه الأوسط، كما في مجمع الزوائد، كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا، (٧/٢٧٨).
ورواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، وفيه: «قلنا: من هم؟» برقم (١٧٣)، (١/١١٢). =

١٢ ــ وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنهما ــ قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن عنده: « **طوبى للغرباء، فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: أناس صالحون، في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم** »[1].

= ورواه الطبراني في مشكل الآثار، بيان مشكل ما روي عن النبي ﷺ من قوله إن الإسلام بدأ غريبا.. (٢٩٨/١).

ورواه البيهقي في الزهد الكبير، برقم (٢٠٠)، ص (١٤٦).

وفي إسناده عندهم: عبدالله بن صالح كاتب الليث، اضطربت فيه أقوالهم، ولعل أعدل الأقوال فيه أنه صدوق كثير الغلط، مناكيره قليلة في سعة ما روىٰ، ويظهر ــ والله أعلم ــ أن روايته عن الليث أقوى من غيرها لمزيد اختصاصه به، وملازمته له في السفر والحضر.. انظر:

تهذيب التهذيب: (٢٥٦/٥)، سير أعلام النبلاء: (٤٠٥/١٠) مقدمة فتح الباري: (٤١٣-٤١٥)، التقريب (٤٢٢/١).

وهذا الحديث رواه عن الليث.

وفيه ــ أيضا ــ أبو عياش، ذكره ابن عبدالبر ضمن المشهورين من حملة العلم بالكنى، في كتابه: «الاستغناء»: (١٤٧٦/٣).

وذكره مسلم في الكنى والأسماء: (٦٣٦/١)، وهو أبو عياش بن النعمان المعافري المصري.

وحسن المعلق على الزهد الكبير إسناد الحديث لوجود عبدالله بن صالح، أما أبو عياش فقال فيه: ثقة، وأحال إلى الكاشف، وما في الكاشف شيء من ذلك!.

والحديث ضعيف بهذا الإسناد، لجهالة حال أبي عياش، ولكنه صحّ من طرق أخرى عن عدد من الصحابة ــ كما مر ــ، وبها يرتقي الحديث إلى الحسن.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده في موضعين: (١٧٧/٢)، (٢٢٢/٢).

والإمام عبدالله بن المبارك في الزهد، باب ما جاء في (ذنب) التنعم بالدنيا، برقم (٧٧٥)، ص (٢٦٧).

ويعقوب بن سفيان الفسوي في المعرفة والتاريخ، في ذكر ثقات التابعين من أهل مصر ــ ترجمة سفيان بن عوف القارّي ــ بتشديد الراء المهملة ــ (٥١٧/٢). =

....

= ورواه الطبراني في الكبير كما في المجمع، كتاب الزهد، باب فضل الفقراء: (٢٥٩/١٠) ولم أجده في الطبراني المطبوع.

ورواه في الأوسط أيضا، كما في المجمع، كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا: (٢٧٨/٧).

ورواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، وفي المطبوع: «من يبغضهم» وأظنه تحريفا، باب في نقض عرى الإسلام..، ص (٦٤).

ورواه الآجري في صفة الغرباء برقم (٦)، ص (٢٢-٢٣) .

ورواه البيهقي في الزهد الكبير وفي آخره اختلاف في اللفظ، برقم (٢٠٥) ص (١٤٨).

وفي رواية أحمد الثانية، وإحدى نسخ الزهد لابن المبارك، ورواية الطبراني في الكبير، والبيهقي في الزهد، كرر قوله «طوبى للغرباء» مرتين أو ثلاثا.

وفي أسانيدهم ــ عبدالله بنُ لهيعة، عدا إسناد الطبراني في الكبير فلم أقف عليه، وقد قال فيه الهيثمي: «وله في الكبير أسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح».

وابن لهيعة ضعيف عند أكثرهم إلا أن ما رواه عنه العبادلة فهو أصح، وهم عبدالله بن المبارك، وعبدالله بن وهب، وعبدالله بن يزيد المقريء، وعبدالله بن مسلمة القعنبي، وذلك لأنهم سمعوا منه قبل احتراق كتبه، قاله ابن حبان وغيره.

ولعل قريبا منهم قتيبة بن سعيد، فإنه كان يكتب من كتاب ابن وهب، ثم يسمعه بعدُ من ابن لهيعة، وقد قال له الإمام أحمد: أحاديثك عن ابن لهيعة صحاح.

اللهم الا أن يكون في بعض ذلك تخليط فيطرح.

وانظر: تهذيب التهذيب: (٣٧٣/٥-٣٧٩)، الجرح والتعديل (١٤٥/٥-١٤٨)، والسير: (١١/٨-٣١) وغيرها.

وهذا الحديث رواه عن ابن لهيعة:

١ ــ عبدالله بن المبارك في الزهد ــ كما مر في التخريج ــ ومن طريقه الآجري في الغرباء .

٢ ــ أبو عبدالرحمن كما في رواية البيهقي، ولعله أبو عبدالرحمن المقري، عبدالله ابن يزيد، إذ الراوي عنه عند البيهقي بشر بن موسى الأسدي، وقد أخذ عنه. =

١٣ ــ وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنهما ــ أيضا ــ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحبّ شيء إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم، يبعثهم الله ــ عز وجل ــ يوم القيامة مع عيسى بن مريم ــ عليه السلام »**[1].

= وانظر: تهذيب التهذيب: (٨٣/٦)، وسير أعلام النبلاء: (١٢/٩).

٣ ــ قتيبة بن سعيد ــ في إحدى روايتي الإمام أحمد :

والحديث ــ بعد هذا ــ ليس فيه ما ينكر من مخالفة أو غيرها .

فالحديث حسن ــ إن شاء الله ــ .

هذا دون النظر إلى أسانيد الطبراني في الكبير، والتيمن المرجح أن يخلو أحدها من ابن لهيعة نظرا لقول الهيثمي السابق فيها، مع إعلاله لإسناد الأوسط بابن لهيعة حيث قال: «رواه أحمد والطبراني في الأوسط... وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف».

(١) رواه عبدالله بن الإمام أحمد، في زوائده على الزهد، زهد عمران بن الحصين ــ رضي الله عنه ــ، واللفظ له. ص (١٤٩).

ومن طريقه رواه أبو نعيم في الحلية: المقدمة، (٢٥/١).

ورواه البيهقي في الزهد الكبير برقم (٢٠٦)، ص (١٤٩).

ووهم من نسبه للإمام أحمد، كمحقق الزهد الكبير، ومحقق كتاب الغربة للآجري، بل هو من زوائد عبدالله.

ورواه ــ موقوفا على عبدالله من قوله ــ :

الإمام أحمد في الزهد، حكمة عيسى ــ عليه السلام ــ ص ــ(٧٧).

وابن المبارك في الزهد، برقم (١٥١٣)، ص (٥٣١-٥٣٢).

والآجري في الغرباء، باب صفة الغريب الذي لو أقسم على الله لأبر قسمه، برقم (٣٧)، ص (٤٩).

والبخاري في التاريخ الكبير، في ترجمة (سليم بن هرمز)، (١٣٠/٤).

وفي الموقوف «يجتمعون إلى عيسى بن مريم ــ عليه السلام ــ يوم القيامة»، بدلا من قوله: يبعثهم الله...

وإسناد المرفوع فيه: «سفيان بن وكيع بن الجراح»، وقد وقع في مطبوعة الزهد الكبير للبيهقي «سفيان عن وكيع بن الجراح»، وهو تحريف. =

١٤ ــ وعن عبدالرحمن بن سنة أنه سمع النبي ﷺ يقول: « بدأ الإسلام غريبا، ثم يعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس. والذي نفسي بيده لينحَازنَّ الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيل[1]، والذي نفسي بيده ليأرزن الإسلام إلى ما بين

= وسفيان ابتلى بوراق غير أمين، فأدخل عليه ما ليس من حديثه، ونصحه أبو حاتم وغيره فلم ينتصح فترك الناس حديثه.

انظر: تهذيب الكمال: (٥١٦/١)، تهذيب التهذيب (١٢٣/٤).

وفيه علة أخرى، وهي تدليس ابن جريج، وهو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج، ثقة، ولكنه يدلس عن المجروحين، قاله الدارقطني وغيره، وقد عنعن في جميع الطرق المذكورة.

فالحديث ضعيف جدا .

أما الموقوف فمداره على محمد بن مسلم الطائفي، عن عثمان بن عبدالله بن أوس، عن سليمان بن هرمز.

ومحمد بن مسلم صدوق له غرائب، انظر: تهذيب التهذيب (٤٤٤/٩)، والتقريب: (٢٠٧/٢).

وعثمان بن عبدالله بن أوس، ترجم له البخاري في التاريخ الكبير، وابن أبي حاتم، ولم يذكرا فيه جرحا ولا تعديلا، وعده ابن حبان في الثقات، وقال ابن حجر في التقريب: مقبول: (١١/٢).

وانظر: التاريخ الكبير: (٢٣١/٦)، الجرح والتعديل: (١٥٥/٦)، والثقات: (١٩٨/٧).

أما سليمان بن هرمز فهكذا جاء اسمه في جميع مصادر الحديث ــ عدا تاريخ البخاري ــ وكذلك جاء في تهذيب التهذيب (ضمن ترجمة) (١٢٩/٧)، أما البخاري فسماه (سليم بن هرمز)، ولم يذكره بجرح ولا تعديل، وعده ابن حبان في الثقات.

انظر التاريخ الكبير: (١٣٠/٤م)، الثقات: (٣٣١/٤).

وبناء عليه، فالموقوف ضعيف ــ أيضا .

(١) الحوز: الجمع، وكل من ضم شيئا إليه فقد حازه، والمعنى: يجتمع فيها، وينضم ويتحيز، انظر: النهاية: (٤٥٩/١)، واللسان: (٣٣٩/٥). =

المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها»[1].

---

(١) الحديث رواه عبدالله بن أحمد في زوائده على المسند، في مسند عبدالرحمن: (٤/٧٣-٧٤).

ورواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، باب في نقض عرى الإسلام..، مقتصرا على ما يتعلق منه بالغربة، ص (٦٥-٦٦).

وعزاه الهيثمي في المجمع للطبراني* دون تحديد، في كتاب الفتن، باب بدا الإسلام غريبا..، كرواية ابن وضاح (٧/٢٧٨).

ورواه ابن عدي في الكامل، في ترجمة عبدالرحمن بن سنة كرواية ابن وضاح: (٤/١٦١٥).

ورواه أبو نعيم في ذكر أخبار أصبهان، في ترجمة عبدالله بن محمد بن اسحق، إلى قوله «فطوبى يومئذ للغرباء»: (٢/٨٣).

والحديث ورد من طريقين :

الأولى: عند عبدالله والطبراني وابن وضاح وابن عدي، وهي طريق إسحق بن عبدالله ابن أبي فروة، عن يوسف بن سليمان، عن جدته ميمونة، عن عبدالرحمن بن سنة.

قال ابن عدي بعد سياقه لهذه الطريق:

«ولا أعرف لعبد الرحمن بن سنة غير هذا الحديث، ولا يعرف إلا من هذه الرواية التي ذكرتها».

وأعله الهيثمي بإسحق فقال: «وفيه إسحق بن عبدالله بن أبي فروة، وهو متروك».

ويوسف بن سليمان وجدّته ميمونة، لم أقف على من وثقهما، وانظر في ترجمة يوسف: التاريخ الكبير: (٨/٣٨١)، وفي ذكر جدته: تعجيل المنفعة ص (٥٦٠)، وفي ترجمة إسحق: تهذيب التهذيب: (١/٢٤٠).

فالحديث بهذا الإسناد ضعيف جدا، وإن كان المتن كله صحيحا باعتبار وروده من طرق أخرى.

الثانية: وهي عند أبي نعيم حيث رواه بإسناد آخر يبين ما في كلام ابن عدي =

* تصرف الطابعون فحرفوا (سنة) إلى (شيبة)، وكتبوا: (في الأصل: سنة)! وياليتهم ما خالفوا الأصل!.

١٥ ــ وعن سهل بن سعد الساعدي ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال: « **إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء، فقالوا: يا رسول الله من الغرباء؟ قال: الذين يصلحون عند فساد الناس** »[(١)].

= من النظر، قال أبو نعيم: حدثنا عبدالله بن محمد بن مندويه، حدثنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن إسحاق البزاز، حدثنا أبو سيار، حدثنا أحمد بن شبيب، حدثنا أبي عن يونس، عن ابن شهاب، حدثني ابن سنة.

وعبدالله بن محمد بن مندوية بن الحجاج الشروطي: كثير الحديث، ثقة، عارف بحديثه، أمين، أخبار أصبهان: (٩٥/٢).

وعبدالله بن محمد بن إسحق البزاز: شيخ ثقة كتب الكثير، أيضا: (٨٢/٢).

وأبو سيار، لا أدري من هو؟ إلا أن يكون عبيد الله بن سهل بن بشر أبو سيار المدائني ذكره الخطيب في تاريخه (٣٤٨/١٠).

وهذه الكنية قليلة عند المحدثين وحملة الآثار ــ حتى إني لم أجد من يكنى بها غير هذا ممن هو في طبقة من يروي عن البزاز، على رغم مراجعة كتب الرجال المطبوعة، وكتب الكنى، وتورايخ المدن، وما شاكلها.

وأحمد بن شبيب، وهو ابن سعيد الجحدري الحبطي المصري، وثقه أبو حاتم الرازي، وعده ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي: صدوق، انظر: الجرح والتعديل: (٥٤/٢-٥٥)، التاريخ الكبير: (٤/٢)، الثقات: لابن حبان (١١/٨)، والميزان: (١٠٣/١).

أما والده، فصدوق يغرب، وثقه ابن المديني، وذكر ابن عدي أن روايته عن يونس عن الزهري أحاديث مستقيمة، وأن كتابه كتاب صحيح، وقد كتبها عنه ابنه أحمد، انظر: الكامل: (١٣٤٨/٤)، والميزان: (٢٦٢/٢).

وهذا الحديث منها حيث رواه عنه ابنه أحمد، ورواه هو عن يونس عن ابن شهاب الزهري.

أما يونس فهو ابن يزيد، كان ابن المبارك يقول: كتاب صحيح، وكذا ابن مهدي ونحوه عن أحمد، وهو ثقة، انظر: تهذيب التهذيب: (٤٥٠/١١).

أما ابن شهاب الزهري فمعروف.

فهذا الإسناد أمثل بكثير من الذي قبله.

ويشهد لصحة المتن ما سبق وما سيأتي من الروايات.

(١) رواه الدولابي في الكنى والأسماء، من كنيته أبو سالم، وأبو سليم، وأبو سلامة =

١٦ ـــ وعن سلمان ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا»**[(١)].

١٧ ـــ وعن ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ قال: قال رسول الله ﷺ:

= (١٩٣/١).

والطبراني في الكبير، في ترجمة سهل بن سعد الساعدي، رواية بكر بن سليم الصواف المدني عن أبي حازم عنه: (٢٠٢/٦).

وفي الصغير، في باب من اسمه أسامة (١٠٤/١).

وفي الأوسط، كما ذكره في المجمع، في كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا.. (٢٧٨/٧).

وابن عدي في الكامل، في ترجمة بكر بن سليم الصواف: (٤٦٢/٢).

وفي أسانيدهم: بكر بن سليم الصواف .

قال الطبراني: «لم يروه عن أبي حازم، عن سهل بن سعد إلا بكر بن سلم الصواف».

وقال ابن عدي: «يحدث عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، وغيره، ما لا يوافقه أحد عليه» ـــ يعني بكراً هذا ـــ.

وقال فيه أبو حاتم الرازي: شيخ يكتب حديثه، وذكره ابن حبان، في الثقات، وقال ابن عدي: «وعامة ما يرويه غير محفوظ، ولا يتابع عليه، وهو من جملة الضعفاء الذين يكتب حديثهم».

انظر: الجرح والتعديل: (٣٨٦/٢)، والكامل: (٤٦٢/٢)، تهذيب التهذيب: (٤٨٣/١)، الميزان: (٣٤٥/١).

ولذلك ففي قول الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح، غير بكر بن سليم وهو ثقة»، نظر، ومثل هذا لا يحتمل تفرده، فالحديث بهذا الإسناد ضعيف، ولكنه يرتقي بما تقدم.

(١) رواه الطبراني في الكبير في ما أسند سلمان، ترجمة: عون بن أبي شداد عن أبي عثمان عن سلمان ـــ رضي الله عنه ـــ: (٣١٤/٦) رقم (٦١٤٧).

ورواه الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق، في ذكر إبراهيم بن فهد البصري: (٣٩٢/١)، وزاد: «فطوبى للغرباء».

وإسنادهما فيه عبيس بن ميمون وهو متروك، انظر: الميزان (٢٦/٣ – ٢٧) .

فالحديث ضعيف جدا .

«إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء»[1].

١٨ ــ وعن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: **«بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء»**[2].

١٩ ــ وعن أبي موسى الأشعري ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تروى الأرض دما، ويكون الإسلام غريبا»**[3].

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع وقال: «رواه الطبراني في الأوسط والكبير باختصار أوله، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس»، المجمع، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن: (٣٠٩/٧).

وليث سبق بيان حاله في حديث ابن عمر، وأن أكثرهم ضعفوه، ورمي بالاختلاط، والحديث بهذا الإسناد ضعيف، وينجبر ضعفه بالروايات السابقة واللاحقة.

(٢) ذكر الهيثمي في المجمع، في كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا.. (٢٧٨/٧).

وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عطية، وهو ضعيف».

ومع ضعفه ذكر ابن حبان أنه يدلّس تدليس الشيوخ، حيث روى عن ابي سعيد الخدري أحاديث، فلما مات ــ رضي الله عنه ــ جعل يجالس الكلبي ويحضر قصصه وكناه أبا سعيد، فيوهم أنه أبو سعيد الخدري، وإنما هو الكلبي.

قال ابن حبان: «فلا يحل الاحتجاج به، ولا كتابة حديثه إلا على جهة التعجب». وقال الذهبي: ضعفوه. المجروحين: (١٧٦/٢)، والكاشف: (٢٦٩/٢)، وانظر التهذيب (٢٢٤/٧-٢٢٥).

فالحديث بهذا الإسناد ضعيف، والمتن صحيح بما سبق وما سيأتي.

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع، كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا...، (٢٧٩/٧)، ولم يذكر من خرجه، بل قال: «فذكر الحديث، وفيه سليمان بن أحمد الواسطي وهو ضعيف» كذا في المطبوع.

وانظر ترجمته في الميزان: (١٩٤/٢)، وقال: كذبه يحيى، وقال ابن أبي حاتم كتب عنه أبي وأحمد ويحيى ثم تغير، وأخذ في الشرب والمعازف فترك. انظر: الجرح والتعديل: (١٠١/٤).

٢٠ ــ وعن بلال بن مرداس الفزاري عن النبي ﷺ: **« الإسلام بدأ غريبا »**[١].

٢١ ــ وعن بكر بن عمرو المعافري قال: قال رسول الله ﷺ: **« طوبى للغرباء، الذين يمسكون بكتاب الله حين يترك، ويعلمون**[٢] **بالسنة حين تطفأ »**[٣].

٢٢ ــ عن شريح بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: **« إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء، ألا إنه لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في أرض غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾**[٤]**، ثم قال: إنهما لا يبكيان على كافر »**[٥].

---

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير، في ترجمة بلال بن مرداس، رقم الترجمة: (١٨٦٤)، (٢/١٠٩-١١٠)، وقال: مرسل.
ورواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، في ترجمة بلال الفزاري، رقم الترجمة (١٥٦٣)، (٢/٣٩٨)، قال: سمعت أبي يقول ذلك، وسمعته يقول: هو مجهول.
فالحديث ضعيف.

(٢) كذا في المطبوع، وكأنها: ويعملون ــ بتقديم الميم على اللام.

(٣) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، باب في نقض عرى الإسلام..، ص (٦٥).
وبكر بن عمرو المعافري لم تذكر له رواية عن أحد من الصحابة، وقد مات بعد سنة أربعين ومائة، وقال الذهبي: مات شابا ما أحسبه تكهل وكان ذا فضل وتعبد، محله الصدق.
انظر: تهذيب الكمال: (١/١٥٨)، والميزان: (١/٣٤٧).
فالحديث على هذا مرسل .

(٤) جزء من الآية رقم/ ٢٩/ من سورة الدخان .

(٥) رواه الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره المسمى: جامع البيان، تفسير سورة الدخان: (٢٥/١٢٥). =

٢٣ ــ وعن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: **« إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء، قالوا: يا رسول الله كيف يكون غريبا؟ قال: كما يقال للرجل في حي كذا وكذا: إنه لغريب »**[1].

= ونسبه السيوطي في الدر المنثور له ولابن أبي الدنيا: (٤١٢/٧).
وعزاه في المقاصد الحسنة للبيهقي في الشعب: ص (٢٣٥).
والحديث مرسل، لأن شريحا تابعي .
انظر: المراسيل لأبي أبي حاتم: ص (٩٠)، وتهذيب التهذيب: (٣٢٨/٤)، وجامع التحصيل للعلائي: ص (٢٣٧)، وانظر ما سيأتي في التعليق على مرسل الحسن البصري.
وشريح بن عبيد هو الحضرمي الشامي أبو الصلت، تابعي ثقة، انظر: التهذيب، والجرح والتعديل: (٣٣٤/٤) وغيرهما.

(١) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، باب في نقض عرى الإسلام عروة عروة ص (٦٦).
وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن: (ل ٢٥ ب).
وهو من مراسيل الحسن، وقد قال الدارقطني في سننه: «وقد روى عاصم الأحول عن محمد بن سيرين ــ وكان عالما بأبي العالية، وبالحسن ــ فقال: لا تأخذوا بمراسيل الحسن ولا أبي العالية، فإنهما لا يباليان عمن أخذا».
سنن الدارقطني، كتاب الطهارة، باب أحاديث القهقهة في الصلاة وعللها، عقب حديث (٤٤)، (١٧١/١).
وجاء نحو هذا عن الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ .
وفي طبقات ابن سعد ما يشير إلى أنه المشهور عند العلماء .
وجاء عن يحيى القطان أنه وجد لمراسيل الحسن أصولا إلا حديثا أو حديثين، ونحو هذا قول أبي زرعة الرازي، وقال علي بن المديني مرسلات الحسن البصري التي رواها عنه الثقات صحاح، ما أقل ما يسقط منها، وقد جاء عن الحسن من طرق أن الحديث إذا كان عنده عن أكثر من صحابي، فإنه يقول: قال رسول الله ﷺ.
وانظر: طبقات ابن سعد: (١٥٧/٧)، وسير أعلام النبلاء: (٥٦٣/٤)، وتهذيب التهذيب: (٢٦٣/٢)، وشرح علل الترمذي لابن رجب: (٢٧٥/١،٢٨٥-٢٩١).
فلو سلمنا بأن مراسيل الحسن من صحاح المراسيل، فإن من المعلوم أن جمهور المحدثين =

فالحديث ورد من طرق كثيرة ـــ موصولاً ومرسلاً ـــ تجعله عند عدد من العلماء في عداد المشهور أو المتواتر، وإن كان ثمت ألفاظ في بعض رواياته لم تثبت[1].

معنى الحديث :

إن الغربة الواردة في هذا الحديث هي جزء من الغربة التي أشرت إليها في المعنى الثاني من كون المرء على حال من الاستقامة العلمية والعملية، يقل موافقوه فيها، ويكثر مخالفوه وشانئوه، وإذا دعا الناس إلى ماهو عليه قل متبعوه، وهذا ما يؤكده قوله ﷺ حين سئل عن الغرباء: « **أناس صالحون، في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم** »[2].

وهذا وجه من وجوه الغربة، يتمثل في قلة المعين على الخير، وقلة المستجيب لدعوة الله .

وثمت وجه آخر، وهو المشقة التي يجدها السالك في التزام السمت وفي تجنب

= لا يرون صحة الحديث المرسل لانقطاع إسناده. انظر: مقدمة صحيح مسلم: (١٣٢/١)، المراسيل لابن أبي حاتم ص (٧)، جامع التحصيل في أحكام المراسيل للعلائي: ص (٣٠-٣١).

والحسن هو ابن أبي الحسن بن يسار البصري أبو سعيد، من زهّاد التابعين وثقاتهم وحكمائهم، انظر: التهذيب، والسير، وطبقات ابن سعد وغيرها، وسبق.

(١) انظر في موضوع تواتر الحديث أو شهرته :

الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة: للسيوطي ص (٨٤) رقم (١٤٨).

نظم المتناثر من الحديث المتواتر للشيخ جعفر الحسني الإدريسي الشهير بالكتاني ص (٣٤-٣٥)، رقم الحديث (٢٠) قال: «... وفي شرح التقريب للسيوطي.. عده من الأحاديث المتواترة..».

المقاصد الحسنة للسخاوي: ص (٢٣٥) رقم (٢٨٧).

كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني: (٢٨٢/١-٢٨٣) .

(٢) سبق تخريجه .

العثرة، فإنه كلما بعد عهد الناس بالنبوة، زاد الشر وقل الخير، وكثرت المفاسد وقلت المصالح، وأصبح من العسير تحصيل المصلحة إلا ومعها قدر من المفسدة، ومن العسير ــ أيضا ــ فعل المصلحة الراجحة لكثرة المعوقات والمثبطات التي تقعد بالإنسان عن ذلك.

وإذا كانت هذه الغربة جزءا من معنى الغربة العام، فإنه يمكن تقسيم المعنى العام للغربة إلى صورتين:

الأولى: غربة أهل الإسلام في أهل الأديان، في كل زمان ومكان فالمسلمون في الكفار هم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض، أو كالشامة في جنب البعير، أو كالرقمة في ذراع الدابة[1].

إنهم قليل .

﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾[2].

« عن عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: كنا مع النبي ﷺ في قبة، فقال أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟، قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا شطر[3] أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر »[4].

---

(١) الشامة: الخال المعروف في الإنسان وغيره، المتميز لونه عن لون باقي الجسد. انظر: النهاية (٢/٤٣٦).
والرقمة: هي الشيء الناتيء في ذراع الدابة من داخل. النهاية: (٢/٢٥٤).

(٢) سورة سبأ ــ جزء من الآية /١٣/ .

(٣) الشطر: النصف، النهاية: (٢/٤٧٣) .

(٤) الحديث رواه البخاري في: ٨١ ــ كتاب الرقاق، ٤٥ ــ باب كيف الحشر؟ =

= (١٩٥/٧)، وفي: ٨٣ ــ كتاب الأيمان والنذور ٣ ــ باب كيف كانت يمين النبي ﷺ: (٢٢٠/٧).

ومسلم في: ١ ــ كتاب الإيمان، ٩٥ ــ باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة. رقم (٣٧٦-٣٧٨): (٢٠٠/١) .

والترمذي في : ٣٩ ــ كتاب صفة الجنة. ١٣ ــ باب ما جاء في وصف أهل الجنة، رقم (٢٥٤٧)، (٦٨٤/٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وابن ماجة في: ٣٧ ــ كتاب الزهد، ٣٤ ــ باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٣) (١٤٣٢/٢).

وأحمد في مسنده: (٤٣٧،٣٨٦/١).

والطبري في التفسير، تفسير سورة الحج، (١١٢/١٧).

وابن منده في كتاب الإيمان، ذكر وجوب الإيمان برؤية الله ــ عز وجل ــ رقم (١٩٦،١٩٥)، (٩٠١/٢-٩٠٢).

وأبو نعيم في الحلية، في ترجمة عمرو بن ميمون الأودي، رقم الترجمة (٢٥٨): (١٥٢/٤-١٥٣).

وهناد بن السري في الزهد، باب عدة المسلمين في الكفار: (١٤٦/١)، رقم (١٩٥).

وقد ورد الحديث عن عدة من الصحابة منهم :

١ ــ أبو سعيد الخدري، أخرجه البخاري في: (١٠٩/٤-١١٠)، وفي (١٩٦/٧)، وفي (٢٤١/٥)، وفي: (١٩٥/٨) مختصرا.

ومسلم في: (٢٠١/١-٢٠٢) .

وأبو عوانة: (٨٩/١) .

٢ ــ أبو هريرة، أخرجه البخاري في: (١٩٦/٧) .

وأحمد في المسند : (٣٧٨/٢) وغيرهما .

٣ ــ عمران بن حصين، أخرجه الترمذي في: (٣٢٢/٥-٣٢٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

٤ــ٦ أنس بن مالك، وابن عباس، وأبو الدرداء، انظر: الإيمان لابن منده: (٩٠٥/٢)، المسند (٤٤١/٦)، (٤٣٥/٤)، والزهد لهناد: (١٤٨،١٤٦/٢) وغيرها.

وهذه الحقيقة الثابتة — شرعا وقدرا — وهي قلة المؤمنين في جنب الكفار توجب للمسلم نظرة متوازنة معتدلة:

أ — فالذين يطمعون في تطهير الدنيا من الكفر والشرك مثاليون، ومغرقون في التفاؤل، بل لايزال الصراع بين التوحيد والشرك قائما حتى يأتي أمر الله.

ب— والذين يتخذون من هذه الحقيقة تكأة للقعود عن دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وبذل الجهد في هذا السبيل مخطئون أيضا، ومتجاهلون للحقائق الواقعية، وهذه الحقيقة التي أخبر بها الرسول ﷺ لم تمنعه ولا أصحابه من الجهر بالدعوة، والتضحية في سبيلها، والصبر عليها حتى هدى الله على أيديهم من شاء هدايته.

الثانية: هي غربة أهل السنة الصابرين عليها، المنتسبين إليها، البرآء مما عداها، في أهل الإسلام.

وغربة هؤلاء في المسلمين قد تكون في كثير من الأحيان أشد من غربة المسلمين في سائر الأديان، وكلما ازداد تمسك هذا الغريب بالسنة — علما وعملا — ازدادت غربته وقل مشاكلوه وكثر مخالفوه، فهو مسافر في طريق طويل، ذي مراحل، ومعه أصحاب، كلما قطع مرحلة انقطع بعضهم، حتى لايكاد يواصل السير معه إلا القليل.

وقد كانوا إذا عدّو قليلا
فقد صاروا أقل من القليل !

ويجد هذا الغريب كرب الغربة ولأواءها وشدتها على النفس حين يكون المنابذون له، المسفهون لرأيه، هم من إخوته في الدين!

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

فالمسلم لا يعجب أن يحاربه الكفار، ويضعوا العقبات والأشواك في سبيله،

بل العجب لو لم يفعلوا ذلك.

لكن أن يكون إخوانه في الدين هم القائمين بهذا الإيذاء.. فذلك الجرح الذي لا يندمل.

ولذلك قال سفيان الثوري ـــ رحمه الله ـــ:

«استوصوا بأهل السنة خيرا، فإنهم غرباء»[1].

وقال:

«إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة، وآخر بالمغرب، فابعث إليهما السلام، وادع لهما، ما أقل أهل السنة والجماعة»[2].

وقال أبو بكر بن عياش :

«السنة في الإسلام أعز من الإسلام في سائر الأديان»[3]!.

والأمر الذي يقال في موضوع غربة الإسلام في الأديان يقال هنا، فثبوت غربة أهل السنة بين طوائف أهل القبلة لا يسوغ القعود والاستيئاس، بل يجب على أهل السنة أن يعملوا على نشر العقيدة الصحيحة، والمنهج الصحيح في الاستدلال، والصورة الصحيحة للسلوك بين سائر المسلمين، وأن يكون لهم كيان يرفع رايتهم في كل أرض، وأن يعلنوا مسلكهم بكل وسيلة: بالكتاب والمجلة والمحاضرة والمناظرة وغير ذلك.

ويجب عليهم ـــ مع ذلك ـــ أخذ زمام المبادرة في دعوة غير المسلمين إلى

---

(١) اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: (٦٤/١)، وسير أعلام النبلاء: (٢٧٣/٧).

(٢) اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: (٦٤/١) .

(٣) اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: (٦٦/١) .

وسيأتي مزيد بسط لموضوع غربة أهل السنة عند الحديث عن الفرقة الناجية ثم عن الطائفة المنصورة إن شاء الله ـــ وذلك في الرسالة الثانية من هذه السلسلة.

الإسلام حتى ترتسم في عقولهم الصورة الحقيقية عن الإسلام، ولئلا يجتالهم أهل البدع والأهواء.

إن هذه الغربة التي ستوجد ــ لا محالة ــ هي غربة مقيدة، تتفاوت بين زمان وزمان، ومكان ومكان، وقد تشتد حتى تضيق على الغرباء الأرض بما رحبت، وتضيق عليهم أنفسهم وقد تنفرج حتى يتنفس المؤمنون الصعداء وتقر أعينهم بانتصارٍ للدين والسنة.

وهذا الفهم يجعل الغريب مجاهدا في غربته حريصا على دفع الغربة عن الإسلام وأهله، والسنة وأهلها ما استطاع.

ولذلك يجب أن نفرق بين هذه الغربة، وبين الغربة الأخيرة المستحكمة التي تكون قبيل قيام الساعة، والتي يَدْرُس فيها الإسلام كما يَدْرُسُ وَشْي الثوب، وتضيع معالم الدين ــ جملة .

إذ إن الغربة الأخيرة هذه لايكاد يوجد فيها مصلحون ولا دعاة يعصيهم من الناس أكثر ممن يطيعهم، وتعم الغربة فيها أنحاء الأرض، حتى تترك المدينة لا يغشاها إلا الهوامّ، وهي ــ من قبل ــ عقر دار المسلمين والإسلام.

والغربة المذكورة على ثلاثة أنواع :

(الأول) غربة شرائع، بحيث تصبح بعض شرائع الإسلام غريبة، كالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولذلك وصف الرسول ﷺ الإسلام في بدايته، وفي نهايته بأنه غريب.

(الثاني) غربة مكان، وهي أن يكون الدين غريبا في بلد من البلدان، ويكون أهله غرباء في ذلك البلد، بينما هم في بلد آخر أعزة ظاهرون، فالغربة تكون في مكان دون مكان.

(الثالث) غربة زمان، وهي الغربة المستحكمة المطبقة على الأرض كلها،

بحيث يغدو الدين غريبا في زمن من الأزمنة، في بقاع الأرض كلها، كما حدث قبل بعثة النبي ﷺ.

وهذا يكون في أمته ﷺ بعد عهود عيسى ــ عليه السلام ــ، وقبل الساعة.

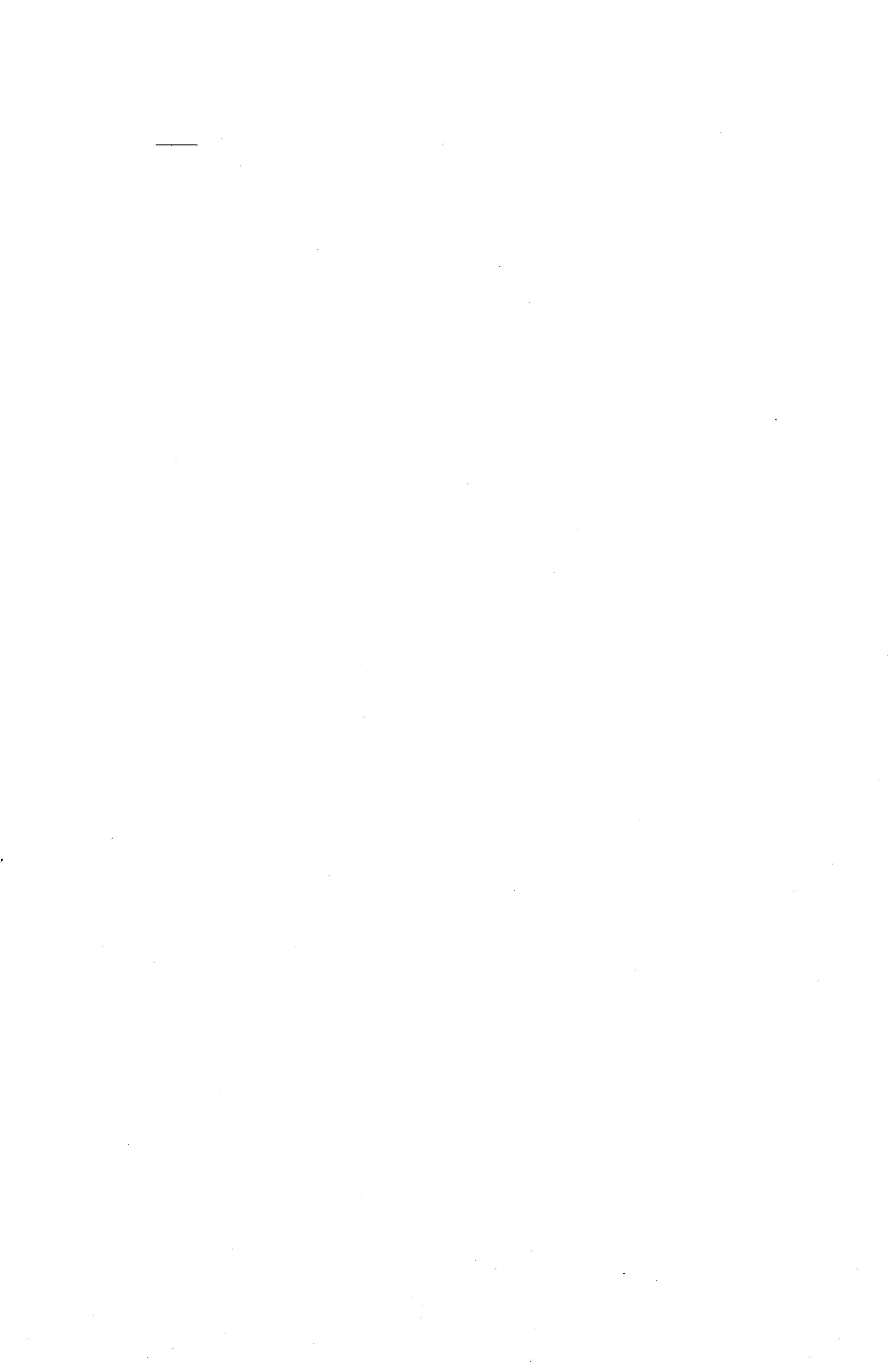
وقد توجد غربة بعض الشرائع دون بعض، في بعض البلدان، ويكون بعضها الآخر ظاهرا معروفا.

وقد يحد ث لبعض الشرائع غربة زمان، بحيث تكاد أن تندرس ثم يحييها الله بالمجددين، بعدما تغربت في الأرض كلها.

أما أن تستحكم الغربة؛ وتعم الجاهلية الأرض كلها قبل قبض أرواح المؤمنين فهذا لا يكون، لذا وعد الله تعالى على لسان رسوله ﷺ، بأنه لاتزال في هذه الأمة طائفة ظاهرة منصورة، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس(١).

---

(١) وسيأتي بسط ذلك في رسالة مستقلة ــ بحوله تعالى وقوته ــ .



ثالثا : الغرباء الأولون

وهي ثلاثة فصول :

الفصل الأول : أسباب الغربة الأولى .

الفصل الثاني : مظاهرها .

الفصل الثالث : كيفية مواجهتها .



توطئــة :

(أ) كانت البشرية قبل مبعث النبي ﷺ تعيش مرحلة من أحط مراحل التاريخ البشري في شؤونها الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتعاني من فوضى ضاربة ــ في كل هذه الجوانب ــ لا حدّ لها.

وقد سيطر عليها في جميع شؤون حياتها الروح الجاهلي المتسم بالهوى، والجهل، والنقص، والتحيز، والتعسف.

وغاب تأثير الديانات السماوية عن الوجود ــ أو كاد ــ، حيث دخل هذه الديانات من التبديل، والتغيير ما جعلها تفقد أهميتها ــ باعتبارها رسالة الله إلى خلقه ــ، وانشغل أهلها بالصراعات العَقَدية النظرية التي كان سببها دخول التأثيرات البشرية على هذه الأديان، حتى أدى ذلك إلى الحروب الطاحنة بينهم، ومن بقي منهم ــ لم يحرف ولم يبدل ــ قليل نادر، أدرك أن لا مكان له في تيار الحياة المضطرب، فآثر العزلة والخلوة، يأسا من الإصلاح، وطمعا في السلامة والنجاة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى عموم هذا الفساد لجميع الأجناس، وجميع المجالات، بلا استثناء.

فعن عياض بن حمارٍ المجاشعي ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته:

« ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلته[1] عبدا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء[2] كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين

---

(١) نحلته: أعطيته. النهاية: (٥/٢٩) .

(٢) حنفاء: مائلين عن الشرك إلى التوحيد، مستقيمين على الفطرة السليمة. النهاية: (١/٤٥١).

فاجتالتهم عن دينهم[1]، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم[2]: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب...»[3].

والحديث يشير إلى انحراف الحياة البشرية عموما، وبالذات في الجوانب التالية:

١ ــ انحراف الأوضاع الدينية، سواء بردة الناس عن الدين، وخروجهم منه، أو عدم دخولهم فيه أصلا، أو بتحريف الديانات السماوية وتبديلها، وذلك في قوله « وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم.. ».

---

(١) اجتالتهم: ذهبت بهم. النهاية: (٣١٦/١) .

(٢) المقت: أشد البغض. النهاية: (٣٤٦/٤) .

(٣) رواه مسلم في: ٥١ ــ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ١٦ ــ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم (٦٣)، (٢١٩٧/٤) .
والإمام أحمد في مسنده في مواضع: (١٦٢/٤،١٦٢-١٦٣، ٢٦٦)... (مختصرا).
ورواه البيهقي في سننه ــ كتاب السير ــ باب أصل فرض الجهاد واختصر أوله وآخره: (٢٠/٩) .
ورواه ابن منده في كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله وصفاته على الاتفاق والتفرد (رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة، بتحقيق الأخ محمد الوهيبي) رقم (٦٥)، (١٦٤/٢). وزاد: نظر إلى أهل الأرض قبل أن يبعثني.
ورواه ابن حبان في صحيحه: باب الإخبار عن الخصال التي يجب على المرء تفقدها من نفسه حذر إيجاب النار له بارتكاب بعضها برقم: (٦٤١-٦٤٢)، الإحسان: (٢٩/٢-٣٠)، وفي الرواية الثانية عنده نحو زيادة ابن منده. وقد جاء اسم الصحابي في الموضعين ــ عياض بن حماد ، آخره دال مهملة ــ كذا في المطبوع ــ.
وقال الحافظ ابن حجر: «.. وأبوه باسم الحيوان المشهور، وقد صحفه بعض المتنطعين من الفقهاء لظنه أن أحدا لا يسمى بذلك».
الإصابة: (١٨٥/٧)، ترجمة (٦١٢٣).

ويصرح بجانب مهم من جوانب هذا الانحراف، وهو الشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا، وقد كانت البشرية تعبد آلهة شتى مع الله أو من دون الله: الطوطم[1]، والشمس، والقمر، والملائكة، والجن، والنار، والكواكب، والأشجار، والأحجار، والأنبياء، والصالحين.. الخ.

٢ـ انحراف الأوضاع التشريعية؛ حيث نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريا، واخترعوا من عند أنفسهم أديانا، وشرائع لم يأذن بها الله، فكانوا يحرمون على أنفسهم أنواعا من الأموال، والأنعام، كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وينذرونها لآلهتهم المدعاة، ولهذا قال هنا: «كل مال نحلته عبداً حلال..»، وقال: «وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

٣ـ والانحراف الذي هو قاصمة الظهر هو فساد المصلحين من حملة الأديان السماوية، وممالأتهم للقوم على ضلالهم، وهذا يقطع دابر كل أمل في الإصلاح، ويدفع كل احتمال لتعديل أحوال الحياة الإنسانية، أو تحسينها.

ومهما يكن من انحراف الناس، وإيغالهم في الفساد، ومجانبتهم سبل الهداية، فإن وجود أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض، ويعلنون دعوة الحق صريحة في وضح النهار، دون تردد، ولا تلجلج، ولا هيبة من أحد، يعني تحقيق انتصار لهم في صورة من الصور، فهي مداولة بين الحق والباطل، وصراع بين الإسلام والكفر ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾[2].

لكن حين تخلو الحياة من هؤلاء، أو تكاد، فلا تجد إلا أفرادا منعزلين عن الحياة، والتأثير فيها، ومدافعة انحرافاتها، ومنازلة أرباب الباطل وسدنته...، حين يقع هذا تحتاج البشرية إلى رسالة جديدة تحمل دين الله بقوة، وتقاتل في سبيله..

---

(١) معبود من الحيوانات أو النباتات أو الأشياء المادية أو الظاهرات الطبيعية.
انظر: الموسوعة العربية الميسرة ص (١١٦٦).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٤٠.

وهكذا كان. وإلى هذا المعنى يشير قوله ﷺ « وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك... وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء... وإن الله أمرني أن أحرق قريشا... »[1].

(ب) وإذا كانت الأمم الموجودة على ظهر الأرض كلها بهذه الصورة، فإن الأمة العربية كان لها نصيب الأسد من ذلك كله.

فقد ابتليت بانحطاط ديني شديد، ووثنية سخيفة لا نظير لها، وأمراض خلقية، واجتماعية، متمكنة، وفوضى سياسية، وتشريعية، ومن ثم قلّ شأنهم، وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين أذلة للدولة الفارسية، أو الرومانية.

وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد، واتباع ما كانوا عليه مهما يكن فيه من الزيغ، والانحراف، والضلال، ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمَذْحِج: يغوث، ولخيوان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد أساف ونائلة، وهما رجل وامرأة من جرهم فَجَرَا في الكعبة فمسخا فعبدوهما!!، وكانت مناة على ساحل البحر. تعظمها العرب كافة، والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[2].
وإلى جنب هذه الأصنام الرئيسة يوجد عدد لا يحصى كثرة من الأصنام

---

(١) جزء من حديث عياض بن حمار السابق .

(٢) انظر: أثر ابن عباس في ذلك في: صحيح البخاري: ٦٥ ــ كتاب التفسير سورة إنا أرسلنا، باب: وداً ، ولا سواعاً ولا يغوث، ويعوق: (٧٣/٦) .
وانظر: كتاب الأصنام لهشام بن محمد بن السائب الكلبي (ص ٩-١٩).
وإغاثة اللهفان لابن القيم: (٢٠٦/٢-٢٢٠)، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي: (١٩٤/٢-٢٤٤).

الصغيرة والمؤقتة.

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي قال:

« كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو أخير ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جَثوةً من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناهُ عليه ثم طفنا به !!.»[1]!!.

وقد حالت هذه الوثنية الممقوتة بين العرب وبين معرفة الله، وتعظيمه، وتوقيره، والإيمان به، وباليوم الآخر، وأشربت قلوبهم تعظيم هذه الموروثات السخيفة، وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله، وقد استأثرت هذه الآلة المزعومة بقلوبهم، وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم، وضعف شأن الله في نفوسهم. ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فقالوا: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم، ساء ما يحكمون** ﴾[2].

وحتى البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام أصابها التحريف، والتغيير، والتبديل، فصار الحج موسما للمفاخرة، والمنافرة، والمباهاة، وتحولت بقايا المعتقدات الحنيفية إلى صورة باهتة واهنة ضعيفة... وألصق بها من الخرافات والأساطير ما مسخها مسخا، وقطعها عن أصلها الذي تنتسب إليه قطعا.

وفي هذه البيئة الفاسدة المغرقة في الوثنية، المتشددة فيها، كان يوجد الفرد بعد الفرد من الحنفاء الذي يرفضون عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من الأحكام، والنحائر، وغيرها.

ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل

---

(١) رواه البخاري في: ٦٤ ــ كتاب المغازي، ٧٠ ــ وفد بني حنيفة (١١٩/٥).

(٢) سورة الأنعام: آية رقم ١٣٦ .

الميتة والدم، وكان يقول :

أرباً واحداً أم ألف ربٍ؟؟
أدِينُ إذا تقسمت الأمورُ؟
عزلت اللات والعزى جميعا
كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدِينُ، ولا ابنتيها
ولا صنَمي بني عمروٍ أزور
ولا غنما أدِينُ، وكان ربا
لنا في الدهر، إذا حلمي يسيرُ
ولكن أعبد الرحمن ربي
ليغفر ذنبي الرب الغفور[1]..

وكان يقول :

عذت بما عاذ به إبراهم
مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول: أنفي لك عانٍ راغمُ
مهما تجشمني فإني جاشم[2]

إنها صورة المسلم الحق المرغمِ أنفه لله، الراضي قضاءَ الله فيه، الراجي ربّه ما يحب، الحذرِ منه ما يخاف.

---

(١) الأبيات بزيادة ونقص وتقديم وتأخير في: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (١٢٥/٣)، الأصنام لابن الكلبي: ص (٢٢)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لابن سعيد الأندلسي: (٣٦٤/١)، بلوغ الأرب: (٢٤٩/٢)، والسيرة النبوية لابن كثير: (١٦٣/١).

(٢) الأغاني : (١٢٤/٣) .

ولكن مثل هذا الرجل كان غريبا في الجاهلية أشد الغربة، وأمثاله في الجاهلية قليل.

عن عبدالله بن عمر — رضي الله عنهما — أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدَح[1] — قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرةٌ، فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه.

وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله، إنكارا لذلك وإعظاما له.

قال موسى[2]: حدثني سالم بن عبدالله[3]، ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالما من اليهود، فسأله عن دينهم، إني لَعَلّي أن أدين دينكم، فأخبِرْني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله! قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا وأنا أستطيعه، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديا، ولانصرانيا، ولا يعبد إلا الله .

فخرج زيد، فلقي عالما من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا

---

(١) بلدح: بفتح الباء، وسكون اللام، وفتح الدال، واد في طريق التنعيم. انظر: الفتح: (١٤٣/٧).

(٢) هو ابن عقبة صاحب المغازي، الإمام الفقيه، مات سنة (١٤١).
انظر: التهذيب (٣٦٠/١٠)، والتقريب: (٢٨٦/٢).

(٣) هو سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أبو عمرو، أو أبو عبدالله المدني، أحد الفقهاء السبعة، يشبه بأبيه في الهَدْى والسمت، مات في سنة (١٠٦).
انظر: التهذيب (٤٣٦/٣)، التقريب (٢٨٠/١).

حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله! قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئا أبدا وأنا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديا، ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم ــ عليه السلام ــ خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم.

وقال الليث[1]: كتب إليَّ هشام[2] عن أبيه[3] عن أسماء بنت أبي بكر ــ رضي الله عنها ــ قالت:

«رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش! والله ما منكم على دين إبراهيم غيري!، وكان يحيى الموؤدة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها»[4].

---

(١) هو: الليث بن سعد، الإمام الثقة الفقيه المشهور، المتوفى سنة (١٧٥هـ)، انظر: التهذيب (٤٥٩/٨)، التقريب (١٣٨/٢).

(٢) هشام هو: ابن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، ثقة ثبت فقيه، ربما دلس، مات سنة (١٤٦). انظر: التهذيب (٤٨/١١)، التقريب (٣١٩/٢).

(٣) أبوه هو: عروة بن الزبير المدني: أبو عبدالله، ولد في أواخر خلافة الفاروق ــ رضي الله عنه ــ ومات في سنة (٩٤)، وهو ثقة ثبت فقيه مشهور. انظر: التهذيب (١٨٠/٧)، والتقريب (١٩/٢).

(٤) رواه البخاري في: ٦٣ ــ كتاب فضائل الأنصار، ٢٤ ــ حديث زيد بن عمرو ابن نفيل: (٢٣٢/٤-٢٣٣). وفي: ٧٢ ــ كتاب الذبائح والصيد، ١٦ ــ باب ما ذبح على النصب والأصنام: (٢٢٥/٦) .
والإمام أحمد في مسنده: (٦٩/٢) .
والنسائي في الكبرى، كتاب المناقب ــ زيد بن عمرو بن نفيل (ل: ١٠٧ ب).
وابن سعد في الطبقات الكبرى، في ترجمة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل:(٣٨٠/٣). =

ولم يكن زيد بن عمرو بن نفيل وحيدا في العرب، بل كان له نظراء قلائل من المؤمنين الموحدين السالكين منهج الرسل، المجانبين طرائق أهل الشرك[1]، كما

= والبيهقي في دلائل النبوة ــ ذكر حديث زيد بن عمرو بن نفيل (٢/١٢٠-١٢٣).
وله شواهد :
١ــ منها عن زيد بن حارثة :
عند النسائي في الكبرى الموضع السابق (ل: ١٠٧ ب) .
وعند البزار، كما في كشف الأستار: (٣/٢٨٣) .
ورواه ابن منده في التوحيد، ذكر استدلال من لم تبلغه الدعوة.. (١/٣٢٣).
ورواه الحاكم: (٣/٢١٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٢/١٢٤) .
٢ــ ومنها عن ابنه سعيد بن زيد عند البزار في الموضع السابق، وهو برقم (٢٧٥٤)، (٣/٢٨٣).
وعند الإمام أحمد في المسند: (١/١٨٩) .
ونسبه الهيثمي في المجمع (٩/٤١٧)، كتاب المناقب ــ ما جاء في زيد بن عمرو، وابن حجر في الفتح (٧/١٤٣)، مناقب الأنصار، حديث زيد بن عمرو..، للطبراني وغيره، وقال الهيثمي: وفيه المسعودي وقد اختلط، وبقية رجاله ثقات.
ورواه البيهقي في الدلائل في الموضع المشار إليه آنفا (٢/١٢٤).
وانظر: هدي الساري: ص (٥١)، والطبقات: (٣/٣٧٩)، وتهذيب التهذيب: (٣/٤٢١)، والسيرة النبوية لابن كثير: (١/١٦٠-١٦٢)، وفي هذه الشواهد فوائد عديدة منها ثبوت إيمانه والشهادة له بالخير.
وقول البخاري: قال موسى، الخبر موصول بالإسناد المذكور كما في الفتح (٧/١٤٤)، وتغليق التعليق: (٤/٨٢).
أما قوله: وقال الليث..، فهو معلق، رواه ابن سعد موصولا في الموضع السابق المشار إليه (٣/٣٨٠)، والنسائي في الكبرى في الوضع السابق المشار إليه (ل: ١٠٧ ب).
ونسبه ابن حجر في الفتح للفاكهي... وأبي نعيم في المستخرج (٧/١٤٥).
ونسبه في تهذيب التهذيب للبغوي أيضا وابن إسحق في السيرة: (٣/٤٢٢).

(١) انظر: اسماءهم وأخبارهم في: المنمق لابن حبيب: ص (١٧٥)، المعارف لابن قتيبة: =

كان يوجد من اليهود والنصارى بقايا متمسكون بدينهم، كما أشار إليه حديث عياض.

ولكن هؤلاء وأولئك كانوا غرباء ــ بمعنى الغربة ــ في عالم مريج مضطرب منحل.

فكانت بعثة محمد ﷺ انتصارا للحق الذي يحملون وانتصارا للمؤمنين المضطهدين من أصحاب الكتابين وغيرهم، وانتصارا للرسل جميعا ــ عليهم الصلاة والسلام ــ، وهذا جزء من معنى قوله تعالى: ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾(١).

ولما بعث ﷺ، في قلب جزيرة العرب ــ معقل الشرك والوثنية ــ كان فردا وحيدا، يقف هو في صف، وتقف البشرية كلها في الصف الآخر، فكان غريبا فردا غرابة مطلقة، ولكن الفرق الهائل بين غربته ﷺ، وبين غربة الحنفاء، وبقايا أهل الكتاب، أن هؤلاء كما سماهم في الحديث «بقايا»، فهم كأشعة الشمس الصفراء الباهتة قبيل غروبها، تكون في أعالي النخيل، والأبنية، لحظات يسيرة ثم تزول!

أما محمد ﷺ فهو وإن كان أول أمره غريبا، إلا أنه طليعة ميمونة للخير الكثير، والنصر المؤزر للحق، والإسلام، فهو كأشعة الشمس المشرقة حين طلوعها، تحمل معنى النماء،والحياة، والتجدد، والبشرى، وما هي إلا لحظات حتى يملأ الخوافق ضوؤها، وذكاؤها.

ولهذا كان أولئك الموحدون في الجاهلية مستسلمين للأمر الواقع، مستيئسين من الإصلاح، غاية ما يفعل أحدهم أن يحفظ نفسه من عوائد الجاهلية، وشرائعها،

= ص (٥٨-٦٣)، بلوغ الأرب: (٢/٢٤-٢٨٦) (وهو أوفاها)، وانظر: كتاب الشعراء الحنفاء للدكتور أحمد جمال العمري ص (٨٥-١١٠)، وغيرها كثير.

(١) سورة غافر: آية ٥١ .

وعقائدها، أو أن يلقي بكلمة عابرة في مجتمع، أو ناد، أو أن يدفع غائلة يستطيع دفعها عن مظلوم، ولم يكن هذا منهجا لهم ولم يدُر في أخلادهم أن يعلنوا دعوة توحيدية يصدعون بها بين ظهراني قومهم.

وليس يعيبهم هذا، بل إن كل قارىء لأخبارهم، وسيرهم، وأشعارهم، يحس بالإكبار والتقدير العظيم لهذا الروح المتطلع الباحث عن الحق من وراء حجب الزمان والمكان، المتمرد على قيود البيئة الجاهلية ومألوفاتها، وكفاهم ذلك فخرا.

أما مهمة الإصلاح الجذري للحياة البشرية فكانت تحتاج إلى رسالة جديدة، ودعوة جديدة، وهمم جديدة، وتحتاج إلى شباب مضحّ يحمل همّ الدعوة بين جنبيه، ويتفانى في سبيل ما يعتقد، وتحتاج إلى قيادة خاصة فذة مستجمعة لكافة الصفات المطلوبة.

وكانت هذه القيادة هي شخص محمد عليه أفضل صلاة الله وسلامه، ثم أكابر صحابته رضي الله عنهم، وكان هذا الشباب هم الجيل الفريد من الصحابة الذين تربوا على يدي رسول الله ﷺ.

وسأعرض في هذه الفصول جوانب عديدة من الغربة الأولى التي عاناها هؤلاء الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ مع بيان أهم أسبابها، وأبيّن كيف واجهوها؟، وكيف انتصروا عليها؟.



الفصل الأول
أسباب الغربة الأولى



أسباب الغربة الأولى

إن أي دعوة جادة تنشأ لأول مرة في مجتمع من المجتمعات تكون غريبة عليه، وغير مألوفة لديه، ولذلك تواجه في أول أمرها الاستغراب، والتوجس، والشك، بل وتواجه في معظم الأحيان: الرد، والرفض، والاستنكار.

وكلما بعدت الشقة وعظم الفرق بين الحال التي يعيشها هذا المجتمع ـ عقيدة وسلوكا وتشريعاً ـ، وبين الصورة التي جاءت بها هذه الدعوة الجديدة، كان ذلك أدعى إلى عظم المواجهة، وضراوة الحرب، وشدة النفور.

ولو تصورنا الحال التي كانت تعيشها الجاهلية العربية الأولى التي بعث فيها النبي ﷺ، ومدى تغلغل الفساد، والهوى، والانحراف العقدي، والتشريعي، والسلوكي فيها...، وتعارُفَ الناسِ على الأوضاع، والمعتقدات الوثنية، وبناء حياتهم وتصرفاتهم كافة ـ حضرا وسفرا، فعلا وتركا، على هذه المعتقدات والتصورات..

ثم تصورنا الدعوة التي يحملها المصطفى ﷺ من لدن ربه عز وجل، وما فيها من الكمال، والجمال، والنقاء، والتطهر، والتوحيد، ورد الأمور كلها لله عز وجل، ورفض كل الآلهة المدعاة، وتسفيه أحلام عابديها على مدار الزمان وإعادتها إلى أوضاعها الطبيعية: أحجارا أو أشجارا أو تماثيل، لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر...، ونبذ المعتقدات الضالة المتعلقة بالملائكة، أو بالجن، والمتأصلة في عقلية الرجل العربي، وتغيير الشعائر، والمناسك، والتشريعات، والعوائد الاجتماعية، والقبلية، والدينية التي تسيطر على هذه البيئة...

لو تصورنا هذه إلى جنب تلك في كل مجالات الحياة، والاعتقاد التي جاء الإسلام لتغييرها، وإعادتها إلى أصولها الصحيحة، لأدركنا طبيعة المعركة التي كان لابد أن تثور وتدور بين هذا الوضع الثابت المستقر الموروث، وبين هذه الدعوة

الجديدة الناشئة .

وهذا الأمر وحده ـــ وهو الفرق الشاسع بين صورة الجاهلية المهلهلة المظلمة المضطربة، وبين الحقيقة الناصعة القوية التي جاء بها الإسلام ـــ كاف في تعليل الغربة الأولى التي واجهها الإسلام، وعاناها النبي ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ في مطلع الدعوة..، واستمرت آثارها فترة ليست بالقصيرة من عمر الدعوة الأولى.

ولكن ثمت بعض الأسباب التفصيلية التي يحسن ذكرها لأهميتها البارزة في تفسير هذه الغربة[١]:

أولا : ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب :

فمن ذلك ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب، حيث لم يبعث إليهم نبي قبل نبينا محمد ﷺ برسالته العامة الخاتمة، كما أخبر الله تعالى عن ذلك في كتابه حيث يقول:

﴿ أم يقولون افتراه، بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾[٢].

ويقول **﴿ لتنذر قوما ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾**[٣].

قال ابن جريج رحمه الله: «... لم يأتيهم ولا آباءهم، لم يأت العرب رسول من الله عز وجل»[٤].

---

(١) إن تسجيل هذه الأسباب نوع من الاستقراء الموضوعي الذي لا يدّعى فيها الحصر، بل هو اجتهاد من المؤلف، نظرا لعدم الاطلاع على كتابة في هذا الموضوع نفسه، والله أعلم.

(٢) سورة السجدة: آية ٣ .

(٣) سورة يس: آية ٦.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور، ونسبه لابن المنذر: (٥٣٧/٦) .

وورد نحو هذا المعنى عن قتادة رحمه الله[1].

وقال تعالى مبينا نفي إنزال الكتب عليهم، أو إرسال الرسل إليهم:

﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾[2].

ومهما يكن معنى هذه الآيات، فإن العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ، لم يكونوا يدينون بدين، ولا يدرسون كتابا من الكتب السماوية كما كانت تفعل اليهود والنصارى، ولهذا احتج الله عليهم ببعثة محمد ﷺ وقال: **﴿ وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دارستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة.. ﴾**[3].

وأما الآثار التي وصلت إلى أجدادهم من تراث إبراهيم عليه الصلاة

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره: (٢٢/١٥٠)، ونسبه السيوطي لعبد بن حميد وابن المنذر. الدر المنثور: (٧/٤٢).

(٢) سورة سبأ: آية ٤٤ .

أما الجمع بين هذه الآيات وبين قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا *وإنْ من أمة إلا خلا فيها نذير﴾.. سور فاطر: آية رقم ٢٤ وما أشبهها.

فقد اختلفوا فيه، والذي يظهر أن الآيات المثبتة هنا على ظاهرها في نفي مجيء الرسل ونزول الكتب على جنس العرب، وأن قوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ يعني: أمة من الأمم الأخرى غير الأمة التي بعثت فيها يا محمد، لأنه ذكر إرساله ﷺ، بالحق بشيرا ونذيرا في العرب، ثم بين أن هذه سنته تعالى في خلقه، أن يبعث فيها الرسل مبشرين ومنذرين،، فكأن المعنى: ما من أمة من الأمم إلا بعثنا فيها نذيراً ينذرها، إلا هذه العرب، فبعثناك فيهم، والله أعلم.

وأنظر في هذا: تفسير البغوي: (٣/٤٩٧)، روح المعاني للألوسي: (١١/١١٧-١١٩)، تفسير ابن كثير: (٣/٥٤٢،٥٥٢).

(٣) سورة الأنعام: الآيات ١٥٥-١٥٧ .

والسلام ومن تلاه من الأنبياء والرسل، فقد تحولت إلى رسوم حائلة دارسة، ليس فيها إلا إغراء العرب بالتمسك بما هم عليه بزعم أنهم على إرث من إرث أبيهم إبراهيم عليه السلام، والأنبياء بعده، حتى إن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام قد صورهما العرب بصورة المؤيدين للعوائد والرسوم الجاهلية الوثنية.

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: إن رسول الله ﷺ لما قدم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله! أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بها قط، فدخل البيت فكبر في نواحيه، ولم يصل فيه[1].

بل أدهى من ذلك وأمر أن البيت ــ الذي هو رمز التوحيد، ومقصد الأنبياء

---

(١) رواه البخاري في: ٣٥ ــ كتاب الحج، ٥٤ ــ باب من كبر في نواحي الكعبة: (٢/١٦٠)، وفي: ٦٠ ــ كتاب الأنبياء، ٨ ــ باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلا: (٤/١١١).
وفي: ٦٤ ــ كتاب المغازي، ٤٨ ــ باب أين ركز ﷺ الراية يوم الفتح: (٥/٩٣).
ورواه الإمام أحمد في مسنده: (١/٣٣٤-٣٦٥).
وجاء عن ابن عباس من طريق أخرى، وفيه: وجد فيه صورة إبراهيم، وصورة مريم..».
ورواه البخاري في الموضع نفسه من كتاب الأنبياء (وراجع في هذه الإحالة البخاري المطبوع مع فتح الباري، بالمطبعة السلفية (٦ /٣٨٧)، عن ابن عباس قال: دخل النبي ﷺ..
ورواه الإمام أحمد أيضا: (١/٢٧٧).
أما قول ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ: ولم يصل فيه، فالمرجح في ذلك رواية ابن عمر عن بلال ــ رضي الله عنه ــ؛ لأنه كان مع النبي ﷺ، في الموقف نفسه، وقد أثبت صلاة النبي ﷺ داخل الكعبة.
وقد أخرج الحديث: البخاري: ٣٥ ــ كتاب الحج، ٥٢ ــ باب الصلاة في الكعبة: (٢/١٦٠).
ومسلم في: ١٥ ــ كتاب الحج، ٦٨ ــ باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره، والصلاة فيها..، رقم (٣٨٨-٣٩٤)، (٢/٩٦٦) وغيرهما.

جميعا ــ صلى الله عليهم وسلم ــ صار في عرف الوثنية العربية بيتا للأصنام والأنصاب حتى إنه كان حوله ثلاثمائة وستون صنما!.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: « **دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: جاء الحق، وزهق الباطل، جاء الحق، وما يبدىء الباطل وما يعيد**[1] »[2].

لقد كان شعور العرب بأنهم ورّاث دين إبراهيم، وحفظة مناسكه، وسدنة البيت العتيق، يجعلهم أبعد عن قبول الدعوة والانصياع للحق، لوجود هذه الشبهة الواهية لديهم.

---

(١) رواه البخاري في: ٤٦ ــ كتاب المظالم، ٣٢ ــ بل هل تكسر الدنان التي فيها الخمر..، (١٠٨/٣).
وفي: ٦٤ ــ كتاب المغازي، ٤٨ ــ باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح: (٩٢/٥-٩٣).
وفي: ٦٥ ــ كتاب التفسير، تفسير سورة بني إسرائيل، ١٢ ــ باب وقل جاء الحق وزهق الباطل..، (٢٢٨/٥).
ومسلم في: ٣٢ ــ كتاب الجهاد والسير، ٣٢ ــ باب إزال الأصنام من حول الكعبة، رقم (٨٧): (١٤٠٨/٣).
والترمذي في: ٤٨ ــ كتاب تفسير القرآن، ١٨ ــ باب ومن سورة بني إسرائيل رقم (٣١٣٨)، (٣٠٣/٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وفي الباب عن ابن عمر.
وأحمد في مسنده: (٣٧٧/١-٣٧٨).
وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب المغازي، ٢٤٣٥، حديث فتح مكة، رقم (١٨٧٥٢)، (٤٨٨/١٤).

(٢) قوله تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾، هو في سورة الاسراء، آية رقم ٨١ .
وقوله سبحانه ﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾، هو في سورة سبأ، آية ٤٩ .

كما كان لتلغلغل المعتقدات الوثنية في حياتهم وعقولهم، وسيطرتها على تفكيرهم أثر عظيم في تصلبهم أمام الحق، وإبائهم الانقياد والإذعان لدعوته، هذا ـــ فضلا عن أن طبيعة النفس البشرية حين لا تدين بدين سماوي فإنها تبتعد عن التجريد والصفاء العقدي، وتميل إلى التجسيم المادي الحسي.

ولذلك أقدم عبّاد الأصنام على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها وهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حلّ بهم، ولا يزيدهم ذلك إلا حبّا لها وتعظيما، ويوصي بعضهم بعضا بالصبر عليها، وتحمل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها، وهم يسمعون أخبار الأمم التي فتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل العقوبات(١).

يقول الإمام أبو إسحق الشاطبي(٢) في وصف موقف العرب من دعوة التوحيد: «وذلك أن الرسول ﷺ بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، لا تعرف من الحق رسما، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكما، بل كانت تنتحل ما وجدت عليه آباءها، وما استحسنته أسلافها، من الآراء المنحرفة، والنحل المخترعة، والمذاهب المبتدعة، فحين قام فيهم ـــ ﷺ ـــ بشيرا ونذيراً، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فسرعان ما عارضوا معروفه بالنكر، وغيّروا في وجه الصواب بالإفك(٣)، ونسوا إليه إذ خالفهم في الشرعة،ونابذهم في النحلة، كل محال، ورموه بأنواع البهتان فتارة يرمونه بالكذب، وهو الصادق

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان عن مصايد الشيطان للإمام ابن القيم: (٢/٢٢٥).

(٢) هو: أبو إسحق إبراهيم بن موسى اللخمي الأصولي الفقيه، من أئمة المالكية مؤلف كتاب الموافقات والاعتصام وغيرهما، وأحد مجددي علوم الشريعة، توفي سنة (٧٩٠ هـ)..

انظر ترجمته في: برنامج المجاري: ص (١١٦-١٢٢)، وكتب له الأستاذ محمد أبو الأجفان ترجمة موسعة في مقدمة كتاب (فتاوى الإمام الشاطبي)، ص (٢١-٦٤).

(٣) كذا في المطبوع.

المصدوق، الذي لم يجربوا عليه قط خبرا بخلاف مخبره، وآونة يتهمونه بالسحر، وفي علمهم أنه لم يكن من أهله، ولا ممن يدّعيه، وكرة يقولون: إنه مجنون مع تحققهم بكمال عقله، وبراءته من مس الشيطان وخبله، وإذا دعاهم إلى عبادة المعبود بحق وحده لا شريك له، قالوا: ﴿ **أجعل الآلهة إلها واحدا إنّ هذا لشيء عجاب** ﴾[1]، مع الإقرار بمقتضى هذه الدعوة الصادقة ﴿ **فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾[2]. وإذا أنذرهم بطشة يوم القيامة أنكروا ما يشاهدون من الأدلة على إمكانه، وقالوا: ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد** ﴾[3]، وإذا خوفهم نقمة الله قالوا: ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾[4]. اعتراضا على صحة ما أخبرهم به مما هو كائن لا محالة، وإذا جاءهم بآية خارقة افترقوا في الضلالة على فرق، واخترفوا فيها بمجرد العناد ما لا يقبله أهل التهدي إلى التفرقة بين الحق والباطل...

فكذلك كانوا مع النبي ﷺ فأنكروا ما توقعوا معه زوال ما بأيديهم لأنه خرج عن معتادهم، وأتى بخلاف ما كانوا عليه من كفرهم وضلالهم، حتى أرادوا أن يستنزلوه على وجه السياسة في زعمهم ليوقعوا بينهم وبينـ (ـه)[5] المؤالفة والموافقة ولو في بعض الأوقات، أو في بعض الأحوال، أو على بعض الوجوه، ويقنعوا بذلك، ليقف لهم بتلك الموافقة واهى بنائهم، فأبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ إلا الثبوت على محض الحق، والمحافظة على خالص الصواب، وأنزل الله ﴿ **قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون** ... ﴾ إلى آخر السورة[6].

---

(١) الآية من سورة (ص): رقم ٥ .

(٢) سورة العنكبوت: آية ٦٥ .

(٣) سورة (ق): آية ٣ .

(٤) سورة الأنفال: آية ٣٢ .

(٥) ما بين القوسين زدته لظني أن السياق يقتضيه .

(٦) سورة الكافرون: الآيات ١ - ٦ .

فنصبوا له عند ذلك حرب العداوة، ورموه بسهام القطيعة، وصار أهل السلم كلهم حربا عليه، عاد الولي الحميم عليه كالعذاب الأليم، فأقربهم إليه نسبا كان أبعد الناس عن موالاته، كأبي جهل وغيره، وألصقهم به رحما كانوا أقسى قلوبا عليه!.

فأي غربةٍ توازي هذه الغربة؟[1]...

ثانيا : العصبية لتراث الآباء والأجداد :

ومن عادة المشركين والوثنيين: تقديس ما وجدوا عليه آباءهم، وتحريم المساس بشيء منه، إذ هو عندهم الشرع الأعظم، والمنهج الأقوم، الذي يعتبر من تردد في قبول شيء منه ــ بله من رده، أوردّ بعضه ــ مسفها للسابقين، مزريا بعقولهم، مستكبرا عليهم، غير مؤد لحقوق البر الواجب لهم، فهو منسوب إلى عقوقهم، والسعي لإخمال ذكرهم.

ولهذا كان أكبر طاغوت تحارب به دعوات الرسل والأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ هو طاغوت التقليد والعادة المتبعة.

فهؤلاء قوم موسى يردون دعوته لأنها ستلفتهم عما كان عليه آباؤهم، وتجعلهم أتباعا لأصحاب الدعوة الجديدة، وهذا ما لا يطيقونه:

﴿ قالوا: أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾[2].

وهذا إبراهيم عليه السلام يخاطب قومه قائلا: **﴿ .. ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾**[3].

---

(١) الاعتصام للإمام الشاطبي: (١/١٩-٢١) .

(٢) سورة يونس: آية ٧٨ .

(٣) سورة الشعراء: الآيات ٧٠-٧٤ .

فحين يقهرهم بالحجة المفحمة المبينة عن سخف هذه الأسطورة وتهافتها، وأنها لا تستند إلى عقل ولا نقل، يهربون إلى التعلل بالتقليد ومحاكاة الآباء والأجداد فحسب !

وعندئذ يعلن الداعية حقيقة الأمر، ويبين أن الإسلام لا يقيم وزنا للأعراف والعوائد الموروثة عن الآباء والأجداد، ما دامت مصادمة للحق مناقضة للوحي:

﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾[1].

وإذا كان صرح ـــ هاهنا ـــ ببراءته من الآلهة المدعاة، وجاهر بعداوتها فإننا نجده يصرح مرة أخرى ببراءته من عابديها، وعداوته لهم، وتضليله لما كانوا عليه:

﴿ قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾[2].

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده.. ﴾[3].

وهذا المسلك في الحيدة عن منهج الرسل، ورفض المناقشة العقلية ومقارعة الحجة بالحجة، ليس خاصا بهؤلاء، أو أولئك، بل هو دأب المشركين والمعارضين لدين الله ـــ على مر الأجيال ـــ.

فهم إذا دعوا إلى ما أنزل الله من الكتاب، وإلى ما جاء به النبي عليه السلام، من الحق والصواب تلجلجوا، وقالوا:

﴿ حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾[4]!.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٧٥-٧٧ .

(٢) سورة الأنبياء: آية ٥٤ .

(٣) سورة الممتحنة: آية ٤ .

(٤) سورة المائدة: آية ١٠٤ .

﴿ **بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** ﴾[1].

وإذا استنكر عليهم الدعاة الأطهار المصلحون ولوغهم في الشهوات وانهماكهم في الفواحش، وسائلوهم عن ذلك، قالوا:

﴿ **وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها** ﴾[2].

وما ذلك إلا لفقدان الحجة لديهم، وانقطاع المعذرة، إذ إنهم لا يستندون إلى عقل يهديهم، ولا كتاب يشهد لهم، ولذلك قال الله تعالى عنهم:

﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾[3].

وبالجملة فهذه هي القاعدة المطردة عند جميع الأقوام المكذبين لرسلهم، الرادين عليهم دعوتهم، مهما يكن فيها من النور والهدى، يسجلها الله على كفار بني يعرب ـــ خاصة ـــ ثم على المكذبين عامة.

﴿ **أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[4].

وإنما أوقع المشركين في هذا التقليد الكافر، المهدر لعقولهم، المسقط لقيمتهم البشرية، استغلال الشيطان لفطرة مركوزة ـــ أصلا ـــ في الإنسان تدعوه إلى الوفاء للآباء والأجداد، وتربطه بتراثه وتاريخه، وهذا من أعظم وسائله في الكيد:

---

(١) سورة البقرة: آية ١٧٠ .

(٢) سورة الأعراف: آية ٢٨ .

(٣) سورة لقمان: الآيات ٢٠-٢١ .

(٤) سورة الزخرف: الآيات ٢١-٢٤ .

أن يأتي الإنسان من قبل غريزة مطبوعة فيه من حب الشهوة والوطن والمال وغيرها.

عن سبرة بن أبي فاكِهٍ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك، ودين آبائك، وآباء أبيك؟ فعصاه، فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك، وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل**[1]!، فعصاه فهاجر.

ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد! فهو جهد النفس والمال، فتقاتل، فتقتل، فتنكح المرأة! ويقسم المال!، فعصاه فجاهد.

فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك كان حقا على الله ــ عز وجل ــ أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة أو وقصته[2] دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة »[3].

---

(١) الطِّوَل: هو الحبل .

(٢) معنى وقصته: أي سقط عنها فاندقت عنقه فمات. انظر: النهاية (٢١٤/٥).

(٣) رواه النسائي في: ٢٤ ــ كتاب الجهاد، ١٩ ــ ما لمن أسلم وهاجر وجاهد (٢١/٦-٢٢)، وهذا لفظه.

والإمام أحمد في مسنده: (٤٨٣/٣).

وابن حبان ــ كما في الموارد ــ: ٢٦ ــ كتاب الجهاد، ٣ ــ باب في فضل الجهاد، رقم (١٦٠١)، ص (٣٨٥).

كلهم من طريق هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل عبدالله بن عقيل، حدثنا موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سبرة.

وهاشم بن القاسم، أبو النّضر: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (١٨/١١)، التقريب (٣١٤/٢).

وأبو عقيل الثقفي، هو عبدالله بن عقيل، وهو صدوق. انظر: التهذيب (٣٢٣/٥)، =

فالاغراء الملحوظ في هذا الكيد الذي خبّر عنه النبي ﷺ هو مخاطبة الدوافع الفطرية عند الإنسان، فالتحذير من الاسلام لأنه مخالف لعوائد الأجداد، والتحذير من الهجرة لأنها خروج من الوطن الذي أقلت المهاجر أرضه، وأظلته سماؤه، وأشرقت عليه شمسه، ومازال الشعراء المصابون بلوثات الوثنية يقدسون الوطن، ويقولون: وطني لو صوروه لي وثنا

لهممت ألثم ذلك الوثنا !

* * *

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي !

* * *

ويا وطني لقيتك بعد يأس

كأني قد لقيت بكَ الشبابا

أُدير إليك قبل البيت وجهي

إذا فهت الشهادة والمتابا

= التقريب: (٤٣٤/١).

وموسى بن المسيب الثقفي، أبو جعفر الكوفي البزار: صدوق، انظر: التهذيب: (٣٧٢/١٠)، التقريب: (٢٨٨/٢).

وسالم بن أبي الجعد: ثقة كثير الإرسال. انظر: التهذيب (٤٣٢/٣)، التقريب: (٢٧٩/١).

فالحديث بهذا الإسناد، حسن.

وقال الحافظ ابن حجر عن رواية النسائي: «بإسناد حسن إلا أن في إسناده اختلافا»، الإصابة ترجمة رقم (٣٠٨٠)، (١٢٠/٤)، ولم يتبين لي وجه الاختلاف.

وقد رواه الطبراني في الكبير: (٦٥٧)، سبرة بن أبي فاكه برقم (٦٥٥٨)، (١٣٨/٧) من طريق محمد بن فضيل عن موسى بن سالم.

وفي المسند المطبوع تحرف اسم أحد الرواة من (موسى بن المسيب) إلى (موسى بن المثنى).

والتحذير من الجهاد لأنه إنهاك النفس، والمال، أو القتل، وزهوق الروح..

والإنسان بطبعه ـــ يحب الحياة، ويحب المال، ويحب الولد.

ولما بعث النبي ﷺ، كان من المعايب التي ألصقها به المشركون أنه يدعو إلى خلاف ما عهدوا عليه الآباء والأجداد، وبذلك نفروا منه العامة والدهماء، وفرضوا على الدعوة نوعا من الحصار المؤقت.

عن عروة بن الزبير عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشا أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط؛ سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، قال: فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك على وجهه، ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال: تسمعون يا معشر قريش! أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح!، فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول! حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم! انصرف راشدا! فوالله ما كنت جهولا!.

قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه!

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم عنه من عيب

آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: نعم. أنا الذي أقول ذلك.

قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه. قال: وقام أبو بكر الصديق ــ رضي الله تعالى عنه ــ دونه يقول ــ وهو يبكي ــ: أتقتلون رجلا أن يقول: ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه.

فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط[1].

---

(١) رواه ابن إسحق في السير والمغازي، ص (٢٢٩)، وهو في السيرة لابن هشام: (٣٠٩/١).

ومن طريقه رواه :

الإمام أحمد في مسنده: (٢١٨/٢) .

والطبري في التاريخ: (٣٣٢/٢) .

والبيهقي في الدلائل، باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه..، (٢٧٥/٢) .

من طريق يحيى بن عروة، عن أبيه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

ومحمد بن إسحق صاحب السيرة صدوق إذا سلم من التدليس، وقد صرح بالتحديث هاهنا.

انظر: سير أعلام النبلاء: (٣٣/٧-٥٥)، التهذيب: (٣٨/٩-٤٦)، التقريب: (١٤٤/٢).

ويحيى بن عروة هو ابن الزبير: ثقة. انظر: التهذيب: (٢٥٨/١١)، التقريب: (٣٥٤/٢)، وأبوه عروة: ثقة فقيه مشهور. انظر: التهذيب: (١٨٠/٧)، التقريب: (١٩/٢).

فالحديث بهذا الإسناد حسن .

والحديث ثابت في الصحيح وغيره مختصرا من طريق محمد بن إبراهيم التيمي :

رواه البخاري في: ٦٢ ــ كتاب فضائل الصحابة، ٥ ــ باب قوله ﷺ لو كنت متخذا خليلا: (١٩٧/٤) .

٦٣ ــ مناقب الأنصار، ٢٩ ــ باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه.. (٢٤٠/٤).

٦٥ ــ كتاب التفسير، ٤٠ ــ باب سورة المؤمن: (٣٤/٦).

وأحمد في المسند: (٢٠٤/٢) .

=

ثالثا: موقف أهل الكتاب المساند للوثنية :

ومما ضاعف المتاعب التي لاقاها الداعية الأول ـ ﷺ ـ وأتباعه المؤمنون أن البيئة التي بعث فيها كانت على صلة ما ببعض أهل الكتاب من اليهود، والنصارى، الذين شرقوا بالدعوة، وناصبوها العداء، وكان العرب ينظرون إليهم نظرة إعجاب وإكبار، لما كان في أيديهم من الكتب، ولما كان لديهم من العلم. وإذا كانت بيئة العرب الوثنية العريقة مستعدة أصلا لمواجهة دعوة التوحيد ومحاربتها، فإنها قد وجدت في موقف أهل الكتاب الرافض للدعوة «مستندا» شرعيا لهذه المقاومة.

فهاهم أهل التوراة والانجيل، وورثة الكتب السماوية ينكرون دعوة محمد[1]، ويردونها ويكذبونها، وهم أدرى منا بالدين وأعلم!، وهذا كان مصدر تثبيت ودعم لموقف المشركين.

= والبيهقي في الدلائل، باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه.. (٢/٢٧٥).
وله شواهد منها:
١ـ عن عمرو بن العاص :
عند البخاري تعليقا في: (٤/٢٤٠) .
وعند أحمد في فضائل الصحابة، برقم (٦٣٩)، (١/٤١٢).
والبيهقي في الدلائل: (٢/٢٧٦،٢٧٧).
وأبي نعيم في الدلائل: ص (١٦٥) .
وابن أبي شيبة في المصنف: (١٤/٢٩٧) .
وابن حبان، كما في الموارد، رقم (١٦٨٥)، ص (٤٠٧) .
ونسبه المزي في التحفة للنسائي في التفسير في الكبرى، رقم الحديث في التحفة (١٠٧٣٩)، (٨/١٥٥) .
ونسبه ابن كثير لابن أبي حاتم وساقه بإسناده، تفسير سورة المؤمن (٤/٧٧).
٢ـ عن أنس عند الإمام أحمد في فضائل الصحابة، برقم (٢١٨)، (١/٢٠٠) .

(١) صلى الله عليه وسلم .

﴿ **وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم، إن هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق** ﴾[1].

فمن عوامل الصبر على الآلهة في مواجهة الدعوة الجديدة أنهم لم يسمعوا بما جاء به ــ ﷺ ــ في الملة الآخرة، وهي النصرانية، قاله ابن عباس والسدي ومحمد بن كعب القرظي وقتادة ومجاهد[2].

وهذا ــ فيما يظهر، والله أعلم بالصواب ــ مبني على شهادةٍ من أهل الكتاب للمشركين ضد الرسول ﷺ وإلا فما كان للعرب من علم بالكتب السماوية وما فيها من الحقائق والأخبار.

ويؤكد هذا ما حكاه الله في موضع آخر من شهادة اليهود للوثنيين، ضد الموحدين المؤمنين. قال تعالى: ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتو نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفرو هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾[3].

وذلك أن اليهود حصروا أنفسهم في خندق واحد، مع مشركي العرب في الحرب الدائرة بينهم وبين الرسول ﷺ، وزكوا ديانة العرب الوثنية، وفضلوا أهلها على المؤمنين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم كعب بن الأشرفّ مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا؟ ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية، قال: أنتم خير منه، قال: فأنزلت: ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾[4]،

---

(١) سورة (ص): الآيتان ٦،٧ .

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٢٦/٢٣)، والدر المنثور: (١٤٦/٧) .

(٣) سورة النساء: الآيتان ٥١،٥٢ .

(٤) سورة الكوثر: آية ٣ .

وأنزلت: ﴿ **ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت** ﴾... إلى قوله ﴿ **فلن تجد له نصيرا** ﴾ »[1].

ومعنى ذلك أن الله وصف الذين أُوتوا نصيبا من الكتاب، من اليهود، بتعظيمهم غير الله بالعبادة، والإذعان له بالطاعة في الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما، وأنهم قالوا إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به، وإن دين أهل التكذيب لله ولرسوله أعدل وأصوب من دين أهل التصديق.

وهذه صفة كعب بن الأشرف الذي انطلق إلى المشركين من كفار قريش

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: (١٣٣/٥) تفسير سورة النساء .
وذكره ابن كثير في التفسير: (٥١٣/١) وعزاه إلى الإمام أحمد مسندا و لم أجده في المسند ـــ مسند ابن عباس بعد البحث.
وابن حبان ـــ كما في الموارد ـــ: ٢٨ ـــ كتاب التفسير، سورة النساء رقم الحديث (١٧٣١)، ص (٤٢٨).
ونسبه السيوطي لأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم، الدر المنثور: (٥٦٢/٢).
ومدار إسناد الطبري وأحمد وابن حبان على محمد بن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة عن ابن عباس.
ومحمد بن أبي عدي، هو محمد بن إبراهيم بن أبي عدي: ثقة. انظر: التهذيب: (١٢/٩)، التقريب: (١٤١/٢).
وداود هو ابن أبي هند: ثقة متقن، كان يهم بآخره. انظر: التهذيب (٢٠٤/٣)، التقريب: (٢٣٥/١) .
وعكرمة هو ابن عبدالله، مولى ابن عباس: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (٢٦٣/٧)، التقريب: (٣٠/٢) .
فالإسناد صحيح .
وقد ورد معناه عن جابر وأبي مالك .
وورد مرسلا عن عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي وغيرهم .
انظر: تفصيل رواياتهم في: الطبري: (١٣٣/٥-١٣٥)، والدر المنثور: (٥٦٢/٢-٥٦٤).

فاستجاشهم على النبي ﷺ، وأمرهم أن يغزوه، وقال: إنا معكم على قتاله[1]...

وهكذا يقف المنحرفون من أتباع الديانات السماوية في صف الوثنية الصريحة مناوئين للإيمان، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، ولقد كانوا أولى الناس أن يتبعوا الكتاب وينصروا الرسول ويكفروا بشرك العرب، ولكن طبيعتهم الملتوية، وأطماعهم البعيدة، وأحقادهم المتمكنة، جعلتهم يدركون أن الحق ضدهم، وضد أهوائهم، وأنهم لا يمكن أن يعيشوا إلا في مستنقعات الشرك والوثينة، ومن ثم أدلوا بهذه الشهادة الخطيرة[2]!.

ويمكن أن نتصور ــ الآن ــ جزءا من معنى الغربة التي لقيها إمام الموحدين ﷺ والقلة المؤمنة معه، حيث رمتهم الدنيا كلها عن قوس واحدة، وتألبت على عداوتهم كافة الطوائف. منذ بدء الدعوة ــ كما توحي به الآية الكريمة في سورة (ص)، وإلى أن تمكنت هذه الغرسة الربانية في نفوس الأنصار في المدينة، حيث قامت دولة الإسلام الأولى.

وكان ترقي الدعوة في مدارج الكمال، وتحقيقها للانتصارات المتتالية من أسباب احتدام العداوة اليهودية ــ بل والكتابية ــ لها، وشعورها بضرورة القيام بعمل عسكري وإعلامي مشترك، وهو ما حاولت اليهودية تحقيقه في غزوة الأحزاب حين ألبت قوى الكفر والشرك على المدينة المنورة حتى صار الحال كما وصف الله: ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾[3].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٣٣/٥)، وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٦٨٠/٢).

(٢) وهذا هو موقفهم من الدعوة الإسلامية في هذا الزمان، وفي كل زمان، حيث يلصقون بها ألوان التهم والإشاعات، ويتحالفون حتى مع الشياطين في حربها والقضاء عليها.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١ .

وعلى رغم تمكن الإسلام، ورسوخه، وامتداد جذوره في أرض الهجرة وغيرها، إلا أن المخاطر لا زالت قائمة، والأعداء المتربصون حول المدينة كثير.

ولذلك جاء في الصحيح:

عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: « احصوا لي كم يلفظ الإسلام؟ »، قال: فقلنا: يا رسول الله!.أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ قال: «إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا».

قال: فابتلينا. حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرا»[1].

وقد ذهب عدد من العلماء والشرّاح إلى أن هذا كان عند أُحد، أو يوم الخندق، حيث حوصر المسلمون إلى الحد الذي قال معه بعض المنافقين: قد كان محمداً يعدنا فتح فارس والروم، وقد حُصِرنا هاهنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته! ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا[2].

---

(١) أخرجه البخاري: في: ٥٦ ــ كتاب الجهاد والسير، ١٨١ ــ باب كتابة الإمام الناس: (٣٤/٤) وفيه: ونحن ألف وخمسمائة، وفي رواية: مابين ستمائة إلى سبعمائة.
ومسلم في: ١ ــ كتاب الإيمان، ٦٧ ــ باب الاستسرار بالإيمان للخائف، رقم (٢٣٥) (١٣١/١-١٣٢)، وهذا لفظه.
وابن ماجه في: ٣٦ ــ كتاب الفتن، ٢٣ ــ باب الصبر على البلاء رقم (٤٠٢٩)، (١٣٣٦/٢).
وأبو عوانة في مسنده، بيان أن الساعة لا تقوم ما دام في الأرض من يوحد الله.. (١٠٢/١) وزاد في إحدى روايتيه: «فكتبناهم فوجدناهم خمسمائة..».
وأحمد في مسنده: (٣٨٤/٥).
وانظر للجمع بين روايات الحديث، وتحديد متى كان ذلك الابتلاء:
فتح الباري: (١٧٨/٦)، شرح النووي على مسلم: (١٧٩/٢)، فتح الملهم شرح صحيح مسلم لشبير أحمد العثماني: (١٨٢/١).

(٢) تفسير الطبري: (١٣٣/٢١) .

وكان أمر الأحزاب من كيد اليهود وتدبيرهم ومشاركتهم، حيث ألّبوا قريشا وغطفان، ونقضوا عهودهم التي أبرموها مع الرسول ﷺ.

وبذلك يتضح دور اليهود ــ وأهل الكتاب عامة ــ في فرض طوق الغربة على الإسلام حينا من الدهر، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون.

رابعا: سيطرة الأعراف، والعوائد القبليّة :

ولقد كانت البيئة العربية بيئة قبلية، تسيطر عليها الأعراف، والعوائد القبلية، ويحكمها في كثير من تصرفاتها، ومواقفها الصراع القبلي، والتنافس على الرياسة، والشرف، والسؤدد.

وحين اختار الله نبيه محمدا ﷺ للرسالة كان ﷺ في الذروة من قومه، حيث التقى فيه ما تفرق في بيتي (عبد مناف) ــ من جهة أبيه ــ، و(زُهرة) ــ من جهة أمه ــ من شرف، ومكانة، وكرم خليقة.

فهو في الذؤابة من قريش ثم من بني هاشم ــ وهم عِلية العرب ــ من حيث النسب، كما كان ﷺ معروفا بينهم بسمو الخلق، وكرم السجايا، وجميل الخصال، بعيدا عن أن يزنّ بأدنى خلة مُردِية من الخلال التي كانوا يتفاخرون بها في جاهليتهم، متنزها عن كل ما يشين، إذ كان الله تعالى يحوطه من أول أمره، ويحفظه عن كل ريب، أو منقصة.

ولكنه لم يترأس عليهم بعدُ رئاسة قبلية، لعوامل كثيرة تتعلق بالبيئة والسن من جهة، ولحكم وأسرار إلهية من حياطة هذه الدعوة أن يتلبس بها مطمع من المطامع الدنيوية، التي تجرّ إليها غير المخلصين، أو تبعد عنها المترفعين المتعففين. ولذلك كان من اعتراضات المشركين أن يتساءلوا عن السر في اختيار محمد ﷺ لهذه الدعوة.

ولأنهم محجوبون عن إدراك فضائله الخلقية، وخصائصه الشخصية، فانهم لا يرون له عليهم فضلا، ولا مزية، بل يرون أن فلانا وفلانا من كبار رجالات

القبائل، وعظمائها أولى وأجدر بالرسالة ــ لو كانت ــ:

﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾(١).

وليس المقصود ــ بالضرورة ــ رجلا بعينه، كما تتحدث بعض الروايات، وتسمى من رجالات مكة. الوليد بن المغيرة المخزومي، أو عتبة بن ربيعة وكانوا يسمون الوليد: ريحانة قريش!.

وتسمى من رجالات الطائف: حبيب بن عمرو الثقفي، أو ابن عبد ياليل أو عروة بن مسعود، أو كنانة بن عبد... أو غيرهم(٢).

إنما المقصود أن المشركين يقترحون أن تكون الرسالة في رجل عظيم من مكة، أو الطائف، ممن له شرف، ورياسة، ومشيخة في قومه.. كهؤلاء المذكورين، أو غيرهم.

وأني لهؤلاء المساكين أن يتدخلوا في موضوع الاختيار الإلهي للنبي المصطفى وهم الذين لم يبلغوا ــ لفساد نفوسهم، وتلوث عقولهم، ورداءة طباعهم ــ أن يكون مجرد أتباع لهذا النبي المختار!.

بل يبلغ بهم الشطط أن يطلبوا أن يكون كل فرد منهم بمنزلة الرسول: يأتيه الملك، وينزل عليه الوحي!، وكأن أحدا منهم لن يتبع أحدا!.

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾(٣).

لقد عظمت عندهم نفوسهم، وأنفوا من الاتباع لبشر مثلهم ــ ولو كان

---

(١) سورة الزخرف: آية ٣١ .

(٢) راجع هذه الروايات في: تفسير الطبري: (٢٥/٦٥-٦٦) .

(٣) سورة الأنعام: آية ١٢٤ .

نبياً مؤيدا بالوحي من السماء ــ وطلبوا أن تنزل عليهم الملائكة، أو يرو الله عيانا، فكان عاقبتهم أن يعذبوا في الدنيا والآخرة صاغرين، ويدخلوا جهنم داخرين كما قال تعالى هنا: ﴿ **سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله..** ﴾، وقال سبحانه في آية أخرى:

﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا** ﴾(١).

إذاً، فهؤلاء المستكبرون يرفضون ــ أصلا ــ طاعة بشر مثلهم شأن المكذبين من الأمم الأخرى الذين يقولون:

﴿ **ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون** ﴾(٢).

وإذا جاء هذا الرسول من البشر فهلا كان من علية القوم، ومشيختهم، وأصحاب الرئاسة فيهم، حتى يكون ــ عندهم ــ جديراً بأن يُتبع، ويُطاع؟؟ وهذه لا تعدو أن تكون تَعِلاّت يتعلّل بها المعرضون المكذبون، ويدفعون بها الحق الذي يحمله الرسول.

ولذلك تجد المعارضين للدعوة المنتسبين للبطن الذي ينتسب إليه الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ يحتجون بعدم كون الرسول ﷺ شيخا ذا رياسة وتقدم فيهم، والمعارضين من البطون الأخرى يرفضون الدعوة حماية لمركزهم، ومنافستهم، والمعارضين من القبائل الأخرى يرفضونها حفاظا على مكانة قبيلتهم، وأنفة من اتباع فرد من قبيلة أخرى!.

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: « إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أني أمشي أناوأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول

---

(١) سورة الفرقان: آية ٢١ .

(٢) سورة المؤمنون: آية ٣٤ .

الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم! هلمّ إلى الله وإلى رسوله، إني ادعوك إلى الله، فقال أبو جهل: يا محمد، هل أنت منته عن سبّ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقا ما تبعتك!.

فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليّ فقال: والله إني لأعلم ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، قالوا: فينا الندوة، قلنا: نعم، قالوا: فينا اللواء، قلنا: نعم، قالوا: فيناالسقاية، قلنا: نعم. ثم أطعموا، وأطعمنا، حتى إذا تحاكّت الركب قالوا: منا نبي! فلا والله لا أفعل[1]!.

وهكذا ينكشف الغطاء، وينجلي الأمر !

فالقضية في حسّ أبي الجهل وأضرابه هي صراع قبلي على الشرف، والسيادة، وقد استأثر فيها بنو قصي بالحجابة، والسقاية، والندوة، واللواء.. فلا يمكن أن يستأثروا بالنبوة، لأن معنى ذلك أن تنقاد لهم قريش، بل العرب كلها.

ويشبه هذه القصة خبر استماع أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق

---

(١) رواه يونس بن بكير في زوائده على السير والمغازي لابن إسحق، باب أحاديث الأحبار وأهل الكتاب، بصفة النبي ﷺ ص (٢١٠).
ومن طريقه رواه البيهقي في دلائل النبوة، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز.. (٢٠٧/٢).
من طريق هشام، عن زيد بن أسلم، عن المغيرة.
ويونس بن بكير: صدوق. انظر: التهذيب (٤٣٤/١١)، التقريب: ص (٦١٣) ط: محمد عوامة.
وهشام بن سعد، صدوق له أوهام، ومخالفته للثقات لا تحتمل، لكن قال عنه أبو داود: «أثبت الناس في زيد بن أسلم» وروايته هاهنا عن زيد بن أسلم. انظر: التهذيب (٣٩/١١)، والتقريب (٣١٨/٢).
وزيد بن أسلم: ثقة عالم. انظر: التهذيب (٣٩٥/٣)، التقريب: (٢٧٢/١).. فالحديث ــ بهذا الإسناد ــ حسن .

للقرآن ليلة بعد ليلة، فلما أصبح الأخنس أتى أبا جهل، فقال له: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا، فأطعمنا، وحملوا، فحملنا، وأعطوا، فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع أبدا، ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس بن شريق[1].

لقد كانت مهمة الرسول ﷺ صعبة عسيرة في وسط كهذا الوسط القبلي الذي يحتفل كل الاحتفال بالمركز العائلي، وتتنافس فيه القبائل تنافسا مريرا على الشرف، والسيادة.

فالأقربون لا يتبعونه لأنه ليس من المشيخة الأكابر، وغيرهم لا يتبعه لأنه ليس من البطن، والقبيلة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[2] صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ماهو؟ فجاء أبو لهب، وقريش فقال:

أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟

---

(١) رواه ابن إسحق — كما في سيرة ابن هشام (٣٣٧/١)، قصة استماع قريش إلى قراءة النبي ﷺ قال: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدّث..، وهو في السير والمغازي ص (١٨٩).
ومن طريقه البيهقي في الدلائل، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز.. (٢٠٦/٢).
فهو من مراسيل الزهري، قال أحمد بن سنان: كان يحيى بن سعيد لا يرى إرسال الزهري وقتادة شيئا، ويقول: هو بمنزلة الريح...».
ولكن يشهد لمعناه الحديث السابق قبله.

(٢) سورة الشعراء: آية ٢١٤ .

قالوا: نعم. ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾[1] »[2].

ومنذ هذا البلاغ انقسمت الدنيا إلى معسكرين: معسكر الكفر والشرك، ويقف فيه الناس كلهم: عربهم، وعجمهم، ملوكهم، وسُوْقتهم، قريبهم، وبعيدهم، والمعسكر الآخر معسكر الإيمان، ويقف فيه محمد بن عبدالله ـ ﷺ ـ ما معه

---

(١) سورة المسد: الآيتان ١، ٢ .

(٢) رواه البخاري في: ٦١ ـ المناقب، ١٣ ـ باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية: (١٦١/٤).

وفي ٦٥ ـ كتاب التفسير، سورة الشعراء، ٣ ـ قوله: وأنذر عشيرتك الأقربين، (١٦/٦).

وفي: ٦٥ ـ كتاب التفسير، سورة الشعراء، ٣ ـ قوله: وأنذر عشيرتك الأقربين، (١٦/٦).

وفي: ٦٥ ـ كتاب التفسير، سورة تبت يدا أبي لهب وتب (٩٤/٦).

ومسلم في: ١ ـ كتاب الإيمان، ٨٩ ـ باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين ـ رقم الحديث ـ (٣٥٥)، (١٩٣/١) .

والإمام أحمد في مسنده: (٣٠٧/١) .

والطبري في التفسير ـ تفسير سورة تبت: (٣٣٦/٣٠-٣٣٧) .

والبيهقي في دلائل النبوة، باب ما رد أبو لهب على النبي ﷺ (١٨١/٢).

وأبو عوانة في: الإيمان ـ بيان أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (٩٢/١).

وله شواهد منها :

١ـ عن أبي هريرة: رواه البخاري في (١٩٠/٣): (١٦١/٤) .

وفي التفسير: (١٦/٦). ومسلم في: (١٩٣/١)، والنسائي في (٢٤٨/٦-٢٥٠)، والدارمي في: (٢١٥/٢)، وأبو عوانة في (٩٣/١-٩٥).

٢ـ عن عائشة: رواه أبو عوانة في: (٩٥/١) .

٣ـ٥ عن قبيصة بن مخارق، وزهير بن عمرو، والأشعري، عند أبي عوانة أيضا.

فيه إلا حر، وعبد، وغلام، وامرأة[1]! ــ ممن ضحوا في سبيل الدين بالغالي، والنفيس. وكفى بهذه غربة.

ومن البدهي أن المشركين من قريش، وأهل مكة خاصة، كان لهم دور كبير في حجب أنوار الدعوة عن الآخرين، وهذا ما سأعرض له في السبب الخامس.

خامسا: التأثير البالغ لموقف قريش على العرب :

فلقد كان لموقف قريش الرافض للدعوة أثر عظيم في امتناع سائر العرب عن قبول الدعوة، حتى ولو لم تبذل قريش أي جهد في مقاومة الدعوة وتشويه صورة الداعية في نفوس الناس، لأن الناس كانوا يتطلعون إلى موقفها وينتظرون قرارها، وذلك لأسباب منها:

(أ) مكانة قريش في نفوس العرب، فقد كان العرب يعظمون أهل بيت الله، ويمنحونهم الإجلال، والإكبار، لقيامهم على البيت، ووفائهم بما يحتاجه قصاده من الطعام والشراب وغيره، وتسابقهم في ذلك، وتنافسهم عليه.

وكان لقصي بن كلاب دور عظيم في ترسيخ هذه المكانة، وتعميق جذورها حيث جمع قريشا في مكة، ووطد مكانتها، وانتزع سدانة البيت من جرهم بعد حروب طاحنة، واختط لقريش خطة الشرف والسيادة، ولذلك يقول فيه الشاعر:

وزيد أبوكم كان يدعى مُجَمِّعا
به جمع الله القبائل من فهر[2]

وكان لحماية الله بيته من أبرهة وجيشه، وإهلاكهم بالصورة التي ذكرها الله في القرآن أثر مضاعف في حرمة البيت، وقداسته عند العرب، ومن ثم في

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني ــ من هذا الباب ــ المتعلق بمظاهر الغربة .

(٢) البيت لمطرد بن كعب الخزاعي، انظر: التبيين في أنساب القرشيين، لابن قدامة المقدسي (ص٣٧)، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي (٣٥٥/١).

حرمة جيرانه، وسدنته، وهذا جعل القرشيين يسيرون حيث شاءوا في بلاد العرب آمنين من غارات السلب، والنهب التي كان يشنها اللصوص، والصعاليك، وقطاع الطرق، حيث تحميهم القبائل، وتجيز قوافلهم، ومن ثم كانت رحلة الشتاء، والصيف: إلى اليمن، والشام، وهذا أنعش تجارة قريش، ودعم اقتصادها.

لهذا ــ ولغيره ــ كانت العرب تنظر إلى قريش نظرة تقديس، وتعظيم، وامتياز، وكانت قريش ــ من حيث الجملة ــ جديرة بهذه المكانة لما منحها الله من الخصائص الفطرية والميزات الذاتية، ويدل لذلك أن الإسلام جاء بدعم مكانة قريش، وحصر الخلافة فيها ــ وأن الله ذكّرهم في القرآن الكريم بما أمتن به عليهم من هذا الحرم الآمن حيث يتخطف الناس من حولهم، وأنه جعله مثابة للناس وأمنا، وحرك أفئدة الناس تهوي إليه، وتُجبىٰ إليه ثمرات كل شيء ، وأنه حفظه من الأحباش وغيرهم، وحفظ أهله به.

وكانت في قريش زعامات تحمي المظلوم، وتعين المحتاج، وتمنع الظالم، كما يظهر في حلف الفضول الذي عقد في دار (عبدالله بن جُدْعان)[1].

---

(١) هو: عبدالله بن جدعان: بضم الجيم وسكون الدال المهملة ــ من بني تيم بن مرة، وكان من رؤساء قريش، وصولا للرحم، منفقا، جوادا، محبا للسلام. انظر: المنمق لابن حبيب: (١٧١-١٧٢، ٤٦٤)،وشرح النووي على مسلم: (٨٧/٣)، وسيرة ابن كثير: (١١٦/١-١١٨).

وانظر في خبر حلف الفضول: المنمق: (٤٥-٥١، ٢١٧-٢٢٢،٣٣٥،٣٤٤)، سيرة ابن هشام: (١٤٠/١).

وانظر الرواية في شهود النبي ﷺ هذا الحلف في المنمق أيضا، وفي: تفسير الطبري، تفسير سورة النساء: (٥٦/٥).

وقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعهُ؟ قال: «لا ينفعه. إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». كتاب الإيمان، ٩٢ ــ الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، رقم (٣٦٥)، (١٩٦/١).

ولذلك كله، فإن العرب كانت تتربص بإسلامها إسلام هذا الحي ــ من قريش ــ فلما رأت صدودهم عن الدعوة، وزرايتهم بها، انصرفت عنها، ولم تأبه لها ــ إلى حين ــ .

(ب) ويضاف إلى تأثير تلك المكانة الخاصة التي تبوأتها قريش عند العرب ــ أن الرسول المبعوث ــ عليه صلوات الله وسلامه ــ كان من قريش نفسها، وكان منطق العرب يقول إن القبيلة أعلم وأدرى بصاحبها وأخبر بشأنه، فلم نكن لنفتات عليهم فيه.

فلم تكد قبيلة من قبائل العرب تفكر ــ أول الأمر ــ بالاستجابة لدعوة الرسول ﷺ أو إيوائه، وهذه قبيلة قريش ترفض دعوته، وتعرض عنها..، وهي قريش ذات المكانة، والسؤدد! وهي قبيلته التي تعرفه حق المعرفة!

(ج) هذا لو لم يكن من قريش إلاّ مجرد الإعراض عن الدعوة، وعدم قبولها، فكيف إذا انضم إلى ذلك الحرب الإعلامية التي شنتها على الدعوة وصاحبها، والحصار الذي ضربته عليها بكل وسيلة؟؟

فلقد كان زعماء قريش يجتمعون ليتدارسوا ما يقولون في شأن هذا القرآن، وما يقابلون به وفود العرب القادمين إلى مكة في الموسم، ويحاولون أن يتفقوا على كلمة واحدة في شأن هذا القرآن، وشأن هذا الرسول ــ ﷺ ــ[1].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: (٤٩٩/١)، والسير والمغازي لابن اسحق ص (١٥٠-١٥٢)، والطبري في التفسير ــ سورة المدثر: (١٥٦/٢٩ــ١٥٧)، والدلائل للبيهقي: (٢٠٠/٢).

وفيها: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إلى نفر من قريش ــ وكان ذا سن فيهم ــ فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قول بعضكم بعضا.. الخ.

وقد رواه ابن اسحق عن محمد بن أبي محمد ــ مولى زيد بن ثابت قال الذهبي: لا يعرف. الميزان: (٢٦/٤)، التهذيب: (٤٣٣/٩).

قال تعالى: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر ﴾(١).

قال المفسرون: نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة المخزومي، وما قاله بشأن القرآن، حيث زعم أنه سحر يفرق بين المرء وزوجه، وبين المرء وأخيه، وأن النبي ـ ﷺ ـ نقل هذا السحر، وأثره عن غيره(٢).

ولم تكتف قريش ببث الشائعات، وإطلاقها من مكة، بل كانت تلاحق الداعي المختار ﷺ، حيثما ذهب، وتجند من سفهائها، من ذوي الأحلام الطائشة، والنفوس الموتورة ليسيئوا إلى النبي ﷺ ويشوهوا سمعته بين القبائل، كيلا يجرؤ أحد على إيوائه، أو اتباعه.

عن ربيعة بن عبادٍ الديلي قال:

رأيت رسول الله ﷺ بصرُ عيني بسوق ذي المجاز يقول: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا، ويدخل في فجاجها، والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحدا يقول شيئا، وهو لا يسكت يقول: أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، إلا أن وراءه رجلا أحول، وضيء الوجه، ذا غديرتين، يقول: إنه صابيء كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبدالله، وهو يذكر النبوة، قلت: من هذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب.

قلت(٣): إنك كنت يومئذ صغيرا؟ قال: لا والله إني يومئذ لأعقل(٤).

---

(١) سورة المدثر: الآيات ١١-٢٥ .

(٢) الطبري: (١٥٦/٢٩)، تفسير ابن كثير: (٤٤٢/٤)، القرطبي: (٧١/١٩)، الدر المنثور: (٣٢٩/٨) وغيرها..

(٣) القائل هو الراوي عن ربيعة وهو أبو الزناد: عبدالله بن ذكوان.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند: (٤٩٢/٣) . =

....

= والبيهقي في الدلائل: باب قول الله عز وجل ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك..﴾ (١٨٦/٢).

من طرق كثيرة عن عبدالرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن ربيعة.

وعبدالرحمن: صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد، فرواية البغداديين عنه ضعيفة.

انظر: تاريخ بغداد (٢٢٨/١٠)، التهذيب: (١٧٠/٦)، التقريب: (٤٨٠/١).

وأبوه هو عبدالله بن ذكوان: ثقة فقيه. انظر: التهذيب: (٢٠٣/٥)، التقريب: (٤١٣/١).

فالحديث: ــ بهذا الاسناد ــ حسن، لأنه رواه عنه البغداديون ــ كما في معظم الطرق ــ، ورواه عنه المدنيون ــ كما في إحدى روايتي البيهقي حيث رواه عنه إسماعيل ابن أبي أويس، وهو مدني صدوق من رجال الشيخين. انظر: التهذيب (٣١٠/١)، التقريب (٧١/١).

وقد جاء من طرق أخرى كثيرة:

فرواه الإمام أحمد: (٤٩٢/٣)، (٣٤١/٤،٣٤١-٣٤٢).

والطبري في التاريخ: (٣٤٨/٢).

من طريق ابن إسحق، قال: حدثني حسين بن عبدالله بن عبيد الله بن العباس، قال: سمعت ربيعة بن عباد.

وابن إسحق: صدوق مدلس، وقد صرح بالتحديث، ومضى.

وحسين بن عبدالله: ضعيف. انظر: التهذيب: (٣٤١/٢)، التقريب: (١٧٦/١).

ورواه الإمام أحمد: (٤٩٢/٣).

والحاكم في المستدرك: (١٥/١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ورواته عن آخرهم ثقات أثبات.

من طريق سعيد بن سلمة يعني ابن أبي الحسام، حدثنا محمد بن المنكدر، أنه سمع ربيعة..

وسعيد بن سلمة: صدوق صحيح الكتاب، يخطيء من حفظه. انظر: التهذيب: (٤١/٤)، التقريب: (٢٩٧/١).

ومحمد بن المنكدر: ثقة فاضل. انظر: التهذيب: (٤٧٣/٩)، والتقريب: (٢١٠/٢).

ورواه الإمام أحمد في المسند: (٤٩٢/٣)، من طريق مصعب الزبيري، حدثني عبدالعزيز =

وعن طارق بن شداد ـــ رضي الله عنه ـــ قال: رأيت رسول الله ﷺ مرتين، رأيته بسوق ذي المجاز، وأنا في بياعة لي، فمر وعليه حلة حمراء، فسمعته يقول: أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه، وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوا هذا، فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا غلام من بني عبدالمطلب، فقلت: من هذا الذي يرميه بالحجارة، فقيل: عمه عبد الغزى، أبو لهب، بن عبدالمطلب[1].

= ابن محمد بن أبي عبيد، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن خالد القرظي، عن ربيعة.
ومن طريق سريج بن يونس، حدثنا عباد، عن محمد بن عمرو، عن محمد بن المنكدر، فيما يظن عباد بن عباد، عن ربيعة.
ومن طريق محمد بن بشار، حدثنا عبدالوهاب، حدثنا محمد بن عمرو عن محمد بن المنكدر، عن ربيعة.
ومن طريق سريج بن يونس، حدثنا عباد، عن محمد بن عمرو، عن محمد بن المنكدر، فيما يظن عباد بن عباد، عن ربيعة.

(١) رواه ابن إسحق في السيرة: قصة النبي ﷺ لما عرض نفسه على العرب: ص (٢٣٢) .
وابن أبي شيبة في المصنف: كتاب المغازي، باب في أذى قريش للنبي ﷺ، رقم الحديث (١٨٤١٤) (١٤/٣٠٠).
وابن خزيمة في صحيحه: كتاب الوضوء، ١٢٤ ـــ باب ذكر الدليل على أن الكعبين.. العظمان الناتئان في جانب القدم..، رقم (١٥٩)، (١/٨٢).
وابن حبان ـــ كما في الموارد: ٢٧ ـــ كتاب المغازي والسير، ١ ـــ باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام..، رقم الحديث (١٦٨٣)، ص (٤٠٦).
والحاكم في المستدرك: كتاب التاريخ، أخبار النبي ﷺ، (٢/٦١٢) وقال: هذا صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
والبيهقي في السنن: كتاب الطهارة، باب الدليل على أن الكعبين هما الناتئان في جانب القدم، (١/٧٦).
كلهم من طريق يزيد بن زياد بن أبي الجعد، عن جامع بن شداد، عن طارق.
ويزيد: صدوق. انظر: التهذيب: (١١/٣٢٨)، التقريب (٢/٣٦٤).
وجامع بن شداد، هو المحاربي، ثقة. انظر التهذيب: (٢/٥٦)، والتقريب: (١/١٢٤) .
فالحديث ـــ بهذا الإسناد ـــ حسن .

وعن شيخ من بني مالك بن كنانة ــ رأى النبي ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها، يقول: أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.

قال: وأبو جهل يحثي عليه التراب، ويقول: أيها الناس، لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات والعزى، قال: وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ.

قال[1]: قلنا: انعت لنا رسول الله ﷺ، قال: بين بردين أحمرين، مربوع، كثير اللحم، حسن الوجه، شديد سواد الشعر أبيض شديد البياض، سابغ الشعر[2].

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لبث عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم، في الموسم، ومجنة، وعكاظ، ومنازلهم من منى: من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالات ربي، فله الجنة، فلا يجد أحدا ينصره، ولا يؤويه، حتى إن

---

(١) القائل: هو أشعث بن سليم، وتأتي ترجمته .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: (٦٣/٤)، (٣٧١/٥، ٣٧٦) .
والبيهقي في الدلائل: باب قول الله عز وجل ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك..﴾ (١٨٦/٢).
من طريق أبي النضر، قال: حدثنا شيبان، عن أشعث، قال: حدثني شيخ من بني مالك.
وأبو النضر هو هاشم بن القاسم: ثقة ثبت، ومضى.
وشيبان هو ابن عبدالرحمن التميمي ــ مولاهم ــ النحوي: ثقة.
انظر: التهذيب (٣٧٣/٤)، التقريب: (٣٥٦/١) .
وأشعث هو ابن أبي الشعثاء، واسم أبي الشعثاء: سليم بن أسود، المحاربي ثقة.
انظر: التهذيب: (٣٥٥/١)، التقريب: (٧٩/١) .
فالحديث ــ بهذا الإسناد ــ صحيح .
وقد سمّت هذه الرواية الرجل: أبا جهل، خلافا للروايات الأخرى قال ابن كثير: «وقد يكون وهما، ويحتمل أن يكون تارة يكون ذا، وتارة يكون ذا، وأنهما كانا يتناوبان على إيذائه ــ ﷺ ــ». السيرة النبوية: (١٥٧/٢).

الرجل ليرحل من مضر، أو من اليمن، إلى ذوي رحمه، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله ــ عز وجل ــ يشيرون إليه بالأصابع[1]...

---

(١) رواه أحمد في المسند: (٣/٣٢٢، ٣٣٩).
وابن حبان ــ كما في الموارد: ٢٧ــ كتاب المغازي والسير، ٢ــ باب البيعة على الحرب، برقم (١٦٨٦)، ص (٤٠٨).
والبزار ــ كما في كشف الأستار: كتاب الهجرة والمغازي، باب البيعة على الحرب، برقم (١٧٥٦)، (٢/٣٠٧)،
وقال: قد رواه غير واحد عن ابن خثيم، ولا نعلمه (عن) جابر إلا بهذا الإسناد.
والحاكم في: كتاب التاريخ: (٢/٦٢٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، جامع لبيعة العقبة، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
والبيهقي في الدلائل: باب ذكر العقبة الثانية... (٢/٤٤٢).
وفي السنن: كتاب السير، باب الإذن بالهجرة، (٩/٩).
كلهم من طريق عبدالله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر.

وعبدالله بن عثمان بن خثيم: صدوق. انظر: التهذيب: (٥/٣١٤)، والتقريب: (١/٤٣٢).
وأبو الزبير هو: محمد بن مسلم بن تَدْرُس المكي: صدوق مدلسّ، لا يقبل مما عنعن فيه إلا ما رواه الليث، حيث قال: قدمت مكة، فجئت أبا الزبير، فدفع اليّ كتابين، وانقلبت بهما، ثم قلت في نفسي، لو عاودته فسألته: أسمع هذا كله عن جابر؟ فرجعت فسألته، فقال: منه ما سمعت منه، ومنه ما حُدِّثت عنه، فقلت له: أعلم لي على ما سمعت منه، فأعلم لي على هذا الذي عندي. انظر: التهذيب (٩/٤٤٠)، التقريب: (٢/٢٠٧).
وقد صرّح أبو الزبير بالتحديث في رواية البيهقي.
فالحديث ــ بهذا الإسناد ــ حسن، وستأتي رواية أخرى شبيهة بهذه عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر.

وهذه القصص تكشف عن الجهد البالغ الذي كانت قريش تبذله في تحذير الناس من الدعوة ومن صاحبها، وهو جهد فردي وجماعي، يتولاه الكبار كأبي جهل وأبي لهب، على مستوى القبائل كلها، وتتولاه كل قبيله فيما يتعلق بأفرادها.

وما أشقها على النفس ! .

محمد ﷺ المكلف بتبليغ دعوة الله ــ يغشى الناس في أسواقهم ومنتدياتهم ويتخلل منازل الحَجيج بمنى، يعرض ما عنده عليهم ــ بالكلمة الطيبة، ولا يكره أحدا على شيء سوى أن يدعوهم إلى كلمة التوحيد، وإلى نصرته وحمايته، وهو وحيد غريب، فينبري له أقرب الناس إليه، يطارده أمام الملأ المتقصفين عليه، الناظرين إليه، يرميه بالحجارة، حتى يدمي عقبيه، وعرقوبيه! ويضرب بالتراب على رأسه، ووجهه وصدره! ويصفه بالكذب وهو الذي لم تؤثر عنه كذبة واحدة طيلة عمره! ويحرض الناس على مباعدته، لأنه يدعوهم إلى ترك اللات، والعزى، وما عليه الآباء، والأجداد، وترك حلفائهم من الجن من بني مالك بن أقيش!! إن هذا لهو البلاء المبين!.

وإن هذه لهي الغربة الحقيقة، تحكم خناقها على الداعية الأول ﷺ، ثم على من معه من القلة المستضعفة بمكة، وما حولها، بأيدي الأقربين قبل الأباعد!، الأقربين الذين كان يخاطبهم ﷺ، أن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة بترك إيذائه إذ لم يستجيبوا لدعوته، وهم كانوا أولى الناس بقبول الدعوة، وحمايتها.

﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربىٰ** ﴾[1].

ولم يكن بطن من بطون قريش، إلا وبينهم وبين الرسول الله ﷺ قرابة، فكان واسط النسب فيهم، ليس من حي منهم إلا قد ولّدوه.

فلما كذبوه وأبوا عليه التمس منهم أن يحفظوا قرابته فيهم، فلا يكون غيرهم

---

(١) سورة الشورى: آية ٢٣ .

من العرب أولى بحفظه، ونصرته، وحمايته.

عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله: ﴿ .. **إلا المودة في القربىٰ** ﴾ فقال سعيد بن جبير: «قربى آل محمد ﷺ فقال ابن عباس: عجلتَ. إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة»[1].

فلم تستجب قريش لهذا، ولا لذاك، ولم ترض أن يجد الرسول ﷺ من يؤويه، ويحميه، من القبائل الأخرى.

وقد استبد بطغاتها وهم خيل لهم أن بإمكانهم أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وأن يحجبوا الشمس بأيديهم الصغيرة. وأن يئدوا هذه الدعوة في مهدها، ولكن هيهات!!.

---

(١) رواه البخاري في: ٦٥ ــ كتاب التفسير، ٤٢ ــ سورة حم عسق، ١ ــ باب قوله: ﴿إلا المودة في القربى﴾، (٦/٣٧)، وفي: ٦١ ــ كتاب المناقب، ١ ــ باب (٤/١٥٤).

والترمذي في: ٤٨ ــ كتاب التفسير، ٤٤ ــ باب : من سورة حم عسق، رقم (٣٢٥١)، وقال: حسن صحيح، (٥/٣٧٧).

والإمام أحمد في مسنده: (١/٢٢٩).

والنسائي في الكبرى في التفسير كما في التحفة: (٥/١٨) .

والطبري في التفسير، تفسير سورة الشورى: (٢٥/٢٣) .

والحاكم في مستدركه، من وجه آخر ــ كتاب التفسير ــ تفسير سورة حم عسق: (٢/٤٤٤).

وعزاه الحاكم في مستدركه ــ في الموضع نفسه، ثم السيوطي في الدر المنثور: (٧/٣٤٥) إلى مسلم أيضا، وخالفهما المزي، حيث لم يعزُه إلى مسلم في مسند طاوس عن ابن عباس من تحفة الأشراف: (٥/٣-٣١)، وكذلك ابن كثير في التفسير: (٤/١١٢) حيث قال: انفرد به البخاري، وقد راجعت مظانه في مسلم فلم أعثر عليه، والله أعلم.

﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصرون وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾[1].

لقد عاش ﷺ تلك السنين العجاف، البداية المحرقة التي كانت ــ بإذن الله ــ سببا للنهاية المشرقة.

سادسا: وقوع المؤمنين تحت سلطة الكفار من قومهم :

وأمام ذلك الكيد الجاهلي الدائب كان يقف الرسول ﷺ أعزل من كل سلاح إلا سلاح الإيمان بالله، والثقة بوعده، أعزل من كل قوة إلا قوة العزيمة، والإصرار، والمضاء، والتصميم.

ولم يكن يملك ﷺ أن يدفع عن أتباعه المستضعفين شيئا من العذاب الذي ينزله بهم قومهم دون رحمة، ولا هوادة، إذ كان أتباعه ــ مع قلتهم ــ أفرادا متفرقين من قبائل شتى، فكانوا يشاركونه ــ ﷺ ــ غربته، ويقاسمونه مصاعبها، فلا يملكون ــ في كثير من الأحيان ــ أن يعلنوا إسلامهم، فضلا عن أن يدعوا إليه فكانوا غرباء في قبائلهم، وبين قومهم، وكان قائدهم ــ ﷺ ــ هو الآخر غريبا في قبيلته، وبين قومه.

ذلك أنه لم يكن للإيمان موطن يفيء إليه، ولا للمؤمنين قبيلة تدفع عنهم.

فكان من أسلم يبقى في قومه ــ خاصة إذا لم يكن في مكة ــ مستخفيا ينتظر ظهور أمر النبي ﷺ، واستقراره في مهجر، كما في قصة عمرو بن عبسة رضي الله عنه، وسيأتي تفصيلها في موضعها ــ إن شاء الله.

وقد وجد النبي ﷺ نفسه مضطرا إزاء إيذاء المشركين، واضطهادهم لأتباعه ــ خاصة من المكيين ــ أن يبحث عن حل مؤقت يحمى أتباعه من الفتنة والتنكيل ــ وكانت الحبشة آنذاك تتمتع بحكم عادل، في ظل مَلِكٍ لا يسمح

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٧١-١٧٣ .

بالظلم، ولا يقره ــ وهو النجاشي .

ومن هنا جاءت الهجرة إلى الحبشة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم أعقل أبويَّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار: بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة، حتى بلغ بَرْك الغِماد[1]، لقيه ابن الدَّغِنة[2] ــ وهو سيد القارَة ــ فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي! فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخْرج ولا يُخْرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع، وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله، ولا يخرج، أتخرجون رجلا يُكسِب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا، بذلك، ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر... الحديث[3].

---

(١) بفتح الباء الموحدة وسكون الراء، والغماد ــ بكسر الغين المعجمة وتخفيف الميم، وهو موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن، الفتح (٢٣٢/٧).

(٢) بفتح أوله، وكسر ثانية، وتخفيف النون ــ عند الرواة ، وضبط على غير هذا واختلف في اسمه، فقيل: الحارث بن يزيد، وقيل مالك، وهو سيد القارة ــ بتخفيف الراء ــ وهي قبيلة مشهورة من مضر وكانوا حلفاء لبني زهرة.. انظر: الفتح (٢٣٣/٧).

(٣) رواه البخاري في: ٦٣ ــ مناقب الأنصار، ٤٥ ــ باب هجرة النبي ﷺ، وأصحابه، إلى المدينة: (٢٥٤/٤)، وفي: ٨ ــ كتاب الصلاة ٨٦ ــ باب المسجد يكون في الطريق... (١٢٢/١) وفي: ٣٩ ــ الكفالة في القرض والديون، ٤ ــ باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ.. فذكر طرفه، ثم ساقه تعليقا: (٥٨/٣). =

وإذاً، فإن أبا بكر ــ وهو من هو كما يدل على ذلك موقف ابن الدغنة، واستجابة قريش له ــ يصرح بأن قومه أخرجوه، فهو يريد أن يسيح في أرض الله ــ ولم يصرح بمقصده ــ وأن يعبد ربه.

وللمكانة التي كانت لأبي بكر في نفوس أهل مكة، كان إيذاؤهم له من نوع خاص، وكان على شاكلته عدد من الذين هاجروا فعلا إلى أرض الحبشية كما يتضح من استعراض اسمائهم[1].

ولكن غالبيتهم كانوا يواجهون الأذى الحسي بأنواعه، والضرب والتنكيل، والفتنة، ولهذا أمرهم ــ ﷺ ــ بالهجرة إلى الحبشة:

عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان ﷺ في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه شيء مما يكره، مما ينال أصحابه.

فقال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها أرسالا، حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أَمِنّا على ديننا ولم نخش منه ظلما[2]...

= ورواه عبدالرزاق في المغازي، من هاجر إلى الحبشة، رقم (٩٧٤٣)، (٥/٣٨٥).

(١) كجعفر بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وغيرهم .. انظر: سيرة ابن هشام: (١/٣٤٤-٣٥٣).

(٢) رواها ابن اسحق في السير والمغازي: ص (٢١٣) حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبدالرحمن.. عن أم سلمة.
وهو في سيرة ابن هشام ــ إرسال قريش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها، مسندا: (١/٣٥٧).

=

ولا شك أن بعث الرسول ﷺ أصحابه إلى الحبشة هو نوع من الاستفادة من بعض الظروف والفرص السياسية في تحقيق مكاسب للدعوة وفي تجاوز بعض الصعوبات التي تواجه أصحابها.

ولكن اضطرار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هذا الأمر كان ناتجا عن عدم وجود مستقر للدعوة يأوي إليه المهاجرون، فكان اغتراب المهاجرين الأولين اغترابا حسيا مع تمتعهم بالحرية الدينية، وسلامتهم من الأذى والاضطهاد... هو الحل المناسب لتلك المرحلة حتى يأذن الله بإعزاز الاسلام وقيام دولته.

لهذه الأسباب ولغيرها ـــ واجه الرسول ﷺ وأصحابه ودعوته غربة شديدة مستحكمة في مطلع الدعوة، تمثلت في مظاهر شتى، وحفظت لنا الروايات والأخبار الصحيحة منها الكثير الكثير...

وهذا ما سيتحدث عنه الفصل الثاني المتعلق بمظاهر الغربة، ونماذج لها.

= ورواه البيهقي: في سننه، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة: (٩/٩).

والزهري: إمام متفق على جلالته وإتقانه. انظر: التهذيب: (٤٤٥/٩) والتقريب: (٢٠٧/٢).

وأبو بكر بن عبدالرحمن هو ابن الحارث بن هشام المخزومي، مدني تابعي امام ثقة، انظر: التهذيب: (٣٠/١٢)، التقريب: (٣٩٨/٢).

فالإسناد حسن لحال ابن اسحق ـــ كما سبق ـــ .

ومن طريقه رواه الإمام أحمد في المسند: (٢٩٠/٥) .



الفصل الثاني
مظاهر الغربة الأولى



الفصل الثاني

مظاهر الغربة الأولى

إن استقصاء الأحداث والوقائع، والمظاهر، التي تمثلت فيها غربة المسلمين الأوائل منذ فجر الدعوة، وإلى أن أذن الله بنصرها، وقيام دولتها، أمر يطول ولكن يمكن الاقتصار على نماذج، وأمثلة، لصور الغربة العامة التي تمثلت فيها وأشير إلى أن الغربة تكون على نوعين :

الأول : غربة خاصة، وأعني بها غربة بعض المؤمنين، في بعض البلاد، أو المواضع لأسباب وظروف خاصة .

وهذه الغربة لا يمكن القول بأنها زالت أو تزول، بل هي باقية حتى بعد استقرار شأن الإسلام وقيام دولته، لأن لها أسبابها الخاصة، فيمكن أن توجد بوجود أسبابها .

ومن صور هذه الغربة ومظاهرها الواضحة بقاء النجاشي (أصحمة)[1] ملك الحبشة الذي آوى المسلمين في بلاده، وعدم هجرته إلى الله ورسوله، مع أن من الثابت أنه آمن بالله، وبالرسول ﷺ، وشهد شهادة الحق، وعرف أن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام هو النبي الذي بشر به عيسى عليه السلام .

وقد مات النجاشي في بلده دون أن تكتحل عينه، وتقر برؤية النبي ﷺ ودون أن ينال شرف الصحبة ـ الذي هو منقبة جليلة لا يخفى قدرها ـ .

وقد نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، وصلى عليه، لأنه غريب مؤمن مات في دار غربة مشركة، وما ثم من يصلي عليه من المسلمين في بلده :

---

(١) هو: أصحمة بن أبجر، واسمه بالعربية: عطية، والنجاشي لقب له، مات سنة تسع وقيل قبل ذلك .

انظر: الإصابة: (١/١٧٧) .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ « **نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى، فصف بهم، وكبر أربعاً** »[1] .

---

(١) رواه البخاري في: ٢٣ـ كتاب الجنائز، ٤ ـ باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه: ٧١/٢،

٥٥ ـ باب الصفوف على الجنازة: (٨٨/٢) .

٦١ ـ باب الصلاة على الجنائز بالمصلى (٩٠/٢) .

وفي: ٦٣ ـ مناقب الأنصار، ٣٨ ـ باب موت النجاشي: (٢٤٦/٤) .

ومسلم في: ١١ ـ كتاب الجنائز، ٢٢ ـ باب في التكبير على الجنازة، رقم (٦٢ـ٦٣)، (٦٥٦/٢) .

وأبو داود في: ١٥ ـ كتاب الجنائز، ٦٢ ـ باب في الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك، رقم (٣٢٠٤)، (٥٤١/٣) .

والترمذي في: ٨ ـ كتاب الجنائز، ٣٧ ـ باب ما جاء في التكبير على الجنازة، رقم (١٠٢٢)، (٣٣٣/٣) .

والنسائي في: ٢٠ ـ كتاب الجنائز، ٢٧ ـ باب النعي، (٢٦/٤) .

٧٢ ـ الصفوف على الجنازة: (٧٠/٤) .

٧٦ ـ عدد التكبير على الجنازة: (٧٢/٤) .

وابن ماجه في: ٦ ـ كتاب الجنائز، ٣٣ ـ باب ما جاء في الصلاة على النجاشي، رقم (١٥٣٤): (٤٩٠/١) .

ومالك في الموطأ: ١٦ ـ كتاب الجنائز، ٥ ـ باب التكبير على الجنائز، رقم (١٤): (٢٢٦/١) .

وأحمد في مسنده: (٢٤١/٢، ٢٨١، ٢٨٩، ٣٤٨، ٤٣٩، ٤٧٩، ٥٢٩) .

والحديث ورد عن جابر بن عبدالله في البخاري: (٨٨/٢)، (٢٤٦/٤) .

ومسلم: (٦٥٧/٢)، والنسائي: (٦٩/٤، ٧٠)، وأحمد: (٢٩٥/٣، ٣١٩، ٣٥٥، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٩، ٤٠٠)، والخطيب في الأسماء المبهمة، حديث أصحمة: ص (٢١) .

وعن عمران بن حصين في: مسلم: (٦٥٧/٢)، والترمذي: (٣٤٨/٣)، والنسائي: (٧٠/٤)، وابن ماجه: (٤٩١/١)، وأحمد: (٤٣١/٤، ٤٣٣، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٦) .

وابن عباس في المسند: (٢٥٤/١) .

=

وقد أمر النبي ﷺ أصحابه بالاستغفار له، فقال: «**استغفروا لأخيكم، وقال: إنه مات في بلد غير بلدكم ولهذا صلى عليه صلاة الغائب**»[1] .

وهذا يمثل جانباً من الوفاء الكبير الذي حفظه الرسول ﷺ والمؤمنون للنجاشي، حيث آمن، وثبت على إيمانه رغم الضغوط من حوله، واستقبل المؤمنين، وأكرم وفادتهم، وأحسن مثواهم .

ـ ومن مظاهرها أيضاً ـ بقاء بعض المؤمنين المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلا، وتأخر هجرتهم إلى النبي ﷺ كالوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ حين يرفع رأسه يقول: «**سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، يدعو لرجال فيسميهم بأسمائهم فيقول: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة ابن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم أشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، وأهل المشرق يومئذ من مضر مخالفون له**»[2] .

= وابن عمر في ابن ماجه: (١/٢٥٤) .

وجرير بن عبدالله في المسند: (٤/٣٦٠ـ٣٦٣) .

ومجمع بن جارية الأنصاري في ابن ماجة: (١/٤٩١)، والمسند: (٤/٦٤)، (٥/٣٧٦) .

وحذيفة بن أسيد الغفاري في المسند: (٤/٧)، ثلاثة مواضع.. وغيرهم .

وهذه الروايات الصحيحة المتكاثرة تؤكد إسلام النجاشي ومتابعته للرسول ـ ﷺ ـ فلم يكن ليصلي عليه ويأمر بالاستغفار له ويسميه أخاً لولا أنه مسلم، كيف وقد نُهي ﷺ، عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى .

ففيها رد صريح على من نفى إسلامه، أو تشكك فيه، وهي ـ كما رأيت ـ في درجة عليا من الثبوت والله أعلم .

(١) انظر: من المواضع السابقة: البخاري: (٢/٢/٩٠)، وانظر ـ أيضاً ـ: معالم السنن للخطابي: (١/٣١٠) .

(٢) رواه البخاري في: ١٠ ـ كتاب الأذان؛ ١٢٨ ـ باب يهوى بالتكبير حين يسجد: (١/١٩٥). =

فلقد كان هؤلاء النفر الثلاثة مع غيرهم من المؤمنين المستضعفين الذين حبستهم قريش، ومنعتهم من الهجرة إلى الله، وإلى رسوله ﷺ فكانوا يعانون الغربة، بل والفتنة عن دينهم حتى افتتن منهم من افتتن، ثم تاب الله عليهم[1] .

= ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ٩٨ ـ باب الدعاء على المشركين (٢٣٣/٣) .
٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ١٩ ـ باب قول الله تعالى: لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين: (١٢٢/٤) .
٦٥ ـ كتاب التفسير، ٩ ـ باب ليس لك من الأمر شيء (١٧١/٥) .
٢١ ـ باب قوله: فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم: (١٨٣/٥) .
٧٨ ـ كتاب الأدب، ١١٠ ـ باب تسمية الوليد (١١٨/٧)، ٨٠ ـ كتاب الدعوات، ٥٨ ـ باب الدعاء على المشركين: (١٦٥/٧) .
ومسلم في: ٥ ـ كتاب المساجد، ٥٤ ـ باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، رقم (٢٩٤ـ٢٩٥)، (٤٦٦/١ ـ٤٦٨) .
وأبو داود: ٢ ـ كتاب الصلاة (تفريع أبواب الوتر)، ٣٤٥ ـ باب القنوت في الصلوات، رقم (١٤٤٢)، (١٤٢/٢) .
والنسائي في: ١١ ـ كتاب الافتتاح، باب القنوت في صلاة الصبح (٢٠١/٢ـ٢٠٢) .
وابن ماجه في: ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة، ١٤٥ ـ باب ما جاء في القنوت في صلاة الفجر، رقم (١٢٤٤): (٣٩٤/١) .
والدارمي في: ٢ ـ كتاب الصلاة، ٢١٦ ـ باب القنوت بعد الركوع رقم (١٦٠٣): (٣١٢/١) .
والإمام أحمد في: (٢٣٩/٢، ٢٥٥، ٢٧١، ٣٩٦، ٤١٨، ٤٧٠، ٥٠٢، ٥٢١) .
وابن خزيمة في صحيحه ـ كتاب الصلاة ـ ١٦١ ـ باب القنوت بعد رفع الرأس من الركوع.. رقم (٦١٥)، (٣١١/١) .
١٦٣ ـ باب القنوت في صلاة العشاء الأخيرة، رقم (٦١٧): (٣١٢/١) .
١٦٥ ـ باب ذكر البيان أن النبي ﷺ لم يكن يقنت دهره كله، رقم (٦١٩) .
١٦٦ ـ باب ترك القنوت عند زوال الحادثة.. رقم (٦٢١) .
والبيهقي في: كتاب الصلاة، باب القنوت في الصلاة عند نزول نازلة (١٩٧/٢ـ١٩٨) .

(١) انظر: تفصيل قصة احتباس المستضعفين، واستدراج المشركين لعياش ابن أبي ربيعة بعدما هاجر إلى المدينة حتى أوثقوه وردّوه إلى مكة في: =

فغربة هؤلاء القوم، ومقامهم بين ظهراني المشركين، وغربة النجاشي في الحبشة، وما شاكل هذا وذاك، هي غربة خاصة، لأنها لا تعدو أن تكون حالات فردية يضطر إليها المؤمنون: إما من قبيل تحصيل مصلحة راجحة لا تحصل إلا بذلك، أو من قبيل دفع مفسدة راجحة لا تندفع إلا بذلك، وإما من قبيل الإلجاء والإكراه والاضطرار .

ومن هذه الأمثلة يتضح أن هذه الغربة يمكن أن تحدث في كل وقت، فقد حدثت لبعض المؤمنين حتى بعد الهجرة، وبعد التمكين .

أما النوع الثاني : من الغربة، فهو الغربة العامة، وهي التي يتضح فيها بصورة أشمل معنى «غربة الإسلام»، حيث كان المسلمون غرباء بدينهم، يلقون ـ جميعاً ـ البطش، والتنكيل من المشركين دون أن يجدوا الحماية، ودون أن يستطيعوا الدفع عن أنفسهم ـ كما حدث للمسلمين قبل هجرتهم إلى المدينة .

وهذه كانت الغربة القاسية التي عاناها كل مسلم؛ بدءاً بالرسول ﷺ، ثم كبار أصحابه من ذوي المكانة في قومهم، ثم المستضعفين الذين كانت تصب عليهم سياط العذاب صباً، ويصهرون في رمضاء مكة الحارة، وتلقى عليهم الصخرات العظام، وتكوى جلودهم بالنار، ويقيد بعضهم بقيد، ثم يسلم للصبيان يجرونه ويعبثون به ..!

وقد اتخذت هذه الغربة مظاهر شتى منها :

١ ـ الاستسرار بالدعوة :

فقد مكث الرسول ﷺ منذ أنزل الله عليه الوحي، إلى أن بادأ قومه بالدعوة وأعلنها ثلاث سنين يدعو من يثق به سراً، ويتصل بأتباعه سراً لمواصلة الدعوة وتثبيتها، حيث لم يأمره الله عز وجل، بإعلان الدعوة والصدع بها[1] .

= سيرة ابن هشام: (٢/١١٨ـ١٢٠) .
فتح الباري: (٨/٢٢٦ـ٢٢٧) .
سيرة ابن كثير: (٢/٢١٩ـ٢٢٠) .
وقصة عياش بن ربيعة رواها ابن إسحاق قال: حدثني نافع عن عبدالله بن عمر عن عمر، وهذا إسناد حسن .

(١) انظر: سيرة ابن هشام: (١/٢٨٠) .

وسرية الدعوة في أول أمرها كانت لحكمة ربانية لتحقيق التدرج ـ بالنسبة للداعي ـ بحيث لا يكلف بالصدع والإعلان من أول يوم، ولو كلف ﷺ بذلك لكان فيه من المشقة والعناء الشيء الكثير .

كما أن الداعية استطاع خلال هذه الفترة أن يستقطب عدداً من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وخاصة الذين يتمكن من مسارتهم، وعرض الدعوة عليهم، وهؤلاء كانوا عوناً له على توسيع نطاق الدعوة، وتحقيق انتصارات ومكاسب جديدة لها في حدود السرية القائمة، ومن ثم فهم ومن آمن على يديهم كانوا خير ردء وسند للرسول ﷺ عند جهره بالدعوة ـ بعد عون الله له وحفظه ـ .

ولكن مظهر الغربة كان ملمحاً واضحاً كل الوضوح في هذه السمة التي لازمت الدعوة ثلاث سنين ـ على الأقل ـ .

فالسرية إنما كانت لأن الدعوة في بدايتها، والبداية تعني الغربة، وعدم الإلف، خاصة حين نتذكر مدى البون الشاسع بين الصورة التي يريدها الإسلام، والواقع الذي تعيشه الجاهلية .

وتلك السرية اقتضت صعوبة تحرك الداعية في دعوته، فهو لا يخاطب إلا من يأمن شره، ويثق به، وهذا يعني أن الدعوة تسير بخطوات بطيئة حذرة، كما اقتضت صعوبة المواظبة على تلقي مطالب الدعوة من مصدرها، وصعوبة تنفيذها، إذ كان الداخل في هذا الدين ملزماً منذ البداية بالصلاة، ودراسة ما تيسر من القرآن ـ مثلاً ـ ولم يكن يستطيع أن يصلي بين ظهراني قومه، ولا أن يقرأ القرآن، فكان المسلمون يختفون في الشعاب والأودية إذا أرادوا الصلاة .

ويتصور المسلم ـ اليوم ـ على رغم حواجز الزمان والمكان ـ أولئك النفر يخلصون من أهل مكة نجيا، ويتسللون بخفة وحذر، ويذهبون بعيداً عن الناس حتى إذا وجدوا مطمئناً من الأرض تلفتوا يمنة ويسرة، ثم كبّروا..! إنها الدعوة الجديدة الغريبة ـ رغم أنها الحق ـ وإنهم الأتباع الصادقون الغرباء، عرفوا ما تخفيه لهم عشيرتهم، فآثروا الاستخفاء، وصبروا على مصاعبه حيناً من الدهر، حتى تنمو الدعوة ويصلب عودها..، وهم مع ذلك في انتظار التوجيهات الربانية التي لو طلبت منهم أن يصرخوا بدعوتهم في نادي قريش لما ترددوا...!

عن عفيّف بن عمرو[1] رضي الله عنه قال: كنت امرءاً تاجراً، وكنت صديقاً للعباس بن عبد المطلب في الجاهلية، فقدمت لتجارة فنزلت على العباس بن عبدالمطلب بمنى، فجاء رجل فنظر إلى الشمس حين مالت فقام يصلي ثم جاءت امرأة فقامت تصلي، ثم جاء غلام حين راهق الحلم فقام يصلي، فقلت للعباس: من هذا؟ فقال: هذا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ابن أخي يزعم أنه نبي، ولم يتابعه على أمره غير هذه المرأة، وهذا الغلام، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد امرأته، وهذا الغلام ابن عمه: علي بن أبي طالب، قال عفيف الكندي ـ وأسلم وحسن إسلامه ـ: لوددت أني كنت أسلمت يومئذ، فيكون لي ربع الإسلام[2] !.

---

(١) هو: عفيّف ـ بالتصغير، بضم العين المهملة، وفتح الفاء الموحدة، والياء المشددة ثم فاء ـ هذا هو الراجح في ضبط اسمه ـ ابن عمرو وقيل ابن قيس .
ولقب عفيفاً لقوله:
وقالت لي: هلمّ إلى التصابي.. فقلت: عففت عما تعلبينا
وهو صحابي: انظر: الإصابة: (٧/١٧ـ١٨) رقم الترجمة (٥٥٧٩) .
تهذيب التهذيب: (٧/٢٣٦) .
الاستيعاب: (٩/٨٢ـ٨٧)، رقم الترجمة (٢٠٣٦) .
مسند أحمد ـ بتحقيق شاكر: (٣/٢١٨ـ٢٢٣) .

(٢) الحديث رواه الحاكم في مستدركه ـ كتاب معرفة الصحابة ـ خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وله شاهد معتبر من أولاد عفيف بن عمرو .
وقال الذهبي: صحيح: (٣/١٨٣) .
ورواه ابن إسحاق في السير: ـ إسلام علي ـ رضي الله عنه: ص (١٣٧ـ١٣٨) .
والإمام أحمد في المسند: (١/٢٠٩) .
والبخاري في التاريخ الكبير: (٧/٧٤ـ٧٥)، في ترجمة عفيف، رقمها (٣٤١) .
والطبري في التاريخ: (٢/٣١١، ٣١٢)، فيمن اتبع النبي ـ ﷺ ـ وآمن به بعد خديجة .
والعقيلي في الضعفاء الكبير، في ترجمة إسماعيل بن إياس بن عفيف، رقمها (٨٧) ـ (١/٨٠) .

=

....

= والطبراني في المعجم الكبير: في ترجمة عفيف: (١٨/١٠٠) .
وابن عدي في الكامل، في ترجمة إياس بن عفيف: (١/٤١٠).
والبيهقي في الدلائل، في باب من تقدم إسلامه من الصحابة: (٢/١٦٢).
وابن عبدالبر في الاستيعاب في ترجمة عفيف، ورقمها (٢٠٣٦): (٩/٨٣-٨٥)، وفي ترجمة علي بن أبي طالب، ورقمها (١٨٥٥): (٨/١٤٣-١٤٥).
وابن سيد الناس في عيون الأثر بسنده، في ذكر أول الناس إيمانا: (١/٩٣).
ونسبة ابن حجر في الإصابة للبغوي وابن أبي خيثمة وابن منده وصاحب الغيلانيات: (٧/١٨).
ومدارهم على يحيى بن الأشعث، أو ابن أبي الأشعث ـــ الكندي من أهل الكوفة، عن إسماعيل بن إياس بن عفيف، عن أبيه، عن جده عفيف.
ويحيى ترجمه البخاري وابن أبي حاتم فلم يذكراه بجرح ولا تعديل، وذكره ابن حبان في الثقات.. انظر: التاريخ الكبير: (٨/٢٦١)، الجرح والتعديل: (٩/١٢٩)، الثقات: (٩/٢٥١). تعجيل المنفعة ص (٤٣٨)، لسان الميزان: (٦/٢٤١).
وإسماعيل بن إياس قال فيه البخاري: في حديثه نظر، وهي من أشد ألفاظ الجرح عنده، وذكره ابن أبي حاتم وقال: روى عن أبيه، روى عنه يحيى.. سمعت أبي وأبا زرعة يقولان ذلك.
قال أبو زرعة: «يعد من المدنيين»، وذكره ابن حبان في الثقات وقال ابن عدي: ليس هو بالمعروف. انظر: التاريخ الكبير: (١/٣٤٥)، الجرح والتعديل: (٢/١٥٩)، الثقات: (٦/٣٥)، الكامل: (١/٣٠٥)، اللسان: (١/٣٩٥).
وأبوه إياس، قال البخاري: فيه نظر، وذكره ابن أبي حاتم وقال: يعد في الحجازيين، سمعت أبي وأبا زرعة يقولان ذلك ولم يذكر فيه عنهما جرحا ولا تعديلا، وذكره ابن حبان في الثقات. انظر: التاريخ الكبير: (١/٤٤١)، الجرح والتعديل: (٢/٢٨٠)، الثقات: (٤/٣٤)، الكامل: (١/٤١٠)، اللسان: (١/٤٧٥)، التعجيل ص (٤٤).
فهذا الإسناد ضعيف جدا .
ولكن جاء الحديث من طريق آخر :
وهي رواية سعيد بن خثيم عن أسد بن عبدالله البجلي عن يحيى بن عفيف عن أبيه =

....

= عفيف.

وقد وردت في:

خصائص علي بن أبي طالب: للنسائي برقم (٦) ص (٢٣) .

ومسند أبي يعلى الموصلي ــ مسند عفيفْ الكندي، رقم الحديث: (١٥٤٧)، (١١٧/٣).

والمفاريد عن رسول الله ﷺ ــ له أيضا ــ عفيف الكندي، رقمه (٢٣)، رقم الحديث (٥٩) ص (٦٠).

والطبقات لابن سعد، في تسمية النساء المسلمات والمهاجرات من قريش...، (١٧/٨-١٨).

وتاريخ الطبري، فيمن اتبع النبي ﷺ، وآمن به بعد خديجة..، (٣١١/٢).

ومعجم الطبراني: (١٠١/١٨) .

والضعفاء الكبير للعقيلي، في ترجمة أسد بن عبدالله البجلي الكوفي، رقمها (٩)، (٢٧/١).

والكامل في ضعفاء الرجال، في ترجمة أسد..، (٣٩٠/١) .

والاستيعاب لابن عبدالبر، في ترجمة عفيف، رقمها (٢٠٣٦): (٨٥/٩-٨٧).

وأسد الغابة لابن الأثير ــ بسنده ــ في ترجمة عفيف، رقمها (٣٦٩٦)، (٤٨/٤-٤٩).

وتاريخ دمشق ــ كما في تهذيبه لابن بدران، في ترجمة أسد بن عبدالله: (٤٦١/٢).

ونسبه ابن حجر في الإصابة ــ أيضا للبغوي ...، (١٨/٧) .

ورجال هذه الطريق هم :

سعيد بن خثيم الهلالي الكوفي: وثقه يحيى بن معين، وقال أبو زرعة: لا بأس به، ونحوه النسائي.

وقال ابن حجر: صدوق رمي بالتشيع له أغاليط، انظر: تهذيب الكمال: (٤٨٥/١)، التقريب: (٢٩٤/١).

أسد بن عبدالله البجلي: ذكره البخاري في التاريخ الكبير قال: وأثنى عليه سعيد بن خثيم خيرا.. =

....

= وذكره ابن عدي والعقيلي في الضعفاء، وذكره ابن حبان في الثقات وكان جوادا ممدحا وشجاعا مقداما، سمع الحديث وسمع منه الناس، كما يقول ابن عساكر، وقال الذهبي: صويلح.

انظر: التاريخ الكبير: (٢/٥٠)، الكامل: (١/٣٩٠)، الضعفاء الكبير: (١/٢٧)، الثقات (٤/٥٧)، تهذيب تاريخ دمشق (٢/٤٦١)، الكاشف: (١/٦٧).

يحيى بن عفيف: ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي: لا يعرف، تفرد عنه أسد بن عبدالله القسري، الثقات: (٥/٥٢١)، الميزان: (٤/٣٩٦)، الديوان: ص (٣٣٩).

وهذا الإسناد أيضا ضعيف لحال يحيى، ولكن إسناده أمثل من الأول بكثير.

وللحديث شاهد :

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ــ قال: أول شيء علمت من أمر رسول الله ﷺ قدمت مكة في عمومة لي، فأرشدنا على العباس بن عبدالمطلب، فانتهينا إليه، وهو جالس إلى زمزم، فجلسنا إليه، فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا، أبيض تعلوه حمرة له وفرة جعد إلى أنصاف أذنيه، أشم، أقنى، أذلف، براق الثنايا، أدعج العينين، كث اللحية، دقيق المسربة، شثن الكفين، والقدمين، عليه ثوبان أبيضان، كأنه القمر ليلة البدر، يمشي على يمينه غلام أمرد، حسن الوجه، مراهق أو محتلم، تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها، حتى قصد نحو الحجر، فاستلمه، ثم استلم الغلام، ثم استلمت المرأة، ثم طاف بالبيت سبعا، والغلام والمرأة يطوفان معه، ثم استلم الركن، ورفع يديه وكبر،

وقام الغلام عن يمينه، ورفع يديه، وقامت المرأة خلفهما، فرفعت يديها، وكبرت... الحديث.

رواه الطبراني في الكبير، في مسند عبدالله بن مسعود: (١٠/٢٢٦) رقم الحديث (١٠٣٩٧):

وفي إسناده:

يحيى بن حاتم، لم أجد من ترجمه، وقال الهيثمي: لم أعرفه. المجمع: (٩/٢٢٢).

وبشر بن مهران، أو بشير قال ابن أبي حاتم: سمع منه أبي أيام الأنصاري، ترك حديثه وأمرني ألا أقرأ عليه من حديثه، وذكره ابن حبان في الثقات. =

يقول ابن إسحق: «وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب، مستخفيا، من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها...»[1].

إنها الصورة الطَّبَعية لدعوة ناشئة، أتباعها لا يستكملون أصابع اليد الواحدة، النبي وزوجه، وابن عمه الناشيء في حجره!.

وقد كان عمه العباس رضي الله عنه من القلائل الذين أثبتت الأحداث ولاءهم للدعوة، وعطفهم على أصحابها حتى قبل أن يدخلوا فيها... دون أن يدرك المشركون هذا الولاء وهذا العطف إدراكا واضحا ــ خاصة في بداية الأمر ــ.

ولهذا كان النبي ﷺ لا يتحرج أن يطلعه على الأشياء المهمة الخطيرة في

= انظر: الجرح والتعديل: (٣٦٧/٢، ٣٧٩)، الثقات: (١٤٠/٨) الميزان: (٣٢٥/١)، اللسان: (٣٤/٢).

فهذا الإسناد أيضا ضعيف .

ولعل الحديث ــ بمجموع الطريقين الأخيرين حسنا لغيره ــ إن شاء الله ــ، أما الطريق الأولى فهي غير منجبرة لشدة ضعفها.

وقد قال الإمام ابن عبدالبر في الاستيعاب: (٨٣/٩) «حديث حسن جدا»، وإن كان يحتمل أنه قصد الحسن المعنوي، لأنه قد يقول ذلك في أحاديث يذكر عللها، مثل قوله: «حديث حسن جدا، ولكن ليس له إسناد قوي»، جامع بيان العلم: (٥٥/١).

والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وسبق ذكر ذلك.

وقال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات: المجمع: (١٠٣/٩،٢٢٣).

وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند: (٣١٨/٣) التعليق على الحديث رقم (١٧٨٧).

(١) سيرة ابن هشام: (٢٦٣/١) .

وهذا الحديث المرسل يشهد له ما سبق من حديث عفيف الكندي، وحديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنهما.

حركة الدعوة، بل أن يشركه فيها، كما حدث في بيعة العقبة.

إن الدعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لإقامة الحجة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور الإسلام والتوحيد.

ونزلت لتحكم الحياة البشرية، وتهيمن عليها في جميع شؤونها، وتكون ميزانا عدلا وقسطاسا مستقيما يحكم على الأوضاع والأعمال والآراء والنظريات والأشخاص بالحكم العدل النابع من وحي الله وتنزيله.

ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة وميدانها منذ خطواتها الأولى، فحين كانت الدعوة محصورة بين شعاب مكة وجبالها، تعاني آلام البداية والغربة ــ وهي آلام تذيب الفؤاد ــ كان القرآن ينزل ببيان شمول الدعوة وعالميتها:

﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾[1].

﴿ **وما هو إلا ذكر للعالمين** ﴾[2].

﴿ **إن هو إلا ذكرى للعالمين** ﴾[3].

وهذا الذكر ــ أو الذكرى ــ يقصد به مخاطبة هؤلاء الناس بالدعوة وتوجيهها إليهم، والإبانة عن مضمونها بينهم، بحيث يتمكنون من معرفتها على حقيقتها، ثم يقبلونها أو يردونها عن علم وإدراك.

ولذلك جاءت آيات أُخر تخص الذكر والذكرى للمؤمنين، أو للعابدين أو للمتقين، أو للمنيبين، أو لأصحاب القلوب...، إذ إن هؤلاء هم الذين ذُكروا

---

(١) سورة يوسف: آية ١٠٤، وسوة ص: آية ٨٧ .

(٢) سورة القلم: آية ٥٢ .

(٣) سورة الأنعام: آية ٩٠ .

فتذكروا، ووُعظوا فاتعظوا، ودُعوا فآمنوا.

والدعوة جاءت لهذا وذاك.. جاءت لتخاطب البشر ـــ كل البشر ـــ ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى.

وهذا يعني ـــ بداهة ـــ أن الدعوة جاءت ومن خصائصها: الإعلان، والصدع، والبلاغ، والبيان، والإنذار، وتحمل ما يترتب على هذا من التكذيب، والإيذاء، والقتل وغيره.

وإذا ظهرت هذه السمة والخصيصة ـــ قضيةً عامة أصلية ـــ بان دون خفاء أن استسرار النبي ﷺ في دعوته أول الأمر، إنما هو حال استثنائي، لظروف وملابسات خاصة، هي ظروف بداية الدعوة، وضعفها، وغربتها، وينبغي أن يفهم ضمن هذا الإطار.

وإن كان الكتمان والاستسرار سياسة مصلحية في كثير من أمور الإسلام في الحرب والسلام، فهو كذلك في موضوع الدعوة، لكن لابد أن ندرك الفرق بين مسألة الدعوة وسائر المسائل الأخرى.

فالاستسرار بالدعوة كلها أمر مخالف للأصل الثابت المستقر، فلا يجوز اللجوْ إليه إلا عندالضرورة، وأعني بالدعوة بيان دين الله وشرعه وحكمه.

أما الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل والخطط والتفصيلات فهو أمر مصلحي خاضع للنظر والاجتهاد البشري، إذ لا يترتب عليه كتمان للدين ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان، ولا بلاغ.

ومن ذلك ـــ مثلا ـــ معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدعوة، فهذا أمر مصلحي لا يخل بقضية البلاغ والنذارة التي نزلت الكتب وبعثت الرسل من أجلها، فيمكن أن يظل سرا ـــ متى كانت المصلحة في ذلك، مع القيام بأمر الدعوة والتبليغ.

ولهذا فإن النبي ﷺ حتى بعد أن صدع بدعوته وأنذر الناس وأعلن النبوة، ظل يخفي أشياء كثيرة لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان، كعدد أتباعه، وأين يجتمع

بهم؟ وماهي الخطط التي يتخذونها إزاء الكيد الجاهلي، ومن ذلك قصة الهجرة وهي في الصحيحين، ومر تخريج طرف من حديثها.

وبعد هذا العرض المجمل يتضح جانب من الغربة الخاصة والعامة، التي واجهتها الدعوة بذاتها، وواجهها الداعية الأول ﷺ، ومن معه من الأفراد القلائل، وعموم هذه الغربة وإطباقها وهي أشد ما يتصور في غربة الإسلام، أن يضطر المسلم الداعية إلى كتمان إيمانه.

٢ ــ قلة الأتباع :

ولقد كان من النتائج الطبعية لجدة الدعوة وحداثتها، وسريتها أن يكون أتباعها أفرادا معدودين ــ أول أمرهم، وكان هذا مظهرا من مظاهر الغربة. فكان عفّيف الكندي ــ رضي الله عنه ــ يتمنى لو أسلم ليكون ربع الإسلام، كما سبق لكننا نجد من الصحابة غيره من يقول إنه فعلا كان ثلث الإسلام، أو ربع الإسلام، أو خمسه، أو سدسه!.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال:

ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام[1].

---

(١) رواه البخاري في: ٦٢ ــ كتاب فضائل الصحابة، ١٥ ــ باب مناقب سعد بن أبي وقاص الزهري: (٢١٢/٤).
وفي: ٦٣ ــ كتاب مناقب الأنصار، ٣١ ــ باب إسلام سعد رضي الله عنه: (٢٤٠/٤).
وابن ماجه في المقدمة، ١١ ــ باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، رقم الحديث (١٣٢): (٤٧/١) وفيه: ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه.
وابن سعد في الطبقات، في ترجمة سعد: (١٣٩/٣).
وأبو نعيم في الحلية في ٧ ــ سعد بن أبي وقاص ــ بنحو روية ابن ماجة: (٩٢/١). =

وهذا عمرو بن عبسة رضي الله عنه يحسب أنه كان ربع الإسلام، وفي سياق خبره عرض جوانب عديدة في الغربة، والقلة، والذلة:

عن أبي أمامة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية، أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا، جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال أنا نبي، فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد (قال: ومعه

= ونسبه الحافظ ابن حجر لابن منده في معرفة الصحابة بنحو رواية ابن ماجه: (٨٤/٧).
ورواه البيهقي في الدلائل ــ باب من تقدم إسلامه من الصحابة: (١٦٩/٢).
وعن سعد رضي الله عنه قال: رأيتني سابع سبعة مع النبي ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحبلة حتى يضع أحدنا ما تضع الشاة.
رواه البخاري في: ٧٠ كتاب الأطعمة، ٢٣ ــ باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون: (٢٠٤/٦).
وفي ٨١ ــ كتاب الرقاق، ١٧ ــ باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه: (١٨٠/٧).
وفي: ٦٢ ــ فضائل أصحاب النبي ﷺ، ١٥ ــ مناقب سعد بن أبي وقاص: (٢١٢/٤).
ومسلم في: ٥٣ ــ كتاب الزهد والرقائق... رقم الحديث: (١٢،١٣)، (٢٢٧٧/٤).
والترمذي في: ٣٧ ــ كتاب الزهد، ٣٩ ــ باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ رقم الحديث (٢٣٦٥): (٥٨٢/٤).
وأحمد في المسند: (١٧٤/١،١٨١،١٨٦) .
ويمكن الجمع بين هذا وهذا أن قصته مع السبعة قصة متأخرة في غزوة من الغزوات، وأن أفراد تلك الغزوة كانوا سبعة.
ثم وجدت ذلك صريحا في رواية ابن سعد: (١٤٠/٣).

يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به)، فقلت: إني متبعك، قال: إنك لا تستطيع يومك هذا!. ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني. قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار، واسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليّ نفر من أهل يثرب، من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك فقدمت المدينة، فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله! أتعرفني؟ قال: نعم. أنت الذي لقيتني بمكة؟ قال: فقلت بلى[1]...

---

(١) رواه مسلم في: ٦ ــ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ٥٢ ــ باب إسلام عمرو ابن عبسة، رقم الحديث (٢٩٤): (٥٦٩/٢) بهذا اللفظ.
والإمام أحمد في مسنده: (١١١/٤، ١١٢).
وأبو عوانة في مسنده، بيان الأعمال والفرائض.. (٥/١).
وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الوضوء (جماع أبواب الوضوء وسننه)، ١٢٨ ــ باب ذكر البيان أن الله عز وجل وعلا أمر بغسل القدمين، رقم الحديث (١٦٥): (٨٥/١) وهو مختصر.
ثم في جماع أبواب الغسل التطهير والاستحباب (١٩٦)، باب ذكر دليل أن النبي ﷺ قد كان يأمر بالوضوء قبل نزول سورة المائدة، رقم الحديث (٢٦٠): (١٢٨/١-١٣٠).
والحاكم: كتاب الطهارة: (١٦٣/١-١٦٥).
وفي كتاب معرفة الصحابة: (٦٦/٣).
وفيه أيضا في ذكر بلال بن رباح: (٢٨٥/٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وفيه أيضا في ذكر عمرو بن عبسة رضي الله عنه (٦١٧/٣) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وفي: كتاب البر والصلة: (١٤٨/٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وأبو نعيم في الدلائل، ذكر إسلام عمرو بن عبسة: ص (٢١٠-٢١٢).
والبيهقي في الدلائل، باب من تقدم إسلامه من الصحابة (١٦٨/٢). =

لقد فهم عمرو رضي الله عنه أول الأمر من قول النبي ﷺ حين سأله: من معك؟ قال: حر وعبد، فهم منها أن أتباعه اثنان: حر وعبد فحسب، والظاهر أن هذا كان من ضمن الاحتياطات السرية التي اتخذها النبي ﷺ لحماية دعوته وأتباعها، وأنه يقصد أن أتباعه ما بين حر وعبد، فبعضهم أحرار، وبعضهم عبيد، فيدخل في الأحرار: خديجة، وعلي، ومن كان أسلم قبل عمرو، ويدخل في العبيد: بلال، وياسر، وعمار، وغيرهم.

ولذلك كان عمرو يقول: «لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام»(1).

ومثل هذا يمكن أن يقال في قول سعد رضي الله عنه أنه كان ثلث الإسلام.

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر(2).

= ورواه عنه من غير طريق أبي أمامة:

الإمام أحمد في المسند: (٤/١١٣-١١٤، ٣٨٥) .

وفي فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر، رقم (٢٩٩).

وابن منده في التوحيد، ذكر الآي المتلوة والسنة المأثورة.. في النزول، رقم (٧٢٥)، (٢/٥١٧).

واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، في سياق ما روي عن النبي ﷺ في نزول الرب تبارك وتعالى، برقم (٧٦١)، (٣/٤٤٥).

والدارقطني في كتاب النزول، ذكر الرواية عن عمرو بن عبسة في ذلك رقم (٦٦، ٦٧) ص (١٤٢-١٤٤).

والبخاري في التاريخ الكبير، في ترجمة سويد بن جبلة الفزاري، رقمها (٢٢٧٣): (٤/١٤٧).

(1) في روايه الحاكم: (٣/٢٨٥، ٦١٧)، وابن خزيمة: (١/١٢٩) وغيرهما، وقد روى الحاكم عن أبي ذر أيضا أنه قال: لقد رأيتني ربع الإسلام.. وقال صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، المستدرك في معرفة الصحابة: (٣/٣٤١).

(2) رواه البخاري في: ٦٣ ــ كتاب مناقب الأنصار، ٣٠ ــ باب إسلام أبي بكر الصديق =

وليس مراد عمار أيضا إلا من أظهر إسلامه وعرف به، وإلا فقد كان حينئذ جماعة ممن أسلم، ولكنهم كانوا يكتمون إسلامهم[1].

ولعل من أسباب ما يقع من الأضطراب في تحديد السبق إلى الإسلام، ومعرفة الأعداد بالتحديد أن الإسلام كان سرا، وكان الداخل لا يعرف إلا النبي ﷺ، أو فردا، أو فردين ممن حوله، فكان كل واحد يخبر عما يعتقد، وإن لم يكن الأمر على ما أخبر في الواقع.
فإن كان عَرَفَ ـــ بعدُ ـــ أنه سُبِق، أخبر عما كان يعتقد فقال إنه كان يظن أنه ربع الإسلام، أو ثلث الإسلام ـــ بهذا المعنى ـــ.

وإن لم يعرف بعدُ ظل يحدث عما يعلم ويرى، ولو كان الأمر بخلافه. وثمت سبب آخر وهو تقارب فترة إسلامهم، ولذلك يقول سعد: «ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه»[2].

ومهما يكن من أمر فإن الداخلين في الإسلام كانوا أفرادا قلائل، ولم يكن ثم من الفرص ما يتيح لهم مجال الاتصال القوي فيما بينهم بسبب الحصار الشديد الذي تفرضه قريش على الدعوة الجديدة وأتباعها.

ولكن هذه القلة القليلة كانت ذات أثر عظيم في حاضر الدعوة ومستقبلها

= رضي الله عنه: (٤/٢٤٠).
وفي: ٦٢ ـــ فضائل أصحاب النبي ﷺ، ٥ ـــ باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذا خليلا.. (٤/١٩١).
والإمام أحمد في: فضائل الصحابة، برقم (٢٣٢): (١/٢٠٨).
والبيهقي في الدلائل، باب من تقدم إسلامه من الصحابة: (٢/١٦٧).

(١) انظر: فتح الباري (٧/٢٤)، وقد قال ابن مسعود: لقد رأيتني سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا، رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. المستدرك: كتاب معرفة الصحابة: (٣/٣١٣).

(٢) سبق تخريجه قبل صفحات .

وقد انطلقوا يحملون هذه الدعوة بحماس شديد، ويدعون إليها من يستطيعون لا يحول بينهم وبين ذلك حائل، إلا أن يكون القيود الحديدية التي تثقل قريش بها أقدام الأرقاء من المؤمنين.

ولقد أسلم على يدي رجل واحد ـــ هو أبو بكر رضي الله عنه ـــ عدد كبير من مبرزي الصحابة ومقدميهم، كالزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة ابن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، رضي الله عنهم أجمعين[1].

لقد كان الرجل يسمع من النبي ﷺ الآية والآيتين، ويتشهد شهادة الحق ثم ينطلق من ساعته داعية إلى دين الله.

وهذه صورة عظيمة من صورة الانفعال بهذا الدين، والاستجابة لله وللرسول ﷺ.

صورة المؤمن الذي لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، حتى يحقق في واقع الحياة ما تشبع به الوجدان، من حرارة الإيمان، دون أن يكون هذا الانطلاق دفعة عاطفية مؤقتة سرعان ما تخمد وتخبو وتزول.

ويشبهها ما حكاه الله تعالى عن مؤمني الجن في قوله:

﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لايجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾[1].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: (١/٢٦٧-٢٦٩)، والسيرة النبوية لابن كثير (١/٤٣٧-٤٣٩)

(٢) سورة الأحقاف: الآيات ٢٩ - ٣٢ .

إنهم يستمعون فينصتون، فإذا قضي لم يكتفوا بالإيمان به فحسب، بل يزيدون على ذلك أن يتحولوا إلى «منذرين»، تتحرك في نفوسهم روح النذارة والدعوة والبلاغ .

وليس يهم: هل استجيب لهم أم لا؟ بل ليس يهم هل مكنوا من الإنذار أم لا، إنما المهم أنهم ولوا منذرين، تمتلىء نفوسهم بالإشفاق على قومهم، والرغبة في هدايتهم.

وهذا كان شأن أصحاب النبي ﷺ أجمعين، حتى المقيدين المكبلين المعذبين ما كان فيهم من رضى أن يكون هو بنفسه مسلما ثم يدع أمر الناس للناس.

لقد خالطت بشاشة الإيمان وحرارته وتوقده شغاف قلوبهم، فتحركت الجوارح بالطاعة والاستجابة.

ولذلك فقد كانوا قليلٌ عديدهم، عظيمٌ شأنهم، حيٌّ إيمانهم. وإنك لتعجب حين تتأمل أسماء الطليعة الأولى من جيل الصحابة ممن آمن في أول البعثة، فتجد الأسماء نفسها ظلت في المقدمة إلى أبد الدهر ومنها كان رجالات الحكم والسياسة والحرب، وأئمة العلم والفقه والفتيا، والمقدمين في سائر أمور الدنيا والدين!

ومن هؤلاء كان أبو بكر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، ومصعب ابن عمير، وغيرهم كثير.

وهذه القلة المؤمنة المغتربة، كانت تشعر شعورا عميقا بالغربة، ولكن هذا الشعور كان من نوع خاص، غير ما يعتاده الناس.

فالغريب ـــ عادة ـــ يشعر بالذل، ويقنع باليسير، ويرضى بالدون، كما قيل:

إن الغريب له استكانة مذنب
وخضوع ذي دَين، وذل مُريبِ[1]

---

(١) وسبق الحديث عن «غربة الحنفاء في الجاهلية»، وبيان طبيعة تلك الغربة.

أما الغرباء الأولون من أتباع النبي الأعظم ــ ﷺ ــ فلم يكونوا كذلك على رغم شدة غربتهم، وأن أكثرهم كانوا من المستضعفين والعبيد.

لقد نفخ فيهم الإسلام روح العزة والكرامة، وأيقظ لديهم الشعور بإنسانيتهم المكرمة المختارة، ومنحهم من الاستعلاء بالإيمان، ما جعلهم يضربون أروع الأمثلة في الصبر والتحمل والثبات على الدين.

وغرس في قلوبهم من الإيمان بالآخرة ونعيمها، ما جعل الدنيا ــ في أعينهم ــ هينة زهيدة، تبذل رخيصة في مرضاة الله.

كما أعطاهم من الثقة والاطمئنان لمستقبل هذا الدين ما جعلهم يتحملون مرارة الواقع الأليم تطلعا للمستقبل الذي وعد الله به المؤمنين، رجاء أن يكتب الله على أيديهم نصر هذا الدين وإعزازه.

ولقد كان دخول الواحد منهم في الإسلام، وشعوره بالقرب من الله، وأنسه بربه، وحياة قلبه وقرة عينه بسماع القرآن سببا في شعورهم الحقيقي بالتميز عن الجاهلية من حولهم، الجاهلية التي تضج بالفوضى، والفساد، والجفاف، والانحلال.

فكان يصاحب شعورهم بالغربة شعور بالتميز والاستعلاء والفوقية على الكافرين، ثم شعور بوجوب غزو هذا المجتمع الجاهلي وتقويض أركانه ولذلك لم تؤثر فيهم تلك الغربة آثارا سلبية، ولم تضعف من يقينهم وحرارة إيمانهم، بل كانت تشكل «التحدي» الذي يثير المشاعر، ويستفز الطاقات، ويفجر القدرات.

وهذا يدعو ــ مرة أخرى ــ للتأكيد على الفرق الواضح بين غربة الحنفاء في الجاهلية، وغربة محمد ﷺ وأصحابه.

إن غربة أولئك كانت غربة النهاية، فهم نماذج باقية تتقلص يوما بعد يوم ولا تكاد تفكر بالإصلاح والتغيير.ــ، فيصدق عليهم قول القائل:

إذا ما مضى القرن الذي أنت فيهم

وخلفت في قرن فأنت غريب!

أما غربة هؤلاء فهي غربة البداية، والبداية مليئة بالآمال والمطامح والمشاعر القوية الفياضة، ومليئة بالعمل، والتحرك، والانطلاق، لنشر هذا الدين، ودعوة الناس إليه، والجهاد لتحقيقه في عالم الواقع.

ولا شك أن الحركة بهذا الدين في واقع الحياة هي من أعظم أسباب احتفاظ الداعية بإيمانه، بل من أعظم أسباب نماء الإيمان، وزيادته، وتعمقه في القلب، ومخالطته لذرات النفس.

ذلك أن الداعي الذي جعل همه دعوة الناس إلى هذا الدين سوف تتكيف مشاعره مع دعوته، فيحزن من أجل دعوته، ويفرح من أجلها، ويغضب، ويرضى، ويحب ويكره من أجلها.. فتصطبغ روحه ومشاعره بهذه الدعوة، وتصبح دعوته جزءا لا يتجزأ من حياته وشخصيته وتكوينه، وهذه ضمانة قوية للصبر والثبات على هذا الدين.

هذا فوق أن الصبر والثبات منحة إلٰهية يهبها الله للمجاهدين في سبيله، ولهذا قال تعالى:

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[1].

وذلك في سورة العنكبوت التي افتتحت بالحديث عن الابتلاء والفتنة والإيذاء في الله.

٣ ـــ الاضطهاد والتعذيب :

كان من أصحاب النبي ﷺ الذي تقدم إسلامهم عدد من ذوي المكانة في قريش كأبي بكر، وعثمان، رضي الله عنهما، أما عامة أصحابه فكانوا من المستضعفين.

فأما ذوو المكانة فمنعهم الله بقومهم ـــ كما منع رسول الله ﷺ بأبي طالب.

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٩ .

وأما سائر المؤمنين فقد تفننت قريش في تعذيبهم، وكشرت عن أنياب الغيظ والحقد، وسلطت عليهم من سياط العذاب ما لو سلط على جبل لا رفضّ وتفتت.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد.

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر: فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلالا، فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد، أحد[1]!.

---

(١) رواه ابن ماجه: في المقدمة، ١١ ــ باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، رقم الحديث (١٥٠)، (١/٥٣) .
والإمام أحمد في المسند: (١/٤٠٤).
وفي فضائل الصحابة، برقم (١٩١): (١/١٨٢-١٨٣) .
ابن أبي عاصم في كتاب الأوائل برقم (٩٩)، ص (٨٧) .

وابن أبي شيبة في المصنف ــ كتاب الفضائل ــ (٢٠٩٢) في بلال رضي الله عنه، برقم (١٢٣٨٣، ١٢٣٨٤)، (١٢/١٤٩).
وأبو نعيم في الحلية في ترجمة بلال، ورقمها (٢٤): (١/١٤٩).
والبيهقي في الدلائل ــ باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه.. (٢/٢٨١)، وفي باب من تقدم اسلامه: (٢/١٧٠).
ورواه أيضا في السنن، في كتاب المرتد، باب المكره على الردة (٨/٢٠٩).
ورواه الحاكم في المستدرك، في معرفة الصحابة: (٣/٣٨٤) وقال صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وابن عبدالبر في الاستيعاب في ترجمة بلال، رقمها (٢١٣): (٢/٢٧).
وابن حبان ــ كما في الإحسان: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ــ ذكر صهيب بن سنان، برقم (٧٠٤١)، (٩/١٠٧). =

إن امتناع الرسول ﷺ بأبي طالب، وامتناع أبي بكر بقومه..، وكذلك سائر المؤمنين من بيوتات مكة الرفيعة، كانت تمنعهم مكانتهم، ومكانة قومهم من كثير مما يقع لغيرهم من الضرب، والتنكيل، ولكن كان يخلص إليهم من ألوان الأذية الحسية، والمعنوية الشيء الكثير، فكان لابد أن يدفعوا ضريبة الغربة الناتجة عن الدخول في الإسلام، ومن الصور المؤذية لهؤلاء ما ورد في الخبر الثابت من اجتماع أشراف قريش في الحجر وتذاكرهم ما دخل عليهم من النبي ﷺ فيما زعموا من تفريق الجماعة، وعيب الآلهة، وشتم الأجداد، ثم مجيء النبي ﷺ وهم على ذلك، وغمزهم له ببعض القول، وتهديده لهم ﷺ، وأنهم اجتمعوا من الغد فلما جاءهم وثبوا إليه وثبة رجل واحد: أنت الذي تقول كذا؟ أنت الذي تقول كذا؟ كل ذلك يقول: نعم ــ ﷺ ــ فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه، فقام أبو بكر دونه يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟؟[1].

= كلهم من طريق زائدة، عن عاصم، عن زر، عن عبدالله .

وزائدة هو ابن قدامة: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (٣/٣٠٦)، التقريب: (١/٢٥٦).

وعاصم هو ابن أبي النجود المقريء: صدوق في حفظه شيء، وقال: الذهبي: حسن الحديث. انظر: الميزان: (٢/٣٥٧)، التهذيب (٥/٣٨)، التقريب: (١/٣٨٣).

وزر هو ابن حبيش الأزدي: ثقة جليل. انظر: التهذيب: (٣/٣٢١)، التقريب: (١/٢٥٩).

فالحديث حسن .

وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي ــ كما سبق ــ وقال البوصيري: هذا إسناد رجاله ثقات. الزوائد: (١/٧٧).

وله شاهد مرسل عن مجاهد: رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمار ورقمها: (٢٢)، (١/١٤٠).

ورواه ابن سعد في الطبقات، في ترجمة بلال: (٣/٢٣٣).

وابن عبدالبر في الاستيعاب في ترجمة بلال: (٢/٢٨).

وقد ذكر موضع المقداد: خبابا ــ رضي الله عنه ــ.

وانظر: أيضا: السيرة النبوية لابن كثير: (١/٤٣٦،٤٩٤) .

(١) سبق تخريجه في أسباب الغربة .

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها، ودمها، وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله، حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه فانبعث أشقاهم(١)، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة، وهي جويرية، فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدا، حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، ثم سمى: اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد.

قال عبدالله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: وأتبع أصحاب القليب لعنة(٢).

---

(١) هو عقبة بن أبي معيط. انظر: فتح الباري: (١/٥٩٤) .

(٢) رواه البخاري في: ٨ ــ كتاب سترة المصلي، ١٠٩ ــ باب المرأة تطرح عن المصلي شيئا من الأذى: (١/١٣١).
٤ ــ كتاب الوضوء، ٦٩ ــ باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر: (١/٦٥).
٥٨ ــ كتاب الجزية، ٢١ ــ باب طرح جيف المشركين في البئر.. (٤/٧١) وفيه: فألقوا في بئر، غير أمية، أو أبي، فإنه كان رجلا ضخما فلما جروه تقطعت أوصاله قبل أن يلقى في البئر.
٦٣ ــ مناقب الأنصار، ٢٩ ــ باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه..، (٤/٢٣٨).
٥٦ ــ كتاب الجهاد والسير، ٩٨ ــ باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة: (٣/٢٣٤).
٦٤ ــ كتاب المغازي، ٧ ــ باب دعاء النبي ﷺ على كفار قريش: (٥/٥).
ومسلم في: ٣٢ ــ كتاب الجهاد والسير، ٣٩ ــ باب ما لقى النبي ﷺ من أذى =

إنها جريمة نكراء، تكاد السموات تتفطر منها، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدا، أن يجرؤ الملأ من سفهاء قريش، من جثى جهنم، على هذه الشناعة البشعة القذرة الخسيسة، ثم يرى هذه الفعلة المستضعفون من المؤمنين، كعبد الله بن

= المشركين، رقم (١٠٧،١٠٨،١٠٩،١١٠) .
والنسائي في: ١ ـ كتاب الطهارة، ١٩٢ ـ باب فرث ما يؤكل لحمه يصيب الثوب: (١٦١/١-١٦٢) .
وأحمد في المسند: (٣٩٣/١) .
وابن أبي شيبة، في المصنف، كتاب المغازي (٢٤٠٦)، باب في أذى قريش للنبي ﷺ رقم (٨٤١٢)، (٢٩٥/١٤) .
وفي (٢٤٢٦) باب غزوة بدر الكبرى، رقم (١٨٥٢٤): (٣٦١/١٤).
وابن إسحق في السير والمغازي: ص (٢١١).
وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، ٢٦٣ ـ باب ذكر الدليل على أن المصلي إذا أصاب ثوبه نجاسة وهو في الصلاة لا يعلم بها لم تفسد صلاته، برقم (٧٨٥)، (٣٨٣/١).
والبيهقي في دلائل النبوة، باب ما لقى النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين: (٢٧٨/٢،٢٧٩،٢٧٩-٢٨٠).
وإنك لتشعر بالروح والأنس حين تتذكر مقتل هؤلاء الصناديد العتاة في بدر، ويلذ لك سماع شاعر منهم يبكي عليهم، ويقول بعدما ألقوا في القليب:

وماذا بالقليب ـ قليب بدر
من الشيزى تزيّنُ بالسنام ؟
وماذا بالقليب ـ قليب بدر
من القينات والشرب الكرام ؟
تحيينا السلامة أم بكر
فهل لي بعد قومي من سلام ؟
يحدثنا الرّسول بأنْ سنحيا
وكيف حياة أصداء وهام ؟!

صحيح البخاري: (٢٦٣/٤)، بلوغ الأرب: (١٩٨/٢) .

مسعود، وغيره، فلا يملكون لها دفعاً ، سوى أن ينطلق منهم منطلق إلى فاطمة، وهي جويرية حديثة السن، لتزيل عن أبيها ﷺ ما ألقوا عليه.

ولقد انتقم الله لنبيه ﷺ بقتل هؤلاء السبعة المعدودين يوم بدر وإلقاء جيفهم في القليب، حيث ناداهم ﷺ: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا!.

عن أبي طلحة أن النبي ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا في طوى من أطواء بدر(١) خبيث مخبث وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر، اليوم الثالث، أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى وتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي(٢)، فجعل يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟

قال: فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم(٣).

---

(١) الطَوِيّ: البئر المطوية، وهو في الأصل صفة من الطي، ولذلك جمع ــ كما هنا ــ على أطواء.، انظر: النهاية: (١٤٦/٣) .

(٢) الركي هي البئر أيضا، وهي الركية وتجمع على ركايا، انظر: النهاية: (٢٦١/٢) .

(٣) رواه البخاري في ٦٤ ــ كتاب المغازي، ٨ ــ باب قتل أبي جهل (٨/٥).
ومسلم في: ٥١ ــ كتاب الجنة..، ١٧ ــ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٧٨)، (٢٠٤/٤) .
وأحمد في المسند: (٢٩/٤) .
وورد الحديث عن عمر في مسلم في الموضع السابق، برقم (٧٦)، (٢٢٠٢/٤).
والنسائي في: ٢٠ ــ كتاب الجنائز، ١١٧ ــ أرواح المؤمنين (١٠٩/٤).
وفي المسند: (٢٧/١).

=

ولو ذهبت تتبع المواقف التي أساءت فيها قريش للنبي ﷺ ولكبار أصحابه من ذوي المنعة والجاه لطال الأمر، وفي الصحيحين فضلا عن غيرهما من ذلك الشيء الكثير. بل بلغ بهم الحال أن حاولوا قتل النبي ﷺ فلم يستطيعوا كما سبق في حديث عمرو بن عبسة. وقد ازداد ايذاؤهم له ــ ﷺ ــ وتجرءوا عليه بعد وفاة عمه أبي طالب، لأنه كان يحوطه ويحميه، فلما مات أقدمت قريش على ما لم تكن تقدم عليه من قبل، حتى ضيقت عليه الخناق، فصار يفكر ﷺ في البحث عن موطن للدعوة خارج مكة.

أما المستضعفون من أصحابه فقد نطق قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه السابق بألوان من التعذيب لهم من إلباسهم أدراع الحديد، وصهرهم في الشمس، وطواف صبيان مكة ببعضهم في شعاب مكة ونواحيها.

وعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: يا أبا عباس! أكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ فقال: نعم والله إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر على أن يستوى جالسا من شدة الضر الذي به، حتى إنه ليعطيهم ما سألوه من الفتنة!.

وحتى يقولوا: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. وحتى إن

= وعن أنس في مسلم في الموضع السابق، برقم (٧٧)، (٢٢٠٣/٤).

والنسائي في الموضع السابق: (١١٠/٤)، والمسند: (١٠٤/٣، ١٤٥، ١٨٢، ٢١٩، ٢٦٣، ٢٨٧).

وعن ابن عمر عند البخاري في: ٢٣ ــ الجنائز، ٨٧ ــ باب ما جاء في عذاب القبر: (١٠١/٢).

والنسائي في الموضع السابق: (١١٠/٤-١١١).

والمسند: (٣١/٢، ٣٨، ١٣١).

وعن عائشة في المسند: (٢٧٦/٦).

وقد وردت الأسماء التي نادى بها الرسول ﷺ عند مسلم وغيره: يا أبا جهل بن هشام! يا أمية بن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة!.

الجعل يمر بهم، فيقولون: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداء منهم، لما يبلغون من جهده[1].

---

(١) رواه ابن إسحق في السير والمغازي، من عذب في الله بمكة من المؤمنين، ص (١٩٢-١٩٣) .
وهو في السيرة النبوية لابن هشام، في ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة: (١/٣٤٢-٣٤٣).
ورواه البيهقي في السنن، في كتاب المرتد ــ باب: المكره على الردة: (٨/٢٠٩) .
ورجال إسناده كلهم ثقات، خلا ابن إسحق فانه يخشى منه التدليس، وقد صرح في هذه الرواية بالتحديث، وخلا شيخه حكيم بن جبير، فإنه شيعي، وأكثر العلماء على تضعيفه، وقال أبو زرعة: محله الصدق ــ إن شاء الله.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير: (٣/١٦)، الجرح والتعديل: (٣/٢٠١)، التهذيب: (٢/٤٤٥)، الميزان: (١/٥٨٣)، التقريب: (١/١٩٣).
فالحديث ضعيف، ولكن يشهد له حديث ابن مسعود السابق، وقصة تعذيب عمار، فقد جاء عند الطبري وغيره أن قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ [سورة النحل: آية ١٠٦].
نزل في عمار بن ياسر، بل قال ابن حجر: «اتفقوا على أنها نزلت فيه» الإصابة: (٧/٦٥).
وقال ابن عبدالبر: «... فنزلت فيه ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ وهذا مما اجتمع أهل التفسير عليه» الاستيعاب: (٨/٢٢٦) وذلك أن المشركين ضربوه حتى باراهم في بعض ما يريدون ونال من النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير.
انظر: تفسير الطبري، سور النحل: (١٤/١٨١-١٨٢).
وقصته رواها الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير: (٢/٣٥٧).
وإسناده حسن، سوى أنه مرسل، فهو من رواية أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر...
وأبو عبيدة صدوق. انظر: التهذيب: (١٢/١٦٠)، اللسان: (٤/٥٤٩)، وكذلك أبوه، انظر: الجرح والتعديل: (٨/٤٣)، التهذيب: (٩/٣٥٩)، الثقات: (٥/٣٥٧). =

وقد روت كتب السير صورا محزنة من إيلام قريش للمؤمنين، وللضعفاء خاصة من العبيد، والنساء، والشيوخ المسنين، كما حدث لياسر، وسمية، وعمار، وبلال، وخباب، وعامر بن فهيرة، والزّنّيرة، وجارية بني مؤمل، وغيرهم كثير[1].

لقد كانوا رضي الله عنهم يجهدون، وكان محمد ﷺ يجهد من ورائهم ولا يملك أن يدفع عنهم شيئا مما هم فيه، ولكنه يذكرهم بعظيم الأجر الذي ينتظرهم عند الله على صبرهم واحتسابهم، وكانوا مؤمنين حق الإيمان بما عند الله، حتى لكأنهم يرونه رأى العين.

ويذكرهم ﷺ بما عاناه وقاساه من كان قبلهم من المؤمنين، من صنوف العذاب المُمِضِّ الأليم، من تقطيع الأوصال، ونشر اللحم بالمنشار وغير ذلك..

ويذكرهم بالمستقبل الذي وعد الله به هذا الدين وأهله، وأنه سيتم الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه.

عن عبدالله بن جعفر رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ بياسر وعمار وأم عمار، وهم يؤذون في الله تعالى، فقال: لهم: صبراً يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة[2].

= ومن طريق الحاكم رواها البيهقي في سننه: كتاب المرتد، باب المكره على الردة، (٢٠٨/٨).

وسيأتي مزيد تخريج لهذه القصة في رسالة قادمة عن العزلة والخلطة تحت فصل «التقية».

(١) انظر: السير والمغازي لابن اسحق: ص (١٥٤،١٨٩-١٩٤).

سيرة ابن هشام: (٣٣٩/١-٣٤٣).

السيرة النبوية لابن كثير: (٤٩٣/١-٤٩٧).

(٢) رواه أبو أحمد الحاكم من طريق عقيل، عن الزهري، عن إسماعيل بن عبدالله بن جعفر، عن أبيه، كما في الإصابة في ترجمة ياسر العنسي ــ بالنون ــ ورقمها (٩٢٠٩)، (٣٣١/١٠)، وفي الأستيعاب في ترجمة ياسر ورقمها (٢٨٢٢)، (١٠٠/١١-١٠١). =

....

= وعُقيل ــ بضم العين، وفتح القاف ــ هو ابن خالد الأيلي: ثقة ثبت. انظر: التهذيب: (٢٥٥/٧)، التقريب: (٢٩/٢).
والزهري: إمام مشهور، ومضى .
وإسماعيل بن عبدالله: ثقة. انظر: التهذيب: (٣٠٦/١)، التقريب (٧٠/١).
وهذا إسناد صحيح، وهو من مراسيل الصحابة .
انظر: التهذيب: (١٧٠/٥).
والخبر رواه ابن إسحق في السير والمغازي مرسلا حيث قال: فحدثني رجال من آل عمار بن ياسر، في باب: من عذب في الله بمكة من المؤمنين. ص (١٩٢).
وهو في السيرة النبوية لابن هشام، في ذكر عدوان المشركين على المستضعفين: (٣٤٢/١).
ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده ــ كما في المطالب العالية ــ، وأبو أحمد الحاكم، وابن منده ــ كما في الإصابة ــ من طريق الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن عثمان رضي الله عنه، وهو منقطع، وقال أبو زرعة: سالم عن عمر وعثمان وعلي: مرسل.
المطالب العالية ــ كتاب المناقب ــ باب فضل عمار بن ياسر، رقم (٤٠٣٤): (٨٧/٤).
الإصابة ــ الموضع السابق: (٣٣٢/١٠)، المراسيل لابن أبي حاتم رقم الترجمة (١٢٦) ص (٨٠).
ورواه الإمام أحمد من طريق عمرو بن مرة عن سالم عن عثمان، وفيه العلة السابقة: (٦٢/١).
وهكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمار ورقمها (٢٢): (١٤٠/١).
ورواه الحاكم في المستدرك، والطبراني في الأوسط من طريق أبي الزبير عن جابر، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبدالعزيز المقوم وهو ثقة.
المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، مناقب عمار بن ياسر: (٣٨٨/٣-٣٨٩).
مجمع الزوائد، ٤٠ ــ كتاب المناقب، باب فضل عمار بن ياسر وأهل بيته: (٢٩٣/٩).
وسبق الكلام في رواية أبي الزبير عن جابر، وليست هاهنا من طريق الليث.
ونسبه ابن حجر للإمام أحمد في الزهد من طريق يوسف بن مالك مرسلا. الإصابة: (٣٣١/١٠).
وهذه كلها شواهد للحديث الأصل .

وعن خباب رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه؟ فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم، أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه.

وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله.

زاد بيان[1]: والذئب على غنمه[2].

يا سبحان الله .

ماذا جرى حتى احمر وجه المصطفى ﷺ، وقعد من ضجعته؟ وخاطب

---

(١) هو: بيان بن بشر الأحمسي الكوفي المعلم، أبو بشر ــ أحد رواه الحديث، انظر ترجمته في تهذيب التهذيب: (١/٥٠٦).

(٢) رواه البخاري في: ٦٣ ــ مناقب الأنصار، ٢٩ ــ باب ما لقي النبي ﷺ، وأصحابه.. (٤/٢٣٨).. وهذا لفظه.

وفي: ٦١ ــ كتاب المناقب، ٢٥ ــ باب علامات النبوة في الإسلام: (٤/١٧٩).

وفي أوله زيادة: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟، وفي آخره: ولكنكم تستعجلون.

وفي: ٨٩ ــ كتاب الإكراه، ١ ــ باب من اختار القتل والضرب والهوان على الكفر: (٨/٥٦) .

وعلقه في : ٧٧ ــ كتاب اللباس، ١٨ ــ باب البرود والحِبَرة والشملة: (٧/٤٠).

وأبو داود في: ٩ ــ كتاب الجهاد، ١٠٧ ــ باب في الأسير يكره على الكفر، رقم (٢٦٤٩)، (٣/١٠٨).

والنسائي في: ٤٨ ــ كتاب الزينة، ــ باب لبس البرود: (٨/٢٠٤).

والإمام أحمد في المسند: (٥/١١٠-١١١)، (٦/٣٩٥).

وأبو نعيم في الحلية في ترجمة خباب، ورقمها (٢٣)، (١/١٤٤).

أصحابه بهذا الأسلوب القوي المؤثر، ثم عاتبهم على الاستعجال؟.

لأنهم طلبوا الدعاء منه ﷺ ؟

كلا. حاشاه من ذلك، وهو الرؤوف الرحيم بأمته .

إن اسلوب الطلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه، وأنه صادر من قلوب أمضها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدتها البلوى فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطي النصر، فتستدعيه.

وهو ﷺ يعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها، وأسبابها، وأن قبل النصر البلاء، فالرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة[1].

﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا ﴾[2]

ويلمس عليه السلام من واقع أصحابه، وملابسات أحوالهم، بَرَمَهَم بالعذاب الذي يلاقون، حتى ليفتنون عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء ــ بمجرد قراءة النص ــ حقيقة الحال التي كانوا عليها حين طلبوا منه ــ عليه الصلاة والسلام ــ الدعاء والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات التي كانت تثور في نفوسهم إلا أن يعيش حالا قريبا من حالهم ويعاني ــ في سبيل الله ــ بعض ما عانوا.

لقد كان ﷺ يريبهم على :

(أ) التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

---

(١) سيأتي ذلك في حديث ابن عباس عن أبي سفيان ــ رضي الله عنهما ــ.

(٢) سورة يوسف: آية ١١٠ .

(ب) التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا

(ج) التطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الشرك والعصيان.

وثمت أمر آخر كبير ألا وهو : أنه ﷺ مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة، لرفع الأذى الظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم، وإقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح الفرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث شاء، وتزيل الحواجز والعقبات التي تعترض طريق الدعوة إلى الله.

قال تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾[1]، فالمسلم يعبد الله بالصبر والتحمل ويعبده باتباع كافة الوسائل المؤدية ـــ بإذن الله ـــ إلى دفع الغربة عن المؤمنين، ورفع الضر عن المستضعفين.

٤ ـــ الحصار والتضييق :

ولقد سلكت قريش ومن يتابعها ـــ ضمن خططها الجاهلية للاضطهاد والتعذيب وفتنة المسلمين عن دينهم أساليب دنيئة يربأ الإنسان ـــ جنس الإنسان ـــ عنها، لكن مَنْ قال إن الجاهلية تعرف للإنسانية معنى؟؟

لقد كانت العرب عامة ـــ وقريش خاصة ـــ تتغنى بالكرم والجود والبذل والعطاء، وتعتبر هذه الخصلة من مواطن الفخر، والمنافسة، والسباق.

يقول الشاعر العربي يمدح بعض الكرماء :

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت

ونال كرامَ المال في السنة الأكلُ

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٣ .

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم

قطينا لهم، حتى إذا أنبت البقلُ..

هنالك إن يستخبلوا المال يُخبِلوا

وإن يسألوا يعطُوا، وإن ييسروا يغلوا

على مكثريهم حق من يعتريهم

وعند المقلين السماحة والبذلُ!

فما كان من خير أتوه فإنما

توارثه آباءُ آبائهم قبلُ![1]

وكان في قريش خاصة كرماء أجواد مطعمون، منهم عبدالله بن جُدْعان وكان له داعيان يدعوان إلى طعامه وضيافته، وفيه يقول أمية بن أبي الصلت:

له داع بمكة مشمعلٌّ

وآخر فوق دارتها ينادي

إلى ردح من الشيزيْ عليها

لباب البر يُلبك بالشهاد!

ومنهم هشام بن المغيرة ــ والد أبي جهل ــ وفيه يقول الشاعر:

فأصبح بطن مكة مقشعرا

كأن الأرض ليس بها هشام ![2]

وقد سجل التاريخ لهم من قصص الجود والكرم والعطاء ما يشبه الخيال[3]!.

فلما جهر الرسول ﷺ بدعوته، واستحكمت عداوته في نفوسهم، نسوا

---

(١) من شعر زهير بن أبي سلمى، وهو في شرح شعر زهير لثعلب: ص (٩٣-٩٥).

(٢) البيت لبحير ــ بالمهملة أو بالمنقوطة ــ ابن عبدالله بن عامر بن سلمة، كما في المحبر لابن حبيب ص (١٣٩).

(٣) انظر: المنمق، ص (٤٦٠،٤٦٤-٤٦٨،٤٨٨) والمحبر: ص (١٣٧-١٤٦).

كل ما تعارفوا عليه من جميل الخصال، وأصبح الذين يطعمون الضيفان، ويلتمسون المحتاجين والمعوزين يخلون بالحقوق على الجيرة والقرابة، ويمنعونهم الميرة والطعام بالقيمة، ويحاصرونهم سنتين أو ثلاثا في الشعب ـــ شعب أبي طالب ـــ حصارا اقتصاديا واجتماعيا، حتى ليضطرونهم إلى أكل ورق الشجر، وحتى ليصيبهم ظلف العيش وشدته، إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقعة شيء تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير فيأخذها فيغسلها، ثم يحرقها، ثم يسحقها، ثم يستفها، ويشرب عليها الماء، فيتقوى بها ثلاثة أيام(١)!.

وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشعب من الجوع!.

عن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: ... ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت(٢) أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك(٣)، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرا على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما، وعند الله صغيرا(٤).

---

(١) القصة حدثت لسعد بن أبي وقاص، ورواها أبو نعيم في الحلية في ترجمة سعد من طريق محمد بن إسحق. قال: حدثني صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد، وصالح ثقة ولكن بعض آل سعد مبهم، ولعله إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص وهو ثقة. انظر: الحلية ترجمة رقم (٧)، (٩٣/٣).

(٢) أي أصابتها القروح، والأشداق جمع: شدق، وهو جانب الفم.

(٣) هو سعد بن أبي وقاص .

(٤) رواه مسلم في: ٥٣ ـــ كتاب الزهد... برقم (١٤-١٥)، (٢٢٧٨/٤).
والترمذي في الشمائل: ٥٠ ـــ باب ما جاء في عيش رسول الله ﷺ برقم (٤١٥٦): (١٣٩٢/٢).
والإمام أحمد في المسند: (١٧٤/٤)، (٦١/٥) .
وأبو يعلى الموصلي في المفاريد عن رسول الله ﷺ آخر مسند رقم (٥٦)، ص (١١٤). =

وهذه القصة يشبه أن تكون حدثت أثناء الحصار في الشعب ــ والله أعلم إذ كان عتبة من السابقين إلى الإسلام[1] ومثله كان سعد بن أبي وقاص.

لقد أجمعت قريش على حرب رسول الله ﷺ ومقاطعته اجتماعيا واقتصاديا فاجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني عبدالمطلب ألا يناكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم، وكتبوا صحيفة في ذلك.. ثم عدوا على من أسلم، فأوثقوهم، وآذوهم، واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة، وزلزلوا زلزالا شديدا[2].

وكان القرشيون عقدوا هذا الاتفاق في خيف بني كنانة[3]، فلما أذن الله بنصر دينه، وإعزاز رسوله، وفتح مكة، ثم حجة الوداع، كان النبي ﷺ يؤثر أن ينزل في هذا الخيف ليتذكر ما كانوا فيه من الضيق والاضطهاد، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم، ودخولهم مكة ــ التي اخرجوا منها ــ ظاهرين، على رغم أنف من سعى في إخراجهم منها من الكافرين، وليؤكد قضية انتصار الحق واستعلائه، وتمكين الله لأهله الصابرين[4].

= والحاكم في المستدرك، في معرفة الصحابة، مناقب عتبة بن غزوان (٣/٢٦١) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
ونسبه في التحفة للنسائي في الكبرى، رقم الحديث في التحفة (٩٧٥٧)، (٧/٢٣٣).
ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عتبة، رقمها (٢٧): (١/١٧١).
ورواه الترمذي في سننه: ٤٠ ــ كتاب صفة جهنم، ٢ ــ باب ما جاء في صفة قعر جهنم برقم (٢٥٧٥) عن الحسن قال: قال عتبة، وقال الترمذي: لا نعرف للحسن سماعا من عتبة.. (٤/٧٠٢).

(١) انظر: الإصابة: (٦/٣٧٩)، وطبقات ابن سعد: (٤/٣٦٢).
(٢) انظر: السير والمغازي لابن إسحق، ما نال أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء: ص (١٥٦).
(٣) الخيف: ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن سيل الماء، الفتح (٨/١٥) وهو المحصب من منى.. انظر: معجم البلدان: (٢/٤١٢).
(٤) انظر: فتح الباري (٨/١٥) .

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾[1].

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أين تنزل غداً؟ ــ في حجته ــ، قال: وهل ترك لنا عقيل منزلا؟، ثم قال: نحن نازلون غدا بخيف بنـي كنانـة، المحصب، حيث قاسمت قريش على الكفر.

وذلك أن بني كنانة حالفت قريشا على بني هاشم أن لا يبايعوهم ولا يؤووهم.

قال الزهري: والخيف الوادي[2].

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٠ .

(٢) رواه البخاري: ٥٦ ــ كتاب الجهاد، ١٨٠ ــ باب إذا أسلم قوم في دار الحرب ولهم مال وأرضون فهي لهم: (٤/٣٣). وهذا لفظه.
وفي: ٢٥ ــ كتاب الحج، ٤٤ ــ باب توريث دور مكة وبيعها. (٢/١٥٧) مختصرا.
وفي: ٦٤ ــ كتاب المغازي، ٤٨ ــ باب أين ركز النبي الراية يوم الفتح: (٥/٩٢) .
وفيه أنه قال: زمن الفتح، وفي الحديث الأصل: في حجته.
ورواه مسلم في: ١٥ ــ كتاب الحج، ٨٠ ــ باب النزول بمكة للحاج رقم (٤٣٩، ٤٤٠) (٢/٩٨٤).
ورواه أبو داود في: ٥ ــ كتاب المناسك (الحج)، ٨٧ ــ باب التحصيب رقم (٢٠١٠) (٢/٥١٤) .
وفي: ١٣ ــ كتاب الفرائض، ١٠ ــ باب هل يرث المسلم الكافر؟ رقم (٢٩١٠) (٣/٣٢٨) .
ونسبه المزي للنسائي في الحج، وأفاد المحقق أنه في الكبرى، ولم أجده في المخطوط، وإنما وجدت حديث أبي هريرة الآتي. رقم الحديث في التحفة (١١٤): (١/٥٧-٥٨).
وابن ماجه في: ٢٥ ــ كتاب المناسك، ٢٦ ــ باب دخول مكة، رقم (٢٩٤٢)، (٢/٩٨١).
وفي: ٢٣ ــ كتاب الفرائض، ٦ ــ باب ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك، رقم (٢٧٣٠)، (٢/٩١٢). =

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أراد حنينا: **« منزلنا غدا ــ إن شاء الله ــ بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر »**[1].

= والطحاوي في المشكل، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ من جوابه أسامة.. (١٩٨/٣).

وابن خزيمة في: كتاب المناسك، ٨٢٧ ــ ذكر الدليل أن النبي.. أعلمهم.. أن ينزل بالأبطح، برقم (٢٩٨٥)، (٣٢٢/٤).

والبيهقي في سننه في: كتاب الحج، باب الصلاة بالمحصب (١٦٠/٥).

وذكر ابن حجر عن الخطيب البغدادي أن قوله: وذلك أن بني كنانة.. إلخ مدرج في رواية الزهري عن علي بن الحسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة، وإنما هو عند الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة.. الفتح: (١٧٦/٦).

وانظر التعليق على الحديث الآتي.

(١) رواه البخاري في: ٦٣ ــ مناقب الأنصار، ٣٩ ــ باب تقاسم المشركين على النبي ﷺ: (٢٤٦/٤) وهذا لفظه.

وفي: ٣٥ ــ كتاب الحج، ٤٥ ــ باب نزول النبي ﷺ مكة: (١٥٨/٢) وزاد: يعني بذلك المحصب، وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبدالمطلب، أو بني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ.

وفي: ٦٤ ــ كتاب المغازي، ٤٨ ــ باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح: (٩٢/٥).

وفي إحدى روايتي هذا الموضع: منزلنا ــ إن شاء الله ــ إذا فتح اللهُ الخيفُ.. الخيف مرفوع: خبر لمنزلنا، أما مفعول فَتَحَ فمحذوف.

وفي: ٩٧ ــ كتاب التوحيد، ٣١ ــ باب في المشيئة والإرادة: (١٩٤/٨).

ورواه مسلم في: ١٥ ــ كتاب الحج، ٥٩ ــ باب استحباب النزول بالمحصب رقم (٣٤٣-٣٤٥)، (٩٥٢/٢).

وأبو داود في: ٥ ــ كتاب المناسك (الحج)، ٨٧ ــ باب التحصيب رقم (٢٠١١)، (٥١٥/٢).

والنسائي في السنن الكبرى، كتاب المناسك، باب نزول المحصب بعد النفر، (ل: ٥٤ ب).

وأحمد في المسند: (٢٣٧/٢، ٢٦٣، ٣٢٢، ٣٥٣، ٥٤٠) . =

وهذه الخطة الجاهلية: خطة الحصار والتجويع، مما يتواصى به أعداء الرسل من الكفار والمنافقين عبر العصور:

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾(١).

وهذه المؤامرة الجماعية ــ مؤامرة الشعب ــ لم تكن هي الكيد الوحيد في مجال التضييق والمحاصرة، كلا. بل لقد دأب عتاة الجاهلية ومَرَدَتُها على الاستخفاف بحقوق من أسلموا، وعلى ألا يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة، وعلى أن يتناسوا في سبيل إيذائهم جميع الأعراف والتقاليد المرعية، حتى لقد منعوهم حقوقهم المالية من الديون وغيرها..!

= وابن خزيمة في: كتاب المناسك، ٨٢٦ ــ باب استحباب النزول بالمحصب رقم (٢٩٨١-٢٩٨٢).

٨٢٧ ـباب ذكر الدليل أن النبي ﷺ.. رقم الحديث (٢٩٨٤)، (٤/٣٢١-٣٢٢).

والبيهقي في سننه في كتاب الحج، باب الصلاة بالمحصب: (٥/١٦٠) .

واختلفت روايات الصحيح وغيرها في هذا الحديث، ففي بعضها ــ كما هاهنا ــ حين أراد حنينا، وفي البعض الآخر: من الغد يوم النحر وهو بمنى...

كما اختلف صنيع الأئمة فهم يثبتونها حينا في أبواب المناسك وحينا في أبواب المغازي والجهاد..

وانظر: للجمع والترجيح: الفتح: (٣/٤٥٣)، (٨/١٥).

قال الحافظ ابن حجر في الزيادة المسوقة في كتاب الحج: «ويختلج في خاطري أن جميع ما بعد قوله: يعني المحصب، إلى آخر الحديث من قول الزهري أدرج في الخبر.. ومن ثم لم يذكر مسلم في روايته شيئا من ذلك» الفتح: (٣/٤٥٣)، (٨/١٥).

(١) سورة المنافقون: آية ٧

عن خَباب رضي الله عنه قال: كنت قينا[1] في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائل دراهم، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد!.

فقلت: لا والله، لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يبعثك، قال: فدعني حتى أموت ثم أبعث، فأوتى مالا وولدا، ثم أقضيك، فنزلت: ﴿ **أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا** ﴾[2] »[3].

ولقد آثر هؤلاء المؤمنون ما عند الله، فطويت عنهم الدنيا فعاشوا في شظف من العيش كان أفضل عندهم من التقلب على فرش الحرير والديباج، لأنه أثر من آثار طاعة الله، والرضا بدينه، ورسوله، فقد استعذب القوم في سبيل دينهم كل مر، واستساغوا كل علقم، ولسان حالهم يقول:

---

(١) هو الحداد الذي يصنع السيوف. انظر: النهاية (١٣٥/٤) .

(٢) سورة مريم: آية ٧٧ .

(٣) رواه البخاري في: ٤٤ ـ كتاب الخصومات، ١٠ ـ باب التقاضي: (٩٢/٣).. وهذا لفظه.
وفي: ٣٤ ـ كتاب الإجازة، ١٥ ـ باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك: (٥٢/٣).
وفي: ٣٧ ـ كتاب التفسير، ١٩ ـ سورة كهيعص، ٣ ـ باب قوله: أفرأيت الذي كفر بآياتنا..، (٢٣٧/٥).
ومسلم في: ٥ ـ كتاب التفسير، ٢٠ ـ ومن سورة مريم، رقم (٣١٦٢)، (٣١٨/٥).
والإمام أحمد في المسند: (١١٠/٥، ١١١).
والطبري في التفسير، تفسير سورة مريم: (١٢٠/١٦).
وابن سعد في الطبقات، في ترجمة خباب: (١٦٤/٣) .
وروى الطبرى عن ابن عباس نحوه وفيه: أن رجالا من أصحاب النبي ﷺ، كانوا يطلبون العاص بن وائل..: (١٢١/١٦).
وورد مرسلا عن الحسن ومجاهد وقتادة ومسروق، انظر: الطبري، والدر المنثور.

رضيت في حبك الأيام جائرة

فعلقم الدهر إن أرضاك كالضرب !

فكانت العاقبة لهم في الدنيا والآخرة.

وكان هذا جانبا من الخير الكثير الطيب الذي وعد رسول الله ﷺ به الغرباء حين قال: فطوبى للغرباء.

إن كل ما يلقاه الغريب من تضييق، وحصار، وإيذاء، واضطهاد، هو رفعة له، وزيادة في درجاته، وصبره عليه قربى إلى الله، واحتسابه له سبب للسعادة والأنس، والروح، والنعيم العاجل والآجل.

٥ ـــ انحصار دعوة الإسلام في بيئة واحدة :

لقد بعث الرسول ﷺ في أم القرى لينذرها ومن حولها، وينذر يوم الجمع لا ريب فيه، وجاء برسالة ربانية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فلم تكن دعوته دعوة إقليمية، أو محلية، بل كانت منذ أولها دعوة عالمية، موضوعها الإنسان ـــ جنس الإنسان، كيف كان، وميدانها الأرض ـــ كل الأرض ـــ، ومهمتها إصلاح الحياة البشرية في جميع جوانبها الفردية والاجتماعية.

ولقد واجه الرسول ﷺ مجتمع مكة بالدعوة، فلقي منهم ما لقي من التكذيب، والتعذيب، ولقي أصحابه من الاضطهاد، والتنكيل، والتكبيل، ما هو فتنة للتابع، وصد لغيره، وحيلولة دون انطلاق الدعوة وانتشارها.

ولقد ظلت الدعوة محصورة بين أخشبي مكة، لا يؤمن بها خارجها إلا الفرد بعد الفرد، كعمرو بن عبسة، وأبي ذر ـــ رضي الله عنهما ـــ حتى أذن الله بإسلام الانصار، وقيام الدولة.

وكان انحصار الدعوة في مكة من مظاهر الغربة الشديدة، لأسباب عديدة:

(أ) لأن هذا يعني احتجاب الدعوة عن الآخرين ممن يمكن أن يكونوا

أكثر قبولا لها، وإقبالا عليها.

(ب) ولأن هذا يغرى قريشا بالضراوة في حرب الدعوة، والحماسة في صد الناس عنها، وفتنة المؤمنين بها، إذ يشعرون بأن الدعوة تحدٍّ خاصٌ يواجه قريشا، ومهمة القضاء عليها موكولة إليهم.

(ج) ولأن هذا يعرض الدعوة لخطر الزوال، ويعرض أتباعها للإبادة على يد القرشيين، لأنهم عدد قليل محصور في مكان واحد تسيطر عليه فئة معينة، ذات عقلية معينة، من الممكن أن يصل بها التفكير إلى حد التخطيط لقتل الرسول ﷺ، وجميع أتباعه، بل حدث هذا فعلا[1].

وهذا شأن الكافرين المعاندين:

﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم، أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾[2].

ونحن جميعا نعلم ــ الآن ــ أن هذا لم يكن ليكون، وأن الله بعث رسوله ﷺ، وأنزل دينه لأمر لابد أن يتم، وأن الوعد بإعزاز الإسلام، ورفع شأنه، كان قديما منذ فجر الدعوة..

ولكن حتى الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام، كانوا مطالبين بفعل الأسباب الدافعة للمفسدة، تحقيقا لمعنى كبير من معاني العبادة، وتعليما لمن بعدهم ممن يتأسى بهم ويستنّ.

وتحقيقا لمعنى من معاني بشرية الرسول ﷺ الذي يتصرف في سائر شؤونه باعتباره رسول بشرا، فلا يكون ثمت أي تناقض بين إيمانه بالوعد الإلهي، وبين

---

(١) أي: حدث التفكير بذلك .

(٢) سورة الكهف: آية ٢٠ .

وانظر: ما سبق مرارا من حديث عمرو بن عبسة .

سعيه بالجهد البشري ومحاذرته من الإخفاق، لأن الوعد الإلهي إنما كان لأن الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا القدر، وعلى هذه الصفة.

وهذا يشبه حال الصحابة الذين شهد لهم النبي ﷺ، بدخول الجنة.. كيف كانوا بعد هٰذه الشهادة؟ هل اطمأنوا بها وتركوا العمل لأنها شهادة حق وصدق، ولا ريب فيها، ولا يمكن أن تتخلف؟؟

أم ظلوا على ما هم عليه من بذل الجهد البشري المطلوب في العبادة، وتوق أسباب دخول النار، والخوف والحب والرجاء؟.

لاشك أنهم ظلوا بشرا يتصرفون بمقتضى الجبلة البشرية الفطرية، فيرجون ويخافون، ويفعلون الأسباب، مع ثقتهم بالوعد، ولهذا كان الوعد، وبهذا استحقوا رحمة الله لهم بالجنة.

وهذه كهذه سواء، ومثلها كثير..

ولهذا كان الرسول ﷺ حتى بعد الهجرة إلى المدينة، واستقرار الدعوة فيها، وكسرها للطوق الذي أحاطها به القرشيون، ووجدانِها الفئةَ التي تؤويها، وتحميها، يشعر — ﷺ — بهذا المعنى — معنى انحصار الدعوة في بيئة واحدة، وفي فئة واحدة، لو استؤصلت لانتهت الدعوة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدّ يديه، فجعل يهتف بربه:

اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض!.

فمازال يهتف بربه، مادا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال:

يا نبي الله! كَذَاكَ مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

فأنزل الله عز وجل: ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾[1].

فأمده الله بالملائكة[2]..

---

(١) سورة الأنفال: رقم الآية ٩ .

(٢) رواه مسلم في: ٢ذ ــ كتاب الجهاد والسير، ١٨ ــ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر..، رقم (٥٨): (١٣٨٣/٣-١٣٨٥) وهذا لفظه.. وفي آخره زيادة.
وروى أبو داود بعضه في: ٩ ــ كتاب الجهاد، ١٣١ ــ باب في فداء الأسير بالمال، رقم (٢٦٩٠): (١٣٨/٣-١٣٩).
ورواه الترمذي في: ٤٨ ــ كتاب تفسير القرآن، ٩ ــ باب ومن سورة الأنفال، رقم (٣٠٨١)، (٢٦٩/٥).
وأحمد في المسند: (٣٠/١،٣٢).
والطبري في التفسير، تفسير سورة الأنفال: (١٨٩/٩).
وابن أبي شيبة في مصنفه: كتاب المغازي، (٢٤٢٦)، باب غزوة بدر الكبرى.. رقم (١٨٥٣١) ــ (٣٦٥/١٤-٣٦٨).
وأبو نعيم في الدلائل، في ذكر ما جرى من الآيات في غزواته وسراياه: ص (٤٠٨).
والبيهقي في الدلائل، جماع أبواب غزوة بدر العظمى، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ على المشركين: (٥١/٣).
ونسبه السيوطي في الدر أيضا لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي عوانة وابن حبان وأبي الشيخ وابن مردوية: (٢٨/٤).
والحديث ورد عن ابن عباس في:
البخاري في ٥٦ ــ كتاب الجهاد والسير، ٨٩ ــ باب ما قيل في درع النبي ﷺ: (٢٣٠/٣).
٦٤ ــ كتاب المغازي، ٤ ــ باب قول الله تعالى: إذ تستغيثون ربكم: (٤/٥).
٦٥ ــ كتاب التفسير، ٦ ــ باب قوله: سيهزم الجمع ويولون الدبر (٥٤/٦).
٧ ــ باب قوله: بل الساعة موعدهم (٥٤/٦). =

لقد كان النبي ﷺ بمقتضى بشريته يحاذر فناء المسلمين، وهلاك هذه العصبة من المؤمنين، فيجأر بهذا الدعاء الحار، ويهتف بربه، ويناشده حفظهم ونصرهم، فيرى الصدّيق الأول ـــ رضي الله عنه ـــ في هذا الموقف النبوي العظيم آية من آيات النصر المبين فينادي بالنبي ﷺ: كفاك ـــ أو كذاك ـــ مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

فتلتقي في هذا الموقف آيتان:

آية الإيمان بوعد الله ونصره وتمكينه .

وآية فعل الأسباب البشرية لتحصيل هذا النصر، والتي منها الدعاء والتضرع..

لقد كان يقض مضجع النبي ﷺ انحصار الدعوة في مكة، وبين قريش

= والبيهقي في الدلائل، جماع أبواب غزوة بدر العظمى، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ على المشركين: (٣/٥٠).

وهو في الدلائل لأبي نعيم بسياق آخر، في ذكر مَا جرى من الآيات في غزواته وسراياه، ص (٤٠٤).

ونسبه المزي في التحفة للنسائي (٦٠٥٤): (٧٥ /١٢٧)، وهو في الدر المنثور: (٧ /٦٨١).

وورد عن ابن مسعود عند النسائي في عمل اليوم والليلة، باب الاستنصار عند اللقاء، رقم (٦٠٦)، ص (٣٩٤).

وفي السنن الكبرى، كتاب المغازي، باب الصلاة عند الالتقاء (ل ١١٥ أ)، وهو في الدلائل للبيهقي: (٣/٥٠).

وورد عن علي عند البيهقي في الدلائل: (٣/٤٩).

وعن يزيد بن يثيع في مصنف ابن أبي شيبة، كتاب المغازي، (٢٤٢٦) غزوة بدر الكبرى، (١٨٥٣٥)، (١٤/٣٦٩).

وهو عنده أيضا مختصراً في كتاب الفضائل، (٢٠٦٠)، ما ذكر في أبي بكر الصديق ـــ رضي الله عنه، رقم (١٢٠١٢)، (١٢/١٩).

وهو عند الطبري في التفسير ـــ تفسيره سورة الأنفال (٩/١٩٠) وفي المطبوع:ابن‌نفيع.

المتأبية على الدعوة، المعارضة لها، فيلتمس الأسباب التي يخرج فيها بدعوته عن هذه الدائرة الضيقة إلى أفق أوسع وأرحب.

فيوجه أصحابه إلى الهجرة الأولى ثم الثانية إلى الحبشة.

ثم يخرج إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف.

ثم يعرض نفسه على القبائل في الأسواق والمواسم، ويعلن عن بضاعته السماوية على الملأ.

حتى إذا واتته الفرصة بإسلام الأنصار اغتنمها، ووجه بعض أصحابه إلى المدينة، تمهيدا لهجرته ﷺ، إليها[1].

وكل هذا جزء من الجهد الذي بذله النبي ﷺ باعتباره قائدا لهذه الدعوة المباركة وأصحابه من ورائه لحمايتها من الاضمحلال والزوال، وتحقيق وعد الله لها بالنصر والتمكين.

ولقد امتن الله عليهم آخر الأمر بالإيواء، والتأييد، والرزق، بعد التشرد، والضعف، والعيلة:

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾[2].

وسيتضح ــ إن شاء الله ــ في الفصل القادم، كيف حصل المؤمنون على هذا النصر؟ وما هي الخطوات والمراحل التي اجتازوها قبل مرحلة التمكين؟ وكيف تعاملوا مع الأحوال والأوضاع المعارضة لهم.. حتى صنع الله بهم من الضعف قوة، ومن الذلة والقلة عزا ونصرا.

---

(١) سيأتي في الفصل الثالث من هذا الكتاب: كيفة مواجهة الغربة، الحديث عن هجرتي الحبشة، والخروج إلى الطائف، وهجرة المدينة.. وغيرها.

(٢) سورة الأنفال: آية ٢٦ .



الفصل الثالث
كيفية مواجهة الغربة الأولى



كيفية مواجهة الغربة الأولى

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾[1].

إن المهمة التي يجب أن يتصدى لها الباحثون في دعوة النبي ﷺ خاصة، وفي تاريخ الدعوة الإسلامية — عامة — ليست مجرد الرصد التاريخي لمرحلة معينة، وسرد أحداثها، وتدوين وقائعها فحسب.

بل إن المهمة أخطر من ذلك، وهي مهمة تحليل هذه المرحلة ودراسة ملابساتها ومعرفة الأحوال المؤثرة وغير المؤثرة فيها، من أجل أن ينطلق المسلمون — اليوم — في دعوتهم والتمكين لدينهم من المنطلق ذاته، ويقيموا بنيانهم على الأساس ذاته.

فهي — إذاً — مهمة مزدوجة: تاريخية وواقعية.

وظلم لهذه المرحلة — مرحلة الدعوة الأولى —، كما هو ظلم للمسلمين أن يزعم أحد أن ما يكتبه كاف في الموضوع، كلا. بل إن ميدان دراسة السيرة وتحليلها من الميادين التي لاتزال تعاني من نقص كبير، سواء في مجال تمحيص الروايات، ودراستها دراسةً حديثية، أو في مجال الدراسة، والتحليل، ورسم الخطط، والمناهج، على ضوء نتائج هذه الدراسة.

ولكن هذا لا يمنع من المشاركة والمحاولة بقدر الإمكان.

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٢١ .

خطوات بارزة :

منذ أن وُجِّه الرسول ﷺ إلى القيام بالنذارة والدعوة في قوله تعالى: **﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾**[1].

انطلق ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ في حركة لا تتوقف يدعو إلى الله تعالى.

وقد توجت هذه الحركة بتحقيق النصر، وقيام الدولة، وزوال الغربة، واضمحلال شأن المعارضين.

وبين هذه الانطلاقة، وهذه النهاية، سلسلة من المتاعب، والجهود، والتضحيات الجسام، والدماء، والدموع، والآلام، وقدر كبير ضخم من الأحداث، والوقائع، ما بين ضعف وقوة، ونصر وهزيمة، وفرح ومصيبة.

ولكن المطالع لتلك الأحداث يستطيع أن يرسم خطا تصاعديا ـــ من حيث الجملة ـــ لحركة الدعوة النبوية، يتبين من خلاله بعض الملامح البارزة، والخطوط العريضة لتصاعد حركة الإسلام.

وقد سارت الدعوة بخطوات متتالية، يندفع بكل خطوة منها قدر من الغربة، ويتحقق قدر من التمكين والاستقرار، **حتى اندفعت الغربة بالكلية بفتح مكة، وإحكام السيطرة الإسلامية على جزيرة العرب، ونزل قوله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1]. حيث كمل الدين، وتمت النعمة، وهذا يعني زوال الغربة، واكتمال الأمر من الناحية التشريعية ومن الناحية الواقعية.**

وسأعرض ـــ فيما يلي ـــ لأهم الخطوات المتسلسلة في حركة الدعوة، ثم أحاول عرض بعض العوامل التي أدت إلى التمكين ودفع الغربة.

---

(١) سورة المدثر: الآيتان ١، ٢ .

(٢) سورة المائدة: آية ٣ .

فأما الخطوات، فأهمها ما يلي:

١ ــ الجهر بالدعوة :

فبعد أن مكث رسول الله ﷺ ثلاث سنين يدعو إلى الله سرا من يثق به من قرابته وأصدقائه، أمره الله تعالى بإنذار عشيرته الأقربين، فأنذرهم، ثم أمره أن يصدع بالدعوة، فصدع بها بين ظهرانيهم، فصعد ــ ﷺ ــ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا، لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا؟!، فنزلت ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾[١].

ولقد كانت النتيجة القريبة المباشرة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس.

ولكن الأمور لا توزن بهذا الميزان.

فالداعية قد وطن نفسه منذ البداية على تحمل الصدّ، والإيذاء، ومواجهة الكيد، والعداوة، والحرب، ولم يكن ما لقيه غريبا عليه، ولقد صارحه ورقة بن نوفل بهذا عقيب أول لقاء لقيه فيه الملك:

عن عائشة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي قالت:

... فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة، وكان امرءا قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي

---

(١) سبق تخريجه في الفصل الأول، أسباب الغربة الأولى .

فقالت: له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك!.

فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجيّ هم؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى!، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا(١)....

ولكن الأمر المهم في قضية الصدع والجهر هو نقل الصراع إلى ميادين جديدة تدل على مدى التقدم الذي أحرزته الدعوة من جانب، وتحقق للدعوة — في الوقت نفسه — تقدما آخر.

---

(١) رواه البخاري في: ١ — كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ: (٣/١).
وفي: ٦٠ — كتاب الأنبياء، ٢٣ — باب: وقال رجل مؤمن من آل فرعون.. (١٢٤/٤).
وفي: ٦٥ — كتاب التفسير، ٩٦ — سورة اقرأ، ١ — باب: (٨٧/٦). ٢ — قوله خلق الإنسان من علق (٨٩/٦). ٣ — قوله اقرأ وربك الأكرم: (٨٩/٦). ٤ — باب الذي علم بالقلم: (٨٩/٦) .
وفي: ٦٥ — كتاب التفسير، ٩٦ — سورة اقرأ، ٣ — قوله اقرأ وربك الأكرم (تعليقا): (٨٩/٦).
وفي: ٩١ — التعبير، ١ — باب التعبير وأول ما بديء به رسول الله ﷺ: (٦٧/٨).
ومسلم في: ١ — كتاب الإيمان، ٧٣ — باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٢٥٢،٢٥٣،٢٥٤)، (١٣٩/١-١٤٣).
وروى الترمذي طرفا منه في: ٥٠ — كتاب المناقب، ٦ — باب: رقم (٣٦٣٢)، (٥٩٦/٥).
ورواه أبو عوانة في بيان صفة مبعث النبي ﷺ: (١١٠/١-١١٢).
والإمام أحمد في مسنده: (٢٢٣/٦،٢٣٢،٢٣٣).
والطبري في التاريخ: الخبر عما كان من أمر النبي ﷺ...، (٢٩٨/٢).
وابن سعد في الطبقات: ذكر نزول الوحي على رسول الله ﷺ: (١٩٤/١) مختصرا.
وله شاهد عن ابن عباس رواه أحمد في المسند: (٣١٢/١).

فالمعركة بين النبي ﷺ وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها باتت مكشوفة يراها الناس في مكة ويتناقلون أخبارها في كل مكان. وهذا ــ بحد ذاته ــ مكسب عظيم للدعوة، ساهم في تحقيقه أشد وألد أعدائها، ممن كانوا يشيعون في القبائل قالة السوء عنها، فليس كل الناس إمّعات يأخذون دعوى القرشيين مأخذ التسليم، ولابد أن يوجد من شتى القبائل من يتنطّس الأخبار، ويتحرى الصواب، فيظفر به.

ولقد كان تناقل الناس للأخبار مشافهة هو أهم وسيلة إعلامية في ذلك العصر، فكان من نتيجة إعلان الدعوة، وما تبعه من استفادة من المجالات العلنية المتاحة، أن سمع القاصي والداني بنبوة الرسول ﷺ(1)، وفرض هذا الحدث المفاجيء نفسه على الواقع، وصار هو حديث الساعة ــ كما يقال ــ ومهما يكن من تباين مواقف الناس إزاء هذا الحدث، إلا أن هذا الدين الذي نزل ليحكم الدنيا كان لابد له من الصدع والإعلان، ومما بعد الصدع والإعلان.

فهذا الإعلان كما كان نتيجة وثمرة للجهود السابقة التي بذلها الرسول ﷺ والمؤمنون معه، فهو ــ كذلك ــ تمهيد طبعي للخطوات التالية له، والتي منها كسر الحصار المفروض على الدعوة، والانتقال بها إلى مواقع جديدة، وقد تمثل ذلك في العرض على القبائل، والخروج للطائف، وهجرتي الحبشة.

لقد كان أولى الناس بتوجيه الدعوة إليهم: قريش، وأهل مكة ــ وبالأخص عشيرة النبي ﷺ الأقربين ــ فوجه إليهم الدعوة من خلال هذا المنبر العلني، وأنذرهم عذاب الله وبأسه إن لم يؤمنوا.

فلما أبو ونفروا وصخبوا في وجه الدعوة وغالبوها خطط الرسول ﷺ

---

(1) سبق ذكر نماذج من ذلك في قصة ربيعة بن عباد الديلي، وطارق بن عبدالله المحاربي، وجابر بن عبدالله، وشيخ من بني مالك بن كنانة رأى النبي ﷺ... وذلك في الفصل الأول، المتعلق بأسباب الغربة.

لنقل الدعوة إلى مكان آخر تستقر فيه وتنطلق منه، فكانت الخطوة التالية هي:

٢ ــ الدعوة خارج مكة :

ضاقت مكة ذرعا بالرسول ﷺ وبأتباعه، وبدأت معهم حربا ضارية من الكيد والإيذاء والمقاطعة ــ سبقت الإشارة إلى شي منها[١] ــ، ففكر الرسول ﷺ بالخروج بالدعوة من مكة لتحقيق هدفين في آن واحد.

أولا: للبحث عن موطن يأمن فيه المسلمون على دينهم، ويسلمون من أذى قريش وفتنتها، حيث لا تطالهم يدها، ولا يمتد إليهم بطشها.

ثانيا: للبحث عن بيئة تقبل الدعوة، وتستجيب لها، في مقابل عنت القرشيين وكنودهم، ومن هذه البيئة تنطلق إلى آفاق الأرض، تحقيقا لأمر الله بالتبليغ للعالمين.

فأقدم الرسول ﷺ على عدد من الخطوات الكفيلة ــ بإذن الله ــ بتحقيق هذين الهدفين.

(أ) الهجرة إلى الحبشة :

وذلك أنه لما كان في رجب من السنة الخامسة من الهجرة أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة لعدالة ملكها، وإمكانية تمتع المسلمين فيها بحريتهم الدينية، فخرج منهم نحو أحد عشر رجلا، وأربع نسوة، فأقاموا عنده بخير مقام، في خير دار، عند خير جار.

عن أم سلمة، زوج النبي ﷺ أنها قالت:
لما ضاقت علينا مكة، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره، مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد

---

(١) في الفصل الثاني، المتعلق بمظاهر الغربة وصورها .

عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها أرسالا، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمِنًا على ديننا ولم نخش منه ظلما[١]...

وقد تسامع هؤلاء المهاجرون بأن قريشا قد أسلمت، وكفت عن إيذاء النبي ﷺ فرجعوا، فوجدوا الأمر أشد ما كان.

فأذن النبي ﷺ بالهجرة الثانية، فهاجر قرابة المائة مابين رجل وامرأة واستقروا هناك، فرجع منهم من رجع بعد الهجرة إلى المدينة، ورجعت بقيتهم عام خيبر[٢].

فيا ترى ما هو الهدف من هجرتي الحبشة ؟

تذكر بعض مصادر السيرة أن النبي ﷺ كان يحب أن يهاجر إلى الحبشة[٣]، وهذا بعيد، لأسباب كثيرة:

(أ) منها أنه ثبت ـــ كما سيجيء ـــ رؤية النبي ﷺ دار الهجرة أرضا ذات نخل بين حرتين وأنه ظنها هجر[٤].

(ب) ومنها طبيعة الوضع الجغرافي للحبشة الذي يعوق انتشار الدعوة وبسط سلطانها على العالم.

---

(١) الحديث سبق تخريجه .

(٢) انظر: في الهجرتين وتفاصيلهما، والقدمات الثلاث للمهاجرين: زاد المعاد لابن القيم: (٣/٢٣-٢٩).

ورسالة الأخ الشيخ سليمان السعود في: أحاديث الهجرة (ماجستير مطبوع على الآلة) ص (٨-٥٦) وغيرهما.

(٣) انظر: مصنف عبدالرزاق: (٥/٣٨٤)، طبقات ابن سعد: (١/٢٠٤).

(٤) هجر هي الأحساء، انظر في تحديدها وأصل تسميتها: معجم البلدان: (٥/٣٩٣) .

(ج) ومنها حاجز اللغة .

(د) ومنها أن اختيار الجزيرة العربية ـــ ومكة بالذات، ثم المدينة ـــ لنزول الوحي وانطلاق الدين لم يكن أمرا اتفاقيا، بل كان لمميزات كثيرة ـــ سيمر ذكر بعضها ـــ.

وبناء على هذا، فإن هجرة المسلمين للحبشة لم تكن تمهيدا لانتقال الرسول ﷺ إليها. وإنما الهدف الأول منها هو حماية المؤمنين المستضعفين من أذى قريش، ودفع غربتهم المعنوية، وتأمينهم على دينهم، كما ورد التصريح به في العديد من الروايات، ومنها رواية أم سلمة[1].

ولا يعارض هذا أن يكون في عزم المسلمين أن ينشروا الدعوة إلى الله في أي مكان حلوا فيه، إذ إن الدعوة إلى الله جزء من الدين الذي يريدون أن يأمنوا عليه ويبحثوا عن مكان يقدرون أن يؤدوه فيه، وينطلقوا منه إلى ما سواه.

وليس المقصود تمكينهم من أداء شعائرهم فحسب.

ولقد كان لهجرتي الحبشة أثر كبير في تخفيف الغربة المفروضة على المسلمين في مكة، والإسقاط في يد قريش، خاصة حين أرسلت رسلها للنجاشي لرد المسلمين إلى مكة فرجعوا بالخيبة والفشل[2].

كما كان لهما أثر في الحط من مكانة القرشيين عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدعوة وحملتها، إذ كانت البيئة العربية تفتخر بإيواء الغريب وإكرام الجار وتتنافس في ذلك، وتحاذر السبة والعار في خلافه.. فهاهم الأحباش يسبقون قريشا ويؤوون من طرّدتهم وأساءت إليهم من أشراف الناس، ومن ضعفائهم، ومن غربائهم!.

---

(١) سبقت أكثر من مرة .

(٢) انظر: الروايات في رسولي قريش في: حديث أم سلمة السابق، حديث ابن مسعود في: المسند: (٤٦١/١)، ودلائل النبوة للبيهقي في الهجرة الأولى إلى الحبشة: (٢٩٨/٢)، حديث أبي موسى في المستدرك في كتاب التفسير.. سورة النساء: (٣٠٩/٢) وغيرها.

وهذه كلها آثار ايجابية، لا يضير أن يوجد إلى جوارها آثار سلبية قليلة، منها: أن ايواء الحبشة للمسلمين وطيب مقامهم بها أذكى نار الحقد لدى قريش، فضاعفت من حربها، ومكرها، وعداوتها، وكان من آثار ذلك حصار الشعب، الذي كان بعد هجرة الحبشة ــ على الراجح[1] .

(ب) الخروج للطائف :

مما ضاعف من أحزان النبي ﷺ ومتاعبه وزاد من غربته وفاة زوجه خديجة وعمه أبي طالب في عام واحد، فثقلت عليه ــ عليه السلام ــ الأرزاء والنوب، وبرحت بقلبه الآلام الجسام، ولكن أصحاب الدعوات الصادقة، يستعذبون العلقم في سبيل الله، ويستلذون التعب في مرضاته، ولا يلتفتون إلى الوراء، ولا يتوقفون، ولا يترددون، وإن كانوا يجهدون ويحزنون.

فيالله لهذا القلب العظيم الممتلىء بالإيمان، تهجم عليه الأحزان المتوالية هجوم الليل! فيثكل خديجة التي كانت خير ناصر له ومعين ــ بعد الله ــ، ثم يفجأ بوفاة عمه الذي كان يحوطه، ويحميه، ويحبه أشد الحب وأزكاه، ويضاعف من حزنه عليه ــ عليه الصلاة والسلام ــ أن مات كافرا!.

وتستغل قريش هذا فتزيد من إيذائها له وتضييقها عليه، وكان أبو لهب ــ خليفة أبي طالب ــ من أكثر الناس كراهية للدعوة وصاحبها، ومقتا وحقدا ودناءة!.

حتى كان يلاحق النبي ﷺ في الموسم، وفي الأسواق التجارية، ويرميه بالتراب والحجارة، ويقول: انه صابىء، كذاب، ويحذر الناس من اتباعه[2].

فتضيق به ﷺ مكة، ويخرج صوب الطائف يطلب النصرة، فماذا لقي؟.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: (٣٧٥/١) .

(٢) سبق تخريجه في الفصل الأول .

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[1]، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يالِيل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فأنطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[2]، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد! فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا[3].

---

(١) العقبة، المشهور أنها العقبة التي بويع عندها النبي ﷺ وهي التي ترمى منها الجمرة، بين منى ومكة، ولكن أنكر ذلك الزرقاني، لبعدها عن الطائف. انظر عمدة القاري (١٥/١٤٢)، شرح المواهب اللدنّية للزُرقاني (١/٢٩٧).

(٢) قرن الثعالب: هو ميقات أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل، وهو على مسيرة يوم وليلة من مكة.. انظر: الفتح: (٦/٣١٥).

(٣) الحديث رواه البخاري في: ٥٩ ــ كتاب بدء الخلق، ٧ ــ باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء: آمين.. (٤/٨١).
وفي: ٩٧ ــ كتاب التوحيد، ٩ ــ باب: وكان الله سميعا بصيرا: (٨/١٦٨) مختصرا.
ومسلم في: ٣٢ ــ كتاب الجهاد والسير، ٣٩ ــ باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١١١): (٣/١٤٢٠).
والنسائي في سننه الكبرى، ٤٤ ــ كتاب النعوت، ٣١ ــ السميع (ل: ١٠١ أ).
وأبو عوانة في: كتاب الجهاد، بيان الشدة التي أصابت النبي ﷺ يوم العقبة: (٤/٣٣٤،٣٣٦،٣٣٧).
واسم ابن عبد كُلال: كنانة، والذي في المغازي أن الذي كلم النبي ﷺ هو عبد يالِيل نفسه، وعند أهل النسب أن عبد كُلال أخوه لا أبوه، وأنه عبد يالِيل بن عمرو ابن عمير بن عوف. وكان من أكابر أهل الطائف من ثقيف.

فقد رد أهل الطائف النبي ﷺ وما جاء به ردّا قاسيا حتى خرج من عندهم حزينا، ورجع إلى مكة، فذُئِرَ أهلها، وزاد حنقهم وغيظهم، حتى لم يستطع ﷺ أن يدخل مكة إلا في جوار المطعم بن عدي، بعد أن التمس الجوار عند الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو فرفضا[1].

جـ ـ العرض على القبائل :

وبعد رجوعه ﷺ من الطائف، بدأ يعرض نفسه على القبائل، في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله عز وجل:

عن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضي الله عنه قال:

كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف، فقال: ألا رجل

= انظر: الفتح (٣١٥/٦).

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن خالد بن أبي جبل العدواني رضي الله عنه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، قال: فسمعته يقرأ: والسماء والطارق حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام. قال: فدعتني ثقيف، فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا لو كنا نعلم ما يقول حقا لتبعناه: (٣٣٥/٤).

ونسبه ابن حجر في الإصابة لأحمد ولابن أبي شيبة وابن خزيمة في صحيحه والطبراني وابن شاهين من طريق عبدالله بن عبدالرحمن الطائفي عن عبدالرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه.

وعبدالله بن عبدالرحمن: صدوق يخطيء ويهم. انظر: التقريب: (٤٢٩/١). والتهذيب: (٢٩٨/٥).

أما عبدالرحمن بن خالد فقال الحسيني: مجهول، وقال ابن حجر: صحّح ابن خزيمة حديثه ومقتضاهأن يكون عنده من الثقات، تعجيل المنفعة: ص (٢٤٨). وانظر: الاصابة، ترجمة رقم (١٤٢٨) ــ (٥٢/٣).

(١) السيرة النبوية: لابن كثير (١٥٣/٢) .

يحملني إلى قومه؟ فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي[1].

وفي رواية الإمام أحمد قال:

« فأتاه رجل من همدان، فقال: ممن أنت؟ فقال الرجل: من همدان. قال: فهل عند قومك من منعة؟ قال: نعم.

قال: ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم فأخبرهم، ثم آتيك من عام قابل. قال: نعم فانطلق، وجاء وفد الأنصار في رجب»[2].

---

(١) رواه أبو داود في: ٣٤ ــ كتاب السنة، ٢٢ ــ باب في القرآن، رقم (٤٧٣٤)، (١٠٣/٥).
والترمذي في: ٤٦ ــ كتاب فضائل القرآن، ٢٤ ــ باب: رقم (٢٩٢٥)، (١٨٤/٥).
وقال: هذا حديث غريب صحيح، وفي نسخة التحفة: حسن صحيح (١٧٥/٢).
والنسائي في سننه الكبرى: ٤٤ ــ كتاب النعوت، ٤٦ ــ كلمات الله سبحانه وتعالى: (ل ١٠١ أ).
وابن ماجة: المقدمة، ١٣ ــ باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (٢٠١) (٧٣/١).
والدارمي في: ٢٣ ــ ومن كتاب فضائل القرآن، ٥ ــ باب القرآن كلام الله، رقم (٣٣٥٥)، (٣١٧/٢).
والإمام أحمد في مسنده: (٣٩٠/٣) .
كلهم من طريق إسرائيل، حدثنا عثمان بن المغيرة، عن سالم، عن جابر.
وإسرائيل هو ابن يونس بن أبي إسحق السبيعي: ثقة. انظر: التهذيب (٢٦١/١)، التقريب: (٦٤/١).
وعثمان هو ابن أبي زرعة الثقفي: ثقة. انظر: التهذيب: (١٥٥/٧) والتقريب: (١٤/٢).
وسالم بن أبي الجعد: ثقة، ومضى.
فالحديث ــ بهذا الاسناد ــ صحيح .

(٢) المسند: (٣٩٠/٣)، قال: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل فذكره.
وأسود بن عامر: ثقة. انظر: التهذيب: (٣٤٠/١)، التقريب (٧٦/١). =

وواضح من عرض الرسول ﷺ أنه يلتمس الايواء والنصرة والحماية، وأن يجد من العرب من يمكنه من إعلان دعوته في جو آمن هادىء.

وهذه خطوة كبيرة، في مواجهة غربة الإسلام وأهله .

فالمواسم التجارية ومواسم الحج تجتمع فيها قبائل العرب كافة، وكون الرسول ﷺ يعرض بضاعته السماوية عليهم في ملئهم أمر في غاية الأهمية للدعوة حيث يفتح مجالا واسعا لنشرها، ورفع شأن أهلها، وهو في غاية الإزعاج لقريش، إذ لا يبعد أن يجد من بعض القبائل آذانا صاغية، فتستجيب لدعوته ــ وهذا ما حدث فعلا ــ، وقريش تدرك جيدا معنى هذا، وأنه يعني انعتاق الدعوة من القمقم الذي كبلتها فيه، وقيام دولة الإسلام التي ستنتزع منها السلطان الديني، وتحاربها حتى تؤمن بالله ورسوله، وتخضع لحكم الإسلام.

وإذا كان من الواضح علاقة العرض على القبائل بالجهر بالدعوة، فإن هذه المرحلة من علنية الدعوة، والتماس الناصر لها، هي مرحلة مهمة، وتحول كبير في مسار الدعوة، ولذلك خلعت قريش جلباب الحياء والمروءة يوم راح بعض رجالاتها يلاحقون الرسول ﷺ في الأسواق والمواسم ويومئون إليه، ويرمونه بالكذب، ويحذرون العرب من اتباعه.

وكان من الآثار العظيمة لهذه المرحلة: لقيا الرسول ﷺ، للأنصار، وبيعتا العقبة، ثم الهجرة وتكوين الدولة.

٣ ــ فرض الدعوة ـ بطريقة تدريجية ـ باعتبارها أمرا واقعا :

وخلال مكث الدعوة بمكة، وعلى رغم العنت الذي تلقاه هناك، ورغم الضعف والقلة والذلة، فإنها كانت تنازل الجاهلية وتصارعها، وتخطو في ذلك

= .وقد سبق الحديث من طريق أخرى عن جابر ــ بنحوه ــ، وسيأتي قريبا بسياق طويل في خبر البيعة.

خطوات ثابتة، هادئة، لا تعرف التراجع، بل تتقدم باستمرار.

ومن أبرز الأعمال الحكيمة الجريئة التي كان يعملها المسلمون، في مواجهة الغربة المحيطة بهم: التدرج في فرض الدعوة باعتبارها أمرا واقعا في مكة لا يمكن تجاهله، واختطاط مجرى ثابت للإسلام.

وهذا لا يمكن أن يتم بسهولة، ولكنه يمكن أن يتم، ولنعرض الآن لبعض النماذج التي توضح ذلك لتظهر النتيجة وكيف صارت قريش تنظر إلى الدعوة.

فبعد أن أعلن الرسول ﷺ دعوته صار المسلمون يحرصون بين الفينة والفينة أن يستعلنوا بصلاتهم، أو قراءتهم للقرآن، أو أن يعلن الفرد الداخل إسلامه على الملأ، أو أن يخرجوا في مجموعة واحدة تظهر الإسلام وتصرخ به في أرجاء مكة.

ففي حديث عائشة في قصة أبي بكر وخروجه من مكة، وإرجاع ابن الدغنة له، قالت: .. فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذف إليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكّاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجدا بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا، وأبناءنا، فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنّا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي؛ فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفِرت في رجل عقدت له! فقال أبو بكر: فإني أرد إليك

- جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل[1]..

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ (فساق الحديث وفيه قصة إسلام أبي ذر إلى قوله): فقال له النبي ﷺ: ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري. قال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم! فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله!.

ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبّ عليه، قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار؟ وأن طريق تجاركم إلى الشام؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكب العباس عليه[2].

---

(١) سبق أول الحديث المتعلق بخروج أبي بكر من مكة ولقي ابن الدَّغِنة له، وإجارته، وهذا القدر من الرواية موجود في: البخاري: (٤/٢٥٤)، (٣/٥٨-٥٩).
والمصنف لعبد الرزاق: (٥/٣٨٥-٣٨٦)، وهو مختصر في البخاري أيضا: (١/١٢٢).

(٢) روى البخاري في: ٦١ ــ كتاب المناقب، ١١ ــ باب قصة زمزم: (٤/١٥٨-١٥٩).
وفي: ٦٣ ــ فضائل الأنصار، ٣٣ ــ باب إسلام أبي ذر: (٤/٢٤١).
وفي: ٩٧ ــ كتاب التوحيد، ٢٣ ــ باب قول الله تعالى: تعرج الملائكة والروح إليه.. (٨/١٧٧)، معلقا مختصرا.
ورواه مسلم في: ٤٤ ــ كتاب فضائل الصحابة، ٢٨ ــ باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه رقم (١٣٣): (٤/١٩٢٣).
وأبو نعيم في الحلية، في ترجمة أبي ذر، رقمها (٢٦): (١/١٥٨).
والطبراني في الكبير، رقم (١٢٩٥٩): (١٢/٢٢٦).
ووردت القصة عن أبي ذر نفسه رضي الله عنه في:
مسلم في: ٤٤ ــ كتاب فضائل الصحابة، ٢٨ ــ باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه رقم (١٣٢): (٤/١٩١٩).
وأحمد في المسند: (٥/١٧٤).

=

وقد يظهر من صنيع أبي ذر رضي الله عنه العفوية وعدم القصد والتخطيط، ولكن هذه الحادثة وأمثالها بدأت تفرض على قريش الشعور بأن الإسلام واقع نام متزايد، لا سبيل إلى تجاهله، وإن لجت في طغيانها حينا من الدهر.

وكان لإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين، وتوهين موقف قريش، إذ كان عمر من أشد الناس على المسلمين، وأكثرهم ضراوة في حرب الإسلام ــ بما عرِف عنه من القوة والبأس ــ فلما أسلم، وصارت قوتِه ردءا للمسلمين، ترنح موقف المشركين واهتز، وقوى به المسلمون، وعز جانبهم.

عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما في خبر إسلام أبيه قال:

بينما هو في الدار خائفا إذ جاءه العاص بن وائل السهمي، أبو عمرو، عليه حلةٌ حِبَرَةٌ، وقميص مكفوف بحرير، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية،

= وابن أبي شيبة في المصنف: كتاب المغازي، (٢٤١٣) ــ إسلام أبي ذر، رقم (١٧٤٤٧)، (٣١٥/١٤).
وأبو نعيم في الدلائل، ذكر إسلام أبي ذر: ص (٢٠٧) .
وفي الحلية، في ترجمة أبي ذر، رقمها (٢٦)، (١٥٧/١).

(١) رواه البخاري في: ٦٣ ــ كتاب فضائل الأنصار، ٣٥ ــ باب إسلام عمر: (٢٤٢/٤).
وفي: ٦٢ ــ فضائل الصحابة، ٦ ــ باب مناقب عمر: (١٩٩/٤).
والإمام أحمد في فضائل الصحابة، إسلام عمر بن الخطاب، رقم (٣٦٨): (٢٧٧/١).
والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٨٨٢١،٨٨٢٢،٨٨٢٣)، (١٨٢/٩).
وابن سعد في الطبقات، في ترجمة عمر: (٢٧٠/٣).
والحاكم في المستدرك ــ كتاب معرفة الصحابة، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، (٨٤/٣) وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

فقال له: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني، أن أسلمت! قال: لا سبيل إليك.

بعد أن قالها أمنت[1]، فخرج العاص، فلقى الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ، قال: لا سبيل إليه. فكر الناس[2].

ورواية الحاكم للقصة ذات دلالة قوية على المقصود، وفيها:

«قاتل عمر المشركين في مسجد مكة، فلم يزل يقاتلهم منذ غدوة حتى صارت الشمس حيال رأسه[3]! قال: وأعيى وقعد، فدخل عليه رجل عليه برد أحمر وقميص قومَسِيٌّ، حسن الوجه، فجاء حتى أفرجهم، فقال: ما تريدون من هذا الرجل؟ قالو: لا والله إلا أنه صبأ، قال: فنعم. رجل اختار لنفسه دينا، فدعوه وما اختار لنفسه، ترون بني عدي ترضى أن يقتل عمر؟ والله لا ترضى بنو عدي قال: وقال عمر يومئذ: يا أعداء الله! والله لو قد بلغنا بثلاث مائة لقد أخرجناكم منها»[4].

---

(١) قائل هذا: عمر رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في: ٦٣ ــ كتاب فضائل الأنصار، ٣٥ ــ باب إسلام عمر (٢٤٢/٤). بلفظين هذا أحدهما.

(٣) من الظاهر أن هذه المقاتلة تعني المدافعة باليد ونحوها، وليس بالسيف.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، كتابة معرفة الصحابة، عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٨٥/٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه ابن إسحق في السير والمغازي بسياق نحو سياق الحاكم، في إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ص ١٨٤-١٨٥) قال: حدثني نافع عن ابن عمر..
وإسناده (أعني إسناد ابن إسحق) حسن لتصريحه بالتحديث ونافع: ثقة ومضى، وإن كان في إسناده الحاكم قد عنعن، وأدخل عند الحاكم بينه وبين نافع مواسطة وهو عبيدالله ابن عبدالله بن عمر وهو ثقة إمام وأحد الفقهاء السبعة، انظر: التهذيب: (٧ /٣٨)، التقريب (١ /٥٣٧).
وقال ابن كثير عن إسناد ابن إسحق: وهذا إسناد جيد قوي. السيرة: (٣٩/٢).
وقال الحاكم عن إسناده: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وفي رواية ابن إسحاق في السير والمغازي ـ بإسنادٍ حسن ـ اختيار عمر لجميل بن معمر الجمحي وكان ممن يشيع الحديث وإخباره بإسلامه، ومبادرة قريش لعمر بالقتال حتى عيّ وجلس وهم مُعَرِّشون على رأسه قيام وهو يقول: اصنعوا ما بدا لكم، فأقسم بالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم[1]..!

ولا يمكن التقليل من أهمية الحلف الذي دفع العاص بن وائل إلى حماية عمر والدفاع عنه، ولكن ثمت أمر آخر سرى في قريش كلها، هو الشعور بأهمية الإسلام، وأن القضية لم تعد قضية أفراد مستضعفين، يصهرون بالرمضاء، ويعذبون بغير حق.. فهاهم صناديد الكفر يتراجعون، ويسلمون، ويتابعون محمداً ﷺ ثم لا يرضون حتى يعلنوها مدوية في أرجاء مكة، ويهددون قريشاً بأنهم سيفاصلونهم، ويزايلونهم، حتى يخرج الأضعف منهما من مكة! .

ولا شك أن تكرار الحادثة ـ أيَّ حادثة ـ يقلل من غرابتها ويجعلها طَبَعية معتادة، ويفتح أمام كثير من الأذهان مجال إعادة النظر في المواقف المعارضة المتعنتة .

وسبق إسلامَ عمر إسلامُ حمزة بن عبدالمطلب وكان عزيزاً منيعاً في قومه، فعز به الرسول ﷺ وامتنع، وعرفت قريشٌ أن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[2] .

عن الأرقم ـ وكان بدرياً ـ رضي الله عنه، وكان رسول الله ﷺ ـ آوى في داره عند الصفا حتى تكاملوا أربعين رجلاً مسلمين، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب رضي الله عنهم فلما كانوا أربعين خرجوا إلى المشركين[3] .

---

(١) سبق تخريجها قبل قليل .

(٢) انظر: سيرة ابن هشام: (١/٣١١ـ٣١٢) .

(٣) رواه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة، ذكر الأرقم بن أبي الأرقم (٣/٥٠٤) . وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي .
وإسناد الحديث محتمل للتحسين: فيه أسد بن موسى وثقه النسائي وابن قانع والبزار وابن حبان وغيرهم، وقال ابن حزم: منكر الحديث وقال ابن حجر: صدوق يغرب، وقال الذهبي: ما علمت به بأساً تهذيب التهذيب: (١/٢٦٠)، والتقريب: (١/٦٣)، الميزان: (١/٢٠٧). =

ولعل المقصود بهؤلاء الأربعين من لم يهاجر إلى الحبشة، وإلا فالمسلمون قبل عمر يزيدون على ضعف هذا العدد[1] .

وليس بدعاً أن تقع هذه المصادمات مع المشركين من عمر، فمثل عمر في قوة شكيمته، وشدة طبعه، وقوته في الحق، لا يملك السكون على الباطل ساعة من نهار، ولا يملك الصمت أو الاستسرار .

والإشارة إلى هذه الأحداث من إسلام عمر وحمزة، وإعلان عدد من الصحابة لإيمانهم، وفشو أخبار المسلمين، وتحولها إلى أخبار شبه مألوفة في بيئة مكة، وأنها سببت لقريش الإذعان للأمر الواقع، لا يعني أن قريشاً ألقت السلاح واستسلمت، كلا. بل لقد دعاها كبرياؤها إلى خطة أكثر خبثاً وأوسع وأشمل، وهي خطة الحصار في الشعب[2]، ولكن هذا العمل يخفي وراءه نفسياتٍ مهتزةً تتخوف كل ساعة أن تفاجأ بإسلام رجل من رجالات قريش .

بل لعل إقدام قريش على هذا العمل دليل على تضاعف شعورها بخطر الإسلام وازدياد مخاوفها منه[3] .

= وفيه عطاف بن خالد المخزومي قال أحمد: صحيح الحديث، وقال ليس به بأس، وقال ابن معين: ليس به بأس ثقة صالح الحديث وتكلم فيه مالك، وقال ابن حجر: صدوق يهم، التهذيب (٧/٢٢١)، والتقريب: (٢/٢٤) .

وفيه عثمان بن عبدالله بن الأرقم، ترجم له البخاري في التاريخ ولم يذكر جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات، وخلط ابن حجر في التعجيل، بينه وبين عثمان بن الأرقم بن أبي الأرقم، وصنيع البخاري وابن حبان وغيرهما يقتضي أنهما اثنان. والله تعالى أعلم .

انظر: التاريخ الكبير: (٢١٤٩٦)، رقم الترجمة (٢٢٠١)، (٦/٢٣٢)، رقم الترجمة (٢٢٥٩) .

والثقات لابن حبان: (٧/١٩٨)، (٥/١٥٧)، وتعجيل المنفعة: ص (٢٨٢) ترجمة رقم (٧٢١)، وذكر بعضهم أن له ترجمة في الميزان ولم أقف عليها .

(١) انظر: رأي ابن كثير في: السيرة له: (٢/٣٣) .

(٢) تقدمت في الفصل الثاني، المتعلق بمظاهر الغربة الأولى .

(٣) وانظر: رواية الزهري التي تفيد أن دخول بني هاشم وبني عبدالمطلب كان باختيارهم =

ولعلها الصرخة المدوية الأخيرة من قريش في وجه الإسلام الزاحف! وما بعدها إنما هي صرخات واهنة ضعيفة، أو رجع أصداء لتلك الصرخة المدوية .

ولا شك أن المتأمل يجد فرقاً هائلاً بين طبيعة المواجهة مع الإسلام في سنيه الأولى وبينها في السنة التاسعة وما بعدها ـ حيث انضم عمر ـ بعد حمزة إلى ركب الإيمان. وفشا أمر الإسلام ـ نسبياً ـ في مكة .

٤ ـ بيعة الأنصار، والهجرة، وبناء الدولة :

على رغم ما تقدم من نماذج ظهور الدعوة، إلا أن الطابع العام أنّ المؤمنين بالدعوة كانوا نُزّاعا من القبائل متفرقين، وكانوا غرباء بين قومهم يعانون من آلام الغربة ما يعانون ـ على مواجهاتهم السابقة لها، وتخفيفهم من حدتها ـ، وكان قائدهم محمد ﷺ كذلك غريباً بين أهله وعشيرته ـ مع حماية الله له، وانتشار دعوته بعض الإنتشار ـ ذلك أن لم يكن للإيمان وطن يفيء إليه، ولا للمؤمنين قبيلة تدفع عنهم، وتحميهم. فكان النبي ﷺ يوصي من أسلم من خارج مكة خاصة أن ينتظر ظهوره عليه السلام، فإذا سمع باستقراره بمهجر فليأت إليه، كما في حديث عمرو بن عبسة وأبي ذر ـ رضي الله عنهما[(١)] .

وكان ﷺ معنياً بالبحث عن قبيلة تسمح بنشر الدعوة بين ظهرانيها، أو تعلن إيمانها بالدعوة وحمايتها لها، ومن أجل ذلك كان يعرض نفسه على القبائل .

وكان من توفيق الله لدعوته أن المدينة المنورة كانت تعيش ظروفاً خاصة ترشحها لاحتضان دعوة الإسلام، وتجتمع فيها عناصر عديدة، لا تجتمع في غيرها :

(أ) منها التشاحن والتطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة: الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بعاث وغيره .

وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم، ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف

= لحماية الرسول ـ ﷺ ـ سيرة ابن كثير: (٢/٤٣) .
وقريب منه رأي الإمام الخطابي، كما في كتاب العزلة له ص (٨) .

(١) سبق تخريج حديث أبي ذر قبل صفحات، أما حديث عمرو فسبق في الفصل الثاني .

وغيرهما حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبق إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله .

فكان يوم بعاث أمراً قدّمه الله تعالى لنبيه ﷺ، فقدم وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم، وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ، في دخولهم في الإسلام - كما تقول عائشة رضي الله عنها[1] .

(ب) ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم - ولو يسير - بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم - في مجتمعهم - يعايشون هذه القضية في حياتهم اليومية، وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب، وإنما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرقة عن الرسالات والوحي الإلهي، دون أن تلح عليها هذه المسألة، أو تشغل تفكيرها باستمرار .

وكان اليهود يهددون الأوس والخزرج بنبي قد أظل زمانه، ويزعمون أنهم سيتبعونه، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم!، مع أن الأوس والخزرج كانوا أكثر من اليهود[2] .

وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه، فقال:

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا. فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾[3] .

وكان الأوس والخزرج قد علوا اليهود دهراً في الجاهلية، وهم أهل الشرك، وهؤلاء أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبياً قد أظل زمانه، يقتلكم قتل عاد وإرم[4] .

---

(١) رواه البخاري في: ٦٣ - مناقب الأنصار، ١ - باب مناقب الأنصار (٢٢١/٤) .
٢٧ باب القسامة في الجاهلية: (٢٣٧/٤) .
٤٦ باب مقدم النبي - ﷺ - وأصحابه المدينة (٢٦٥/٤) .

(٢) انظر: فتح الباري: (٢٢٠/٧)، والسيرة النبوية لابن كثير: (١٧٦/٢) .

(٣) سورة البقرة: رقم الآية ٨٩ .

(٤) تفسير الطبري: (٤١٠/١)، وانظر: الدر المنثور: (٢١٥/١) .

فلما أراد الله إتمام أمره، بنصر دينه، قيض ستة نفر من أهل المدينة، للنبي ﷺ فالتقى بهم عند العقبة ـ عقبة منى ـ فعرض عليهم الإسلام، فاستبشروا وأسلموا، وعرفوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشوا ذكر النبي ﷺ في بيوتها[1]. وكان هذا هو «بدء إسلام الأنصار» ـ كما يسميه أهل السير[2] .

حتى إذا كان العام التالي وافى الموسم ضعف العدد الأول ـ اثنا عشر رجلاً من المؤمنين فبايعهم النبي ﷺ على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوه في معروف .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال :

إني لمن النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ وقال: بايعناه على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نزني، ولا نسرق، ولا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا ننتهب، ولا نعصي. فالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غشينا[3] من ذلك شيئاً كان قضاء ذلك إلى الله[4] .

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام: (٢/٧٠ـ٧٣)، والسيرة النبوية لابن كثير: (٢/١٧٧ـ١٧٨)، وفي المصادر تحديد أسماء هؤلاء الستة .

(٢) انظر: السيرة لابن هشام: (٢/٧٠)، وبعضهم يسميها العقبة الأولى، وعلى هذا تكون العقبات ثلاثاً. انظر: الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبدالبر: ص (٣٨)، وعيون الأثر لابن سيد الناس: (١/١٥٥) .

(٣) أي أصبنا وارتكبنا .

(٤) رواه البخاري: ٢ ـ كتاب الإيمان، ١١ ـ باب: (١/١٠)

وفي: ٦٣ ـ مناقب الأنصار، ٤٣ ـ باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة: (٤/٢٥٢) .

وفي: ٦٤ ـ كتاب المغازي، ١٢ ـ باب: (٥/١٤) .

وفي: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٦ ـ سورة الممتحنة، ٣ ـ باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك: (٦/٦٠) .

وفي: ٨٦ ـ كتاب الحدود، ٨ ـ باب الحدود كفارة: (٨/١٥) . =

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول ﷺ عليها النساء فيما بعد، ولذلك عرفت باسم «بيعة النساء»[1] .

= وفي: ٩٣ ـ كتاب الأحكام، ٤٩ ـ باب بيعة النساء: (١٢٥/٨) .
وفي: ٩٧ ـ كتاب التوحيد، ٣١ ـ باب في المشيئة والإرادة: (١٩١/٨) .
وفي: ٨٧ ـ كتاب الديات، ٢ ـ باب قول الله تعالى: ومن أحياها (٣٥/٨) .
ومسلم في: ٢٩ ـ كتاب الحدود، ١٠ ـ باب الحدود كفارات لأهلها رقم (٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤)، (١٣٣٣/٣)، واللفظ له .
والترمذي في: ١٥ ـ كتاب الحدود، ١٢ ـ باب ما جاء أن الحدود كفارة لأهلها، رقم (١٤٣٩)، (٤٥/٤) .
وقال: حديث عبادة بن الصامت حديث حسن صحيح .
والنسائي في: ٣٩ ـ كتاب البيعة، ٩ ـ باب البيعة على الجهاد (١٤١/٧ـ١٤٢)، ١٧ ـ البيعة على فراق المشرك: (١٤٨/٧)، ٣٨ ـ ثواب من وفى بما بايع عليه: (١٦١/٧) .
وفيه: ٤٧ ـ كتاب الإيمان وشرائعه، ١٤ ـ البيعة على الإسلام: (١٠٨/٨) .
وفي سننه الكبرى: ٤٠ ـ كتاب الرجم، ٣١ ـ الترغيب في ستر العورة (ل:٩٥ب) .
وروى طرفاً منه: ابن ماجه في: ٢٠ ـ كتاب الحدود، ٣٣ ـ باب الحد كفارة، رقم (٢٦٠٣)، (٨٦٨/٢) .
والدارمي في: ١٧ ـ ومن كتاب السير، ١٧ ـ باب في بيعة النبي ﷺ، رقم (٢٤٥٧)، (١٣٩/٢) .
وأحمد في المسند: (٣١٣/٥، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٣) .
وابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام، في العقبة الأولى، (٧٥/٢) .
وابن سعد في ذكر العقبة الأولى: (٢٢٠/١) .
والطبري في التاريخ: (٣٥٦/٢) .
والبيهقي في الدلائل، باب ذكر العقبة الأولى (٤٣٦/٢، ٤٣٧) .
ونسبه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن مردويه.. وابن المنذر. تفسير سورة الممتحنة: (١٣٩/٨) .

(١) انظر: فتح الباري: (٢٢٢/٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (١٧٩/٢)، حيث قال: «..يعني على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك، عام الحديبية، وكان هذا مما نزل =

ولذلك جاء في رواية ابن إسحاق لحديث عبادة بإسناده: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ـ ﷺ ـ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئاً... الحديث[1] .

وقد بعث الرسول ـ ﷺ ـ مع المبايعين مصعب ابن عمير يعلمهم الدين، ويقرؤهم القرآن، فكان يسمى بالمدينة «المقرىء»، وكان يؤمهم في الصلاة[2] .

ولقد اختاره الرسول ـ ﷺ ـ عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان ـ رضي الله عنه ـ بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة، والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، قدراً كبيراً، فضلاً عن

= على وفق ما بايع عليه أصحابه، ليلة العقبة، وليس هذا عجيباً، فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب في غير ما موطن.. وإن كانت هذه البيعة وقعت عن وحي غير متلو فهو أظهر» .

(١) سيرة ابن هشام: (٧٥/٢)، وتاريخ الطبري: (٣٥٦/٢)، قال ابن إسحاق حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبدالله اليزني، عن عبدالرحمن بن عسيلة الصنابحي، عن عبادة .

ويزيد: ثقة، انظر التهذيب (٣١٨/١١)، والتقريب (٣٦٣/٢) .

ومرثد: ثقة، انظر التهذيب (٨٢/١٠)، التقريب (٢٣٦/٢) .

وعبدالرحمن بن عسيلة: ثقة، انظر التهذيب (٢٢٩/٦)، التقريب (٤٩١/١) .

فالإسناد حسن .

(٢) انظر: السيرة لابن هشام: (٧٦/٢)، والسيرة لابن كثير: (١٨٠/٢)، وأضاف بعضهم عبدالله بن أم مكتوم، انظر الدرر: ص (٣٩)، وعيون الأثر: (١٥٨/١) .

ويشهد لمقدمهما جميعاً قول البراء: أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم فجعلا يقرآننا القرآن .

رواه البخاري في: ٦٣ ـ مناقب الأنصار، ٤٦ ـ باب مقدم النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه المدينة (٢٦٣/٤) .

وفي: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٨٧ ـ سورة سبح اسم ربك الأعلى (٨٢/٦) .

وعزاه المزي للنسائي. التحفة: (٥٥/٢) .

قوة إيمانه، وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم[1] .

ولما أقبل الموسم خرج عدد كبير من المسلمين في حجاج قومهم، وواعدوا رسول الله ـ ﷺ ـ الشعب الذي عند جمرة العقبة، والتقى به ما يزيد على السبعين منهم لقاءاً سرياً، وكانت الصورة في أذهان المبايعين أكثر وضوحاً حيث أدركوا ـ بعمق ـ معنى بيعتهم للرسول ـ ﷺ ـ وأنها مفاصلة للعرب كافة، بل للناس كافة، وتعرض للقتال والقتل، فهي ـ بلغة العصر ـ «بيعة مصيرية» .

وكانت بنودها كما يلي :

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: دعانا النبي ـ ﷺ ـ فبايعنا فقال ـ فيما أخذ علينا ـ: أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا، ومكرهنا، وعسرنا، ويسرنا، وأثرةٍ علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان .

وفي رواية: «وأن نقول بالحق حيثما كان لا نخاف في الله لومة لائم»[2] .

---

(١) انظر: ابن هشام (٢/٧٧ـ٨٠)، وعيون الأثر: (١/١٥٨ـ١٦١) .

(٢) رواه البخاري في: ٩٢ ـ كتاب الفتن، ٢ ـ باب قوله ﷺ سترون بعدي أموراً تنكرونها: (٨/٨٨)، وهذا لفظه .

وفي: ٩٣ ـ كتاب الأحكام، ٤٣ ـ باب كيف يبايع الإمام الناس: (٨/١٢٢) .

ومسلم في: ٣٣ ـ كتاب الإجارة، ٨ ـ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية..، رقم (٤١، ٤٢)، (٣/١٤٧٠) .

والنسائي: في ٣٩ ـ كتاب البيعة، ١ ـ باب البيعة على السمع والطاعة: (٧/١٣٧، ١٣٨) .

٢ ـ باب البيعة على ألا ننازع الأمر أهله: (٧/١٣٨) .

٣ ـ باب البيعة على القول بالحق: (٧/١٣٩) .

٤ ـ باب البيعة على القول بالعدل: (٧/١٣٩) . =

وقد تضمنت شروط البيعة ـ أيضاً ـ البيعة على أن ينصروا النبي ـ ﷺ ـ إذا قدم عليهم «يثرب» وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم[1] وكانت هذه البيعة تسمى: بيعة الحرب، وهي تسمية معبرة ذات دلالة عميقة .

وقد روى ابن إسحاق عن عبادة قال: بايعنا رسول الله ـ ﷺ ـ بيعة الحرب، على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثره علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم[2] .

وثمت رواية مهمة جمعت أخبار البيعتين .

وهي رواية جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ لبث عشر سنين يتبع

---

(١) ٥ ـ باب البيعة على الأثرة: (١٣٩/٧) .
وفي الكبرى: ٥٠ ـ كتاب السير، ٧٩ ـ البيعة: (ل١١٦أ) .
وابن ماجه في: ٢٤ ـ كتاب الجهاد، ٤١ ـ باب البيعة، رقم (٢٨٦٦) ـ (٩٥٧/٢).
والإمام أحمد في المسند: (٣١٦/٥، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٥) .
وأبو عوانة في مسنده، كتاب الأمراء، باب حظر منازعة الإمام (٤٥٤/٤، ٤٥٥، ٤٥٦)، ثم باب الخبر الدال على إباحة منازعة الإمام إذا ظهر منه الكفر: (٤٥٦/٤) .
وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام، في: شروط البيعة في العقبة الأخيرة: (٩٧/٢) .
وخرج طرفاً منه: الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، في مناقب عبادة بن الصامت: (٣٥٦/٣) .
والزيادة: (وأن نقول..) عند جميع المخرجين .

(١) في رواية المسند: (٣٢٥/٥) وغيرها .

(٢) سيرة ابن هشام: شروط البيعة في العقبة الأخيرة: (٩٧/٢)، وقد رواه ابن إسحاق من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة، عن أبيه، عن جده ومن طريقه رواه الإمام أحمد: (٣١٦/٥) .
وعبادة: ثقة، انظر التهذيب (١١٤/٥)، والتقريب: (٣٩٦/١) .
والوليد: ثقة أيضاً، انظر التهذيب (١٣٧/١١)، التقريب (٣٣٣/٢) .
وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، فالإسناد حسن .

الناس في منازلهم في الموسم ومجنة[1] وعكاظ[2]، ومنازلهم من منى: من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة، فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو من اليمن إلى ذي رحمه، فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتننك، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله من يثرب، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به، ويقرؤه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، وبعثنا الله إليه فائتمرنا واجتمعنا وقلنا: حتى متى رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف؟ .

فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا بيعة العقبة، فقال له عمه العباس يا ابن أخي لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس في وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث!! فقلنا: يارسول الله، علامَا نبايعك؟ قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة، فقمنا نبايعه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو أصغر السبعين ـ إلا أنه قال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم وأن يعضّكم السيف[3] .

---

(١) مجنة: بفتح الميم والجيم وتشديد النون ـ اسم سوق للعرب في الجاهلية بمر الظهران بأسفل مكة على قدر بريد منها. انظر: معجم البلدان: (٥/٥٨) .

(٢) عكاظ: بضم العين وتخفيف الكاف، وهو اسم سوق لهم أيضاً وهو نخل بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال. انظر: معجم البلدان: (٤/١٤٢) .

(٣) العض: إمساك الشيء بالأسنان، ويقصد به هنا: الحرب والشدة.
انظر: القاموس المحيط: (٢/٣٤٩)، الفائق في غريب الحديث للزمخشري: (٢/٤٤٣ـ٤٤٤) .

فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، ومفارقة العرب كافة، فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خِيفةً فذروه فهو عذر عند الله ـ عز وجل ـ !

فقالوا: ياسعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها، قال: فقمنا إليه، رجلاً رجلاً، فأخذ علينا، ليعطينا بذلك الجنة[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: (٣/٣٢٢)، وفيه: تخافون من أنفسكم جُبَينة، وكذلك: (٣/٣٣٩ـ٣٤٠). وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. المجمع: (٦/٤٦) .
والبزار ـ كما في كشف الأستار ـ كتاب الهجرة والمغازي، باب البيعة على الحرب رقم (١٧٥٦) (٢/٣٠٧) .
وابن حبان كما في الموارد ٢٧ ـ كتاب المغازي، ٢ ـ باب البيعة على الحرب، رقم (١٦٨٦) ص (٤٠٨) .
والحاكم في المستدرك: كتاب التاريخ: (٢/٦٢٤) .
وقال: هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .
والبيهقي في الدلائل، باب ذكر العقبة الثانية (٢/٤٤٢) .
وفي السنن، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة (٩/٩) .
من طريق عبدالرزاق، عن معمر، عن ابن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر .
وسبق الكلام على هذه الطريق :
وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد، على شرط مسلم، ولم يخرجوه. السيرة النبوية: (٢/١٩٦) .
وله شاهد عند ابن سعد في ترجمة أسعد بن زرارة: (٣/٦٠٩)، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، وهو مرسل ضعيف، فيه علي ابن زيد بن جُدعان، ضعفه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيره، وقال يعقوب بن شيبة: ثقة صالح الحديث وإلى اللين ما هو، وقال الترمذي: صدوق .
وقال الذهبي: أحد الحفاظ وليس بالثبت، وقال ابن حجر: «ضعيف».
الجرح والتعديل: (٩/١٨٦)، السير: (٥/٢٠٦)، التهذيب: (٧/٣٢٢)، التقريب: (٢/٣٧) .
ولجميع فقرات الحديث شواهد أخرى سبق بعضها، في الفصل الأول المتعلق بأسباب الغربة، وفي الفصل الثاني المتعلق بمظاهر الغربة .

وقد ساق ابن إسحاق رواية طويلة عن كعب بن مالك في خروج حجاج الأنصار المسلمين، مع قومهم المشركين واستقبال البراء بن معرور ـ رضي الله عنه ـ للكعبة، وقول الرسول ـ ﷺ ـ له: لقد كنت على قبلة، لو صبرت عليها، وفيها تفصيلات وافية مفيدة لأحداث البيعة .

قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ـ ﷺ ـ العقبة، من أوسط أيام التشريق، قال: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ـ ﷺ ـ لها، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام، أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه، أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ـ ﷺ ـ إيانا العقبة، قال: فأسلم، وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً .

قال: فنمنا تلك الليلة، مع قومنا، في رحالنا، حتى إذا مضى ثلثُ الليل، خرجنا من رحالنا، لميعاد رسول الله ـ ﷺ ـ نتسلل تسلل القطا، مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب، عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي ابن نابي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع .

قال: فاجتمعنا في الشعب، ننتظر رسول الله ـ ﷺ ـ حتى جاءنا، ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب، فقال: يامعشر الخزرج ـ قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها، وأوسها،: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، فقلنا له: قد سمعنا ما قلت،

فتكلم ـ يارسول الله ـ فخذ لنفسك، ولربك ما أحببت .

قال: فتكلم رسول الله ـ ﷺ ـ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم. والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا ـ يارسول الله ـ فنحن ـ والله ـ أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر .

قال: فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ـ ﷺ ـ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يارسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال: بل الدمُ الدمُ، والهدمُ الهدمُ[1]، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم .

قال كعب بن مالك: وقد كان قال رسول الله ـ ﷺ ـ أخرجوا إلي منكم اثنى عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس[2] .

---

(١) قال ابن هشام: ويقال: الهدم الهدم، يعني الحرمة، أي: ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم. السيرة: (٨٥/٢) .

(٢) رواه ابن إسحاق، كما في السيرة لابن هشام: أمر العقبة الثانية (٨١/٢ـ٨٥)، قال: حدثني معبد بن كعب بن مالك، أن أخاه عبدالله بن كعب ـ وكان من أعلم الأنصار ـ حدثه، أن أباه كعباً حدثه وكان كعب ممن شهد العقبة، وبايع رسول الله ـ ﷺ ـ بها .
ومن طريقه الإمام أحمد في المسند: (٤٦٠/٣) .
وفي فضائل الصحابة: فضائل العباس: (٩٢٣/٢) مختصراً .
والطبري في التاريخ: (٣٥٧/٢ـ٣٦٣) .
وابن حبان في: مناقب الصحابة، ذكر البراء بن معرور، برقم (٦٩٧٢)، (٧٤/٩) .
والبيهقي في الدلائل: باب ذكر العقبة الثانية: (٤٤٢/٢) .
ومعبد بن كعب: وثقه العجلي، وذكره ابن حبان في الثقات، وروى عنه جمع، وأخرج له =

وفي هذه البيعة عاهد الأنصار رسول الله ﷺ على الايواء، والحماية، والنصرة، والمنعة .

وبهذا انتهى عهد التشريد والتطريد لرسول الله ﷺ ولأصحابه رضي الله عنهم وبدأ عهد الاستقرار، والاستعداد للقتال، ونشر الدعوة في جميع بقاع الأرض .

يقول إمام المغازي، محمد بن إسحاق :

«وكانت بيعة الحرب، حين أذن الله لرسوله ﷺ في القتال، شروطاً سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة، على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة[1] .

وسواء كان الإذن بالحرب والقتال، جاء قبل الهجرة، كما هو رأي عروة ابن الزبير وغيره[2]، أو كان بعد الهجرة، كما هو ظاهر سياق الآيات، في قوله تعالى: **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله﴾**[3] .

الشيخان .

انظر: ثقات العجلي: ص (٤٣٣)، الثقات لابن حبان: (٤٣٢/٥)، والجرح والتعديل: (٢٧٩/٨)، التهذيب: (٢٢٤/١٠) .

وعبدالله بن كعب: ثقة. انظر: التهذيب (٣٦٩/٥)، التقريب: (٤٤٢/١) .

فهذا الإسناد حسن .

وقد قال ابن حجر في ترجمة أم منيع (واسمها أسماء بنت عمرو)، وهي أم معاذ بن جبل، قال: «ذكر ابن إسحاق بسند صحيح، عن كعب ابن مالك، أنها كانت مع من شهد العقبة، مع السبعين، هي ونسيبة بنت كعب». الإصابة: (١١٦/١٢) .

وقال الهيثمي: «رواه أحمد، والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع».. المجمع: (٤٥/٦) .

(١) السيرة لابن هشام: (٩٧/٢) .

(٢) انظر: الدر المنثور: (٥٧/٦) .

(٣) سورة الحج: رقم الآيتين ٣٩ــ٤٠ .

سواء كان هذا، أو ذاك، فإن بدء الجهاد كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بهذه البيعة. وهذا سر تسميتها ببيعة الحرب .

ففي البيعة الأولى كان الإيمان بالله ورسوله .

وفي البيعة الثانية كان العهد على «الهجرة» و«الجهاد» .

وبهذه العناصر الثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد، يتحقق وجود الإسلام في واقع جماعي ممكن .

والهجرة لم تكن لتتم لولا وجود الفئة المستعدة للإيواء، ولهذا قال تعالى: **﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾**(١) .

وقال : **﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾**(٢) .

وقال: **﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾**(٣) .

في آيات اخرىٰ كثيرة .

ولم تكن البيعة والهجرة والجهاد لتتم لولا انسلاخ المؤمنين الجدد من ولائهم القبلي والوطني، للولاء الشرعي، وتركهم لقياداتهم العشائرية إلى القيادة الإسلامية الواحدة، ولذلك جاء النص في البيعة على أن الدمَ الدمَ، والهدمَ الهدمَ، على إثر قول الأنصار: إن بيننا وبين القوم ــ يعني اليهود ــ حبالاً، وإنا قاطعوها .

وقد كانت هذه البيعة هي التمهيد الأخير لهجرة النبي ــ ﷺ ــ وأصحابه إلى المدينة، وبعدها بدأ المهاجرون يغادرون أرض مكة التي درجوا عليها صغاراً،وشهدت ربوعها ومغانيها مراتع صباهم ولهوهم، بدأوا يغادرون الأرض التي اختارها الله لتنزل وحيه، وجعل فيها بيته مثابة للناس وأمناً! .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٢ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٧٤ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٧٥ .

وخرج معظم المسلمين حتى لم يبق إلا محبوس، أو مأسور، أو رجل تأخر لغرض كعلي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما[1] .

أما الرسول ﷺ فقد تأخر ينتظر الإذن الإلهي، وطلب إلى أبي بكر رضي الله عنه أن يكون رفيقه وصاحبه، وحين جاءه الإذن خرج إلى المدينة مستخفياً عالماً بما سيصيب قريشاً من الهلع والفزع إذا علمت بخروجه، حتى وصل المدينة بعد رحلة شاقة مليئة بالمخاطر والشدائد والأهوال[2] .

وإن من أعظم مظاهر التضحية في هذه الهجرة أن يغادر النبي ﷺ والمؤمنون هذا البلد الأمين الحبيب إلى قلوبهم ـ بل وإلى قلوب جميع المسلمين ـ مغادرة يعلمون أن لا استقرار لهم فيه بعدها، وهذا من أشق الأمور على النفس، ولكن رجال العقيدة يرخصون في سبيلها كل غال .

ولقد عبر النبي ﷺ عن هذا المعنى ـ معنى صعوبة مغادرة مكة وفراقها فراقاً لا سكنى بعده ـ في العديد من المواقف المؤثرة .

عن عبدالله بن عدي بن حمراء الزهري قال :

رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحَزْورة[3] فقال: والله والله إنك لخيْرُ أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت[4]! .

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: (١٢٣/٢، ١٢٩) السيرة النبوية لابن كثير (٢٢٧/٢، ٢٩٠) .

(٢) انظر: حديث عائشة في الهجرة، السابق في الفصل الأول: أسباب الغربة الأولى، حيث ذُكِرَ طرفُه المتعلق بخروج أبي بكر للهجرة إلى الحبشة، وجوار ابن الدغنة .

(٣) الحَزْورة: بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي المعجمة وفتح الواو، قال الدارقطني: كذا صوابه، والمحدثون يفتحون الزاي ويشددون الواو وهو تصحيف، سوق بمكة، وقد دخلت في المسجد ـ لما زيد فيه ـ قاله ياقوت، وقال بعض المعاصرين: وهي ما يعرف اليوم باسم القشاشية، مرتفع يقابل المسعى من مطلع الشمس، والله أعلم .
انظر: معجم البلدان: (٢٥٥/٢)، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية لعاتق البلادي: ص (٩٨) .

(٤) الحديث رواه الترمذي في: ٥٠ ـ كتاب المناقب، ٦٩ ـ باب في فضل مكة، رقم (٣٩٢٥)، (٧٢٢/٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح . =

....

= ورواه النسائي في سننه الكبرى، ٨ ـ كتاب المناسك، ٣٠٦ ـ فضل مكة (ل٥٥أ) .
وابن ماجه في: ٢٥ ـ كتاب المناسك، ١٠٣ ـ باب فضل مكة، رقم (٣١٠٨) (١٠٣٧/٢) .
والدارمي في: ١٧ ـ كتاب السير، ٦٧ ـ باب إخراج النبي ـ ﷺ ـ من مكة، رقم (٢٥١٣)، (١٥٦/٢) .
وأحمد في المسند: (٣٠٥/٤) .
والحافظ عبد بن حميد كما في المنتخب من مسنده، برقم (٤٩٠)، ص (٤٣٩) وفي سند المطبوع عدة أخطاء .
وهو من حديث صحيح من رواية الزهري عن أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف عن عبدالله بن عدي .
وأشار إليه الترمذي من رواية محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة وقال: وحديث الزهري عن أبي سلمة عن عبدالله بن عدي بن حمراء عندي أصح، (٧٢٣/٥)، وذلك لأن محمد بن عمرو صدوق له أوهام كما قال ابن حجر في التقريب: (١٩٦/٢)، فالزهري أوثق منه وأحفظ .
ولكن يعكر على هذا أن الزهري نفسه رواه عن أبي سلمة عن أبي هريرة كما في المسند: (٣٠٥/٤)، والسنن الكبرى (ل٥٥أ)، كما رواه نفسه عن أبي سلمة عن بعضهم في المسند أيضاً: (٣٠٥/٤) .
قال ابن حجر بعد ذكر الاختلاف في الحديث على الزهري: «... والمحفوظ الأول». الإصابة (١٦٣/٦) .
يعني: رواية الزهري عن أبي سلمة عن عبدالله بن عدي بن الحمراء .
وقال المباركفوري: «..الظاهر أن كلا الحديثين صحيحان، وليس أحدهما أصح من الآخر».. تحفة الأحوذي: (٤٢٧/١٠) .
وكون الحديثين بمنزلة واحدة من الصحة فيه نظر لأن الحديث الأول، وهو حديث الزهري عن أبي سلمة عن عبدالله بن عدي يترجح بعدة أمور :
١ ـ تعدد رواته عن الزهري من الثقات الأثبات في مقابل راوٍ واحدٍ له عنه عن أبي سلمة عن أبي هريرة وهو معمر بن راشد وهو ثقة ثبت كذلك .
٢ ـ تصريح الزهري بالتحديث في الرواية الأولى، أما في الرواية الثانية فقد عنعن . =

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر، وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرىء مصبّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته، ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد، وحولي إذخر، وجليـل؟
وهل أردن يوماً مياه مَجَنّة؟ وهل يبدون لي شامة، وطفيل؟[1]

قال: اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا، إلى أرض الوباء!

ثم قال ﷺ **«اللهم حبب إلينا المدينة، كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا، وفي مدّنا، وصححها لنا، وانقل حماها إلى الجحفة»** .

= ٣ ــ أن الرواية الثانية فيها اختلاف، فمرة قال معمر: عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، ومرة أرسله، ومرة عن الزهري عن أبي سلمة عن بعضهم .

أما حديث معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، فقد ورد من طريق أخرى عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وهذا يرجح صحة الحديث عن كلا الصحابيين: أبي هريرة، وعبدالله ابن عدي بن الحمراء. والله أعلم .

وللحديث شاهد عن ابن عباس بمثله .

رواه الترمذي في الموضع السابق وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وفي التحفة: حسن صحيح غريب.. حديث رقم (٥٥٣٩)، (٤٢١/٤) .

وله شاهد مرسل من حديث أبي سلمة ويحيى بن عبدالرحمن بن حاطب، ضمن قصة فتح مكة الطويلة .

ورواه ابن أبي شيبة في كتاب المغازي، (٢٤٣٥) حديث فتح مكة، رقم (١٨٧٤٦)، (٤٧٦/١٤) .

(١) الإذخر والجليل نبتان من نبات مكة، ومجنة سبق التعريف بها، وشامة وطفيل جبلان بقرب مكة، وقال الخطابي: كنت أحسب أنهما جبلان حتى ثبت عندي أنهما عينان . انظر: الفتح (٢٦٣/٧) .

قالت: وقدمنا المدينة، وهي أوبأ أرض الله، قالت: فكان بطحان[1] يجري نجلاً، يعني: ماء آجناً[2][3].

وإنما يبين معنى التضحية حقاً حيث يقتلع الإنسان نفسه اقتلاعاً من وطنه ليهاجر في ذات الله إلى حيث يشاء الله.

وبالبيعة المؤكدة الصريحة، ثم بالهجرة بعدها، وجد الإسلام موطنه الذي تنطلق منه دعاة الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وتنطلق منه جحافل الحق المجاهدة أول مرة، وقامت الدولة الإسلامية، المحكمة لشرع الله في عباده، وهو الموطن الذي يرجع إليه الإسلام من بعد[4].

---

(١) بطحان في ضبطه أوجه: بضم الباء وسكون الطاء عند المحدثين، وبفتح الباء وكسر الطاء عند كثير من أهل اللغة، وضبط بفتح الباء وسكون الطاء، هو أحد أودية المدينة الثلاثة: العقيق وبطحان وقناة.

انظر: معجم البلدان: (٤٤٦/٢).

(٢) الآجن: هو المتغير، انظر: النهاية (٢٦/١).

(٣) رواه البخاري في: ٣٠ ـ كتاب فضائل المدينة، ١٢ ـ باب: (٢٢٤/٢) بهذا اللفظ.

وفي: ٦٣ ـ مناقب الأنصار، ٤٦ ـ باب مقدم النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه المدينة: (٢٦٣/٤).

وفي: ٧٥ ـ كتاب المرضى، ٨ ـ باب عيادة النساء الرجال (٥/٧).

٢٢ ـ باب من دعا برفع الوباء والحمى: (١١/٧).

وفي: ٨٠ ـ كتاب الدعوات، ٤٣ ـ باب الدعاء برفع الوباء والوجع (١٦٠/٧).

ومسلم في: ١٥ ـ كتاب الحج، ٨٦ ـ باب الترغيب في سكنى المدينة، رقم (٤٨٠) (١٠٠٣/٢).

وأحمد في المسند: (٥٦/٦، ٦٥، ٢٢١-٢٢٢، ٢٣٩، ٢٦٠) وفي هذه الرواية وحدها ـ في المسند ـ ذكر اللعن.

وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام، ذكر من اعتل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ (٢٣٨/٢).

(٤) كما في حديث الغربة المخرج في أول هذه الرسالة.

ولهذا صارت الهجرة إلى المدينة واجبة ذلك الوقت، لأنها أصبحت دار الإسلام ومنطلق الدعوة، حيث بدأ التخطيط لعهد جديد من الكفاح الدائب في مواجهة المشركين، واليهود، والمنافقين .

لقد ولى التاريخ وجهه شطر المدينة المنورة يرقب حركة بناء الدولة الإسلامية الأولى، ثم حركة جهاد هذه الدولة لتثبيت أركانها، وتوسيع نطاقها، وإخضاع الناس لحكم الله عز وجل .

فالمدينة لم تكن مهرباً يلوذ به المسلمون من ظلم قريش وبطشها وتعذيبها إلى حيث الدعة والسكون! كلا. وأنى لأصحاب العقائد الحية الدعة والسكون؟! .

ولكنها كانت تحولاً إلى جبهة أخرى مهيأة لانطلاق الدعوة، ومواجهة الأعداء، وإظهار الدين.. ولو كره الكافرون .

ولقد استقبل المسلمون في المدينة عهداً جديداً من التضحيات الجسام بالنفوس والأموال، وحياة فيها الكثير من الجهد، والشدة، والفقر، والخوف، والنقص في الأموال، والأنفس، والثمرات، وأعداء كان بعض شأنهم أن يأتوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى تزيغ الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر، وكان هذا وذاك جزءاً من مواجهة الغربة الأولى، التي أخذ المؤمنون الأوائل على عواتقهم مدافعتها حتى تندفع ـ بإذن الله ـ .

٥ ـ القتال في سبيل الله :

لم يغب عن بال المسلمين لحظة أن دولتهم الفتية في المدينة لن تجري في ريح رخاء، بل ستمضي عليها سنة الله في خلقه، في ابتلاء بعض الناس ببعض .

ولم ينس المسلمون أن عداوة المشركين، الذين أخرجوهم من ديارهم، وأموالهم، بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، لا تزال قائمة، بل إنها تسير في المرحلة الجديدة جنباً إلى جنب، مع عداوة اليهود الذين يجاورون الإسلام في المدينة، ومع عداوة المنافقين المندسين في الصف المسلم، والذين هم أحبولة من أحابيل المكر اليهودي للإسلام ـ في غالب أحوالهم .

ولذلك بدأ الرسول ـ ﷺ ـ بعد وصوله المدينة بعقد المؤاخاة بين المهاجرين

والأنصار، وبناء المسجد، وعقد المعاهدة مع يهود[1] .

(أ) والمؤاخاة تعني ذوبان الفوارق القبلية بين المسلمين ـ من مهاجرين وأنصار ـ وانصهارهم جميعاً في كيان واحد، وأمة واحدة، فانتسابهم هو للإسلام قبل كل شيء .

وكان ابتداء المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في أول الاستقرار بالمدينة، واستمر يتجدد بحسب من يدخل في الإسلام، أو يحضر إلى المدينة[2] .

فهذه هي اللبنة الأولى في طريق الجهاد، وهي العاصم الأول من التفرق والتمزق، والإستجابة لنزغ شياطين الإنس والجن، إضافة إلى أن بعض المسلمين كان أقوى من بعضهم الآخر، بالمال والعشيرة، وبالمؤاخاة يرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى[3] .

وقد كان الرسول ﷺ آخى بين المسلمين في مكة، فآخى بين حمزة، وزيد بن حارثة[4]، وآخى بين الزبير وابن مسعود[5] في نفر ـ غيرهم ـ[6] .

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/١٤٠ـ١٤٣، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٠ـ١٥٣) والسيرة لابن كثير: (٢/٣٠٢ـ٣١٠، ٣١٩ـ٣٢٩) وعيون الأثر (١/١٩٥ـ٢٠٢)، وانظر: دراسة في السيرة، لعماد الدين خليل ص (١٤٧ـ١٥٨) .

(٢) فتح الباري: (٧/٢٧١) .

(٣) فتح الباري: (٧/٢٧١) .

(٤) كما في صحيح البخاري: ٦٤ ـ كتاب المغازي، ٤٣ ـ باب عمرة القضاء، (٥/٨٥) . وفي: ٥٣ ـ كتاب الصلح، ٦ ـ باب: كيف يكتب.. (٣/١٦٨) .

(٥) في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة (٣/٣١٤)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر: بسند حسن، وزاد نسبته لابن عبدالبر، والضياء في المختارة. فتح الباري (٧/٢٧١) .

(٦) انظر: المستدرك: كتاب الهجرة (٣/١٤)، وسكت عنه هو، والذهبي ويشهد لمعناه ما سبق، وانظر: الفتح (٧/٢٧١)، وقد أنكر ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير المؤاخاة قبل الهجرة. انظر: منهاج السنة: (٤/٩٦)، وزاد المعاد: (٢/٧٩)، والسيرة لابن كثير (٢/٣٢٦) .

(ب) وبناء المسجد يعني توكيد الهدف الذي دعا الرسول ـ ﷺ ـ والمسلمين معه إلى تحمل المشاق، والهجرة في سبيل الله، وبناء هذا المجتمع، وهو تحقيق عبادة الله وحده، وهجر الرجز، وحرب أهله، وما الجهاد إلا جزء من معنى هذه العبادة، لتحقيق دينونة الناس لربهم، وإزالة الحواجز التي تعوق الناس عن الدخول في الإسلام، أو التي تفتن الناس عن دينهم بعد أن دخلوا فيه .

(جـ) والمعاهدة مع يهود تعني وضوح العلاقة معهم، وتحديد موقفهم ومسؤوليتهم، وإخضاعهم لحكم الإسلام، ثم محاسبتهم على جرائمهم ـ التي كان لابد أن تقع ـ بصورة تحفظ كرامة الإسلام والمسلمين[١] .

وقد بدأ النبي ﷺ بعد استقراره في المدينة يخطط للأعمال الحربية، ويدرب أصحابه على فنون القتال ويبعث السرايا والبعوث، لتثبيت أمن المدينة، وتخويف المتربصين، وتهيئة أصحابه للمهمات التي تنتظرهم، بعد أن أذن الله لهم في القتال بقوله :

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا. وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾[٢] .

فبعث النبي ﷺ سلسلة من السرايا والبعوث والغزوات: كغزوة الأبواء[٣]، وسرية عبيدة بن الحارث، وسرية حمزة، وغزوة بَوَاط[٤]، وغزوة العشيرة[٥] وغيرها .

---

(١) انظر ما سيأتي قريباً في موضوع المواجهة مع اليهود .

(٢) سورة الحج، رقم الآيات ٣٩ـ٤١ .

(٣) الأبواء: قرية بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً انظر: الفتح (٧/٢٧٩) .

(٤) بواط: بفتح الباء وقد تضم وتخفيف الواو ـ جبل من جبال جهينة بقرب ينبع: الفتح (٧/٢٨٠).

(٥) العشيرة أو العسيرة: بضم العين وفتح السين وتخفيف الياء، مكانها عند منزل الحج بينبع، ليس بينها وبين البلد إلا الطريق. انظر: الفتح (٧/٢٧٩)، معجم البلدان: (٤/١٢٧) .

ولعل أهم الغزوات التي أحدثت أثراً بعيداً في حركة الإسلام ودفع الغربة عنه، وعن أهله: غزوة بدر، ثم الحديبية، ثم فتح مكة[1] .

غزوة بدر :

وقد خرج المسلمون لاعتراض قافلة أبي سفيان التجارية فشاء الله أن تفوتهم القافلة، وأن تخرج قريش لتقيم أياماً في بدر تنحر الجزور وتشرب الخمر وتعزف عليها القيان، وذلك لتدعيم مكانتها وهيبتها عند العرب .

وفضل كثير من المؤمنين الرجوع إلى المدينة، ولكن الرسول ـ ﷺ ـ رأى غير هذا، فاستشار أصحابه، وكأنه يريد أن يستوثق من رأي الأنصار، إذ ربما يرون أنْ ليس عليهم نصره ومنعه إلا في المدينة ذاتها .

فرأى منهم ـ رضي الله عنهم ـ الاستبسال، والاندفاع، والطاعة المطلقة لرسول الله ـ ﷺ ـ ففرح، واستبشر، وبشر أصحابه بالنصر المؤزر .

والتقى المسلمون ـ لأول مرة ـ وبدون استعداد كاف بسبب عنصر المفاجأة، وتغير الموقف ـ مع المشركين الذين يمثلون ثلاثة أضعافهم، وكان فيهم صناديد قريش قاطبة إذ لم يسع أحداً منهم التأخر عن الخروج خشية رميه بالجبن والخوف .

إن مجرد لقاء المسلمين ـ مهاجريهم وأنصارهم، أوسهم وخزرجهم ـ للمشركين فيه معان كبيرة إذ لم تعد قريش تملك فرض الغربة والكربة على من أسلم، فها هم أولاء المستضعفون بمكة يأوون إلى المدينة، ويقيمون الدولة، ويكونون الجيش، ويصبح بمقدورهم منازلة المشركين في ساحات القتال، وليس في مواقع التعذيب والإيذاء .

وهذا الموقع الذي اختاره الله لهجرة نبيه ـ ﷺ ـ وأصحاب نبيه ـ رضي الله عنهم ـ هو في طريق تجار قريش إلى الشام، فهو تهديد أكيد لتجارتها وقوافلها[2] .

وهؤلاء الأوس والخزرج الذين كانوا أقرب الناس إلى قريش، وأبغض الناس أن

---

(١) أفردت لفتح مكة فقرة خاصة لأهميته .

(٢) انظر: دراسة في السيرة لعماد الدين خليل ص (١٧٥-١٧٦) .

تثور بينهم وبينهم الحرب[1]، ها هم يخوضونها ابتداء إلى جوار الرسول الذي أخرجته قريش وآذته ﷺ .

إن الإنسان يحتاج لكي يدرك التقدم العظيم السريع الذي أحرزته دعوة الإسلام أن يستجمع في ذهنه صورة المسلمين الغرباء المعذبين في مكة ونظرة قريش إليهم، ثم يقارنها بالصورة الجديدة: جيشين متقابلين يستعد كل منهما للقاء الآخر .

وقد شعر المسلمون بخطورة هذه المعركة، وأهميتها البالغة فشحذوا هممهم، واستجمعوا قواهم، لشق طريق لنصر الإسلام عبر الصخور والصعاب، يبدأ من هذا اليوم، وكان ﷺ يجأر إلى الله بالدعاء حتى يسقط رداؤه، ويشفق عليه أبو بكر، وهو يقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعد اليوم[2]! .

وتدور المعركة .

ويضرب المسلمون من أمثلة البطولة والفداء ما تعجز عن وصفه الأقلام .

وما هو إلا قليل حتى ترجح كفة المسلمين، وتدور الدائرة على المشركين، ويقتل الله سبعين من صناديدهم، ويؤسر منهم ما يقارب هذا العدد[3] .

وحين سرى هذا الخبر في الناس لم يكد يصدقه أحد، فقد قابلت قريش طلائع الخبر بالهزء والسخرية فهي تنتظر استئصال شأفة المسلمين كما قابله اليهود بالاستنكار والرد، ولم يكد يصدقه المسلمون المقيمون بالمدينة .

ولقد هال الناس أن يُنعى إليهم في غداة واحدة سبعون، فيهم زعماء كبار، كأبي جهل، وعتبة، وشيبة: ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، وأبي البختري بن هشام، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبدالأسد، ونُبيْه ومنبه: ابني الحجاج، وأمية ابن خلف.. وغيرهم[4] .

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٩٠) ، وتاريخ الطبري: (٢/٣٦٥) .

(٢) كما في حديث ابن عباس، عن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وسبق تخريجه في آخر الفصل الثاني المتعلق بمظاهر الغربة .

(٣) انظر: السيرة لابن كثير: (٢/٤٦٣ـ٤٦٤) .

(٤) كما في حديث أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ وسبق في الفصل الثاني المتعلق بمظاهر الغربة، =

وقد ساق عليّ رضي الله عنه مقدمات الغزوة، وأحداثها، بسياق طويل مفصل ـ بعض التفصيل ـ فقال: لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها، فاجتويناها، وأصابنا بها وعك، وكان رسول الله ﷺ يتخبر عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا، سار رسول الله ﷺ إلى بدر ـ وبدر بئر ـ فسبقنا المشركون إليها[1]، فوجدنا فيها رجلين منهم: رجل من قريش، ومولى لعقبة بن أبي معيط، فأما القرشي فانفلت، وأما المولى فوجدناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم. فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى رسول الله ﷺ فقال له: كم القوم؟ قال: هم ـ والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجهد النبي ﷺ أن يخبره: كم هم؟ فأبى، ثم إن النبي ﷺ سأله: كم ينحرون من الجزور؟ فقال: عشراً كل يوم، فقال النبي ﷺ: القوم ألف، كل جزور لمائة وتبعها .

ثم إنه أصابنا من الليل طش[2] من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف[3] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه، ويقول: اللهم إنك إن تُهلك هذه الفئة لا تعبد! .

فلما طلع الفجر، نادى: الصلاةَ ـ عبادَ الله ـ فجاء الناس من تحت الشجر والحجف[3]، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال، ثم قال: إن جمع قريش تحت هذه الضلع الحمراء من الجبل .

فلما دنا القوم منا، وصاففناهم، إذا رجل منهم على جمل له أحمر، يسير في القوم، فقال رسول الله ﷺ ياعلي ناد لي حمزة ـ وكان أقربهم من المشركين ـ من صاحب الجمل الأحمر؟ وماذا يقول لهم؟ ثم قال ﷺ إن يكن في القوم أحد

= وانظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٧٦ـ٢٩٢)، مرويات غزوة بدر للعليمي: ص(٢٢٢ـ٢٣٣) وغيرها .

(١) كذا في المسند المطبوع، وفي السيرة لابن كثير: (٢ /٤٣٣)، فسبقنا المشركين ولعله أولى.

(٢) الطش: هو المطر القليل. انظر: النهاية (٣/١٢٤) .

(٣) الحجف: جمع حجفة، وهو الترس. انظر: النهاية (١/٣٤٥) .

يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر، فجاء حمزة، فقال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال، ويقول لهم: ياقوم إني أرى قوماً مستميتين، لا تصلون إليهم وفيكم خير، ياقوم اعصبوها ـ اليوم ـ برأسي، وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة! وقد علمتم أني لست بأجبنكم .

فسمع بذلك أبو جهل، فقال: أنت تقول ذلك؟ والله لو غيرك يقولها لأعضضته، قد ملأتْ رئتك جوفك رعباً! فقال: إياي تعيّر يامصفر إسته؟ ستعلم اليوم أينا الجبان!

قال: فبرز عتبة، وأخوه شيبة، وابنه الوليد، حمية، فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار ستة[1]، فقال عتبة: لانريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بني عمّنا، من بني عبدالمطلب. فقال رسول الله ﷺ قم ياحمزة، وقم ياعلي، وقم ياعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب

فقتل الله عتبة، وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وجرح عبيدة، فقتلنا منهم سبعين، وأسرنا سبعين .

وجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبدالمطلب أسيراً، فقال العباس: يارسول الله، إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح، من أحسن الناس وجهاً، على فرس أبلق ما أراه في القوم! فقال الأنصاري: أنا أسرته ـ يارسول الله ـ فقال: اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم .

فقال علي رضي الله عنه فأسرنا، وأسرنا من بني عبدالمطّلب: العباس، وعقيلا، ونوفل بن الحارث[2] .

---

(١) كذا في المسند المطبوع، وفي السيرة لابن كثير: (٢ /٤٢٣): مشببة، وهو الأقرب إذ في رواية أبي داود: فانتدب له شباب من الأنصار، ثم إن العادة أن يخرج من الأنصار بعدد القرشيين (أي: ثلاثة فقط) .

(٢) رواه الإمام أحمد: (١١٧/١) من طريق حجاج، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن علي .

وأبو داود في: ٩ ـ كتاب الجهاد، ١١٩ ـ باب في المبارزة، برقم (٢٦٦٥)، (١١٩/٣) =

ولقد خضد الله في هذا اليوم شوكة المشركين، وأرهب الأعداء من اليهود والأعراب المتربصين، وجعله بداية للانتصارات اللاحقة التي أحرزها المسلمون: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة. فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾[1] .

ودعاء الرسول ﷺ السابق يوحي بأهمية يوم بدر وخطورة نتائجه، فإنه لو انهزم فيه المسلمون لم تقم لهم بعد قائمة، ولو افنيت هذه العصابة لم يعبد الله في الأرض .

وهذا مفرق طريق في شأن الغربة، فإن الإسلام كان يتمثل في هذه الجماعة المنحازة إلى المدينة الغريبة بين أمم الأرض حينئذ، وهي الجزيرة المؤمنة في بحر الوثنية والشرك، فكان انتصار بدر ترسيخاً لموقع الدولة المسلمة، وتثبيتاً لقواعدها، ودفعاً لغربتها، وغربة المضحين في سبيلها .

وهكذا يصنع الله لدينه وأوليائه الصادقين ما يحفظهم به، ليحفظ بهم الدين[2] .

من طريق إسرائيل، مقتصراً على خبر المبارزة.

وحجاج هو ابن محمد المصيصي الأعور: ثقة ثبت، لكن حصل له اختلاط في آخر عمره، حين قدم بغداد قبل موته. انظر: التهذيب (٢/٢٠٥)، والتقريب (١/١٥٤) .

وإسرائيل هو ابن يونس بن أبي إسحاق السَّبيعي: ثقة، ومضى .

وأبو إسحاق هو عمرو بن عبدالله السَّبيعي: مكثر ثقة عابد، إلا أنه شاخ ونسي، وهو مدلس ومضى .

وحارث بن مضرب: ثقة. انظر: التهذيب (٢/١٦٦)، والتقريب (١/١٤٥) .

فالإسناد ضعيف، وله شواهد كثيرة يرتقي بها سبق بعضها .

قال ابن كثير: «هذا سياق حسن، وفيه شواهد لما تقدم، ولما سيأتي» السيرة (٢/٤٢٤).

(١) سورة آل عمران: رقم الآية ١٢٣ .

(٢) انظر في تفصيلات غزوة بدر: سيرة ابن هشام (٢/٢٥٧ـ٣٧٤)، (٣/٣ـ٤٥ .
وكتاب: مرويات غزوة بدر لأحمد محمد العليمي، وفقه السيرة للغزالي ص (٢٣٢ـ٢٥٧)، وغيرها من كتب السير .

غزوة الحديبية :

وهي تأتي في الأهمية بعد بدر، كما قال الإمام الحافظ ابن عبدالبر: «ليس في غزوات النبي ﷺ ما يعدل بدراً أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية...»[(1)] .

وقد سماها الله تعالى ﴿**فتحاً مبيناً**﴾ فقال: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾[(2)] .

وعن أنس رضي الله عنه إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، قال: الحديبية[(3)] .

وذلك أن النبي ـ عليه السلام ـ خرج يريد العمرة، وساق معه الهدي، وسار في نحو ألف وخمسمائة من أصحابه[(4)]، فرفضت قريش دخوله مكة، ثم اتفقوا على

---

(1) نقلاً عن: شرح ثلاثيات المسند للشيخ محمد السفاريني: (٢٧٨/١) .

(2) سورة الفتح: رقم الآية ١ .

(3) رواه البخاري عن أنس في: ٦٤ ـ كتاب المغازي، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية، (٦٦/٥) .

وفي: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤٨ ـ سورة الفتح، ١ ـ باب إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً: (٤٤/٦) .

والنسائي في الكبرى، في التفسير، أفاده المزي في التحفة، حديث (١٢٧٠): (٣٣١/١) .

والبيهقي في السنن، كتاب الجزية، باب نزول سورة الفتح على النبي ـ ﷺ ـ (٢٢٢/٩) .

وفي دلائل النبوة، جماع أبواب عمرة الحديبية، باب نزول سورة الفتح (١٥٧/٤) .

(4) جاء هذا عن جابر ـ رضي الله عنه ـ :

رواه البخاري في: ٦١ ـ كتاب المناقب، ٢٥ ـ باب علامات النبوة في الإسلام: (١٧٠/٤) .

وفي: ٦٤ ـ كتاب المغازي، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية (٦٣/٥) .

وفي: ٧٤ ـ كتاب الأشربة، ٣١ ـ باب شرب البَرَكة والماء المبارك (٢٥٢/٦) .

ومسلم في: ٣٣ ـ كتاب الإمارة، ١٨ ـ باب استحباب مبايعة الإمام الجيش، رقم (٧٢،٧٣)، (١٤٨٤/٣) .

والنسائي: ١ ـ كتاب الطهارة، ٦١ ـ الوضوء من الإناء: (٦١/١).

الصلح بعد مفاوضات طويلة[1] .

وكان من النتائج الخطيرة لهذه الغزوة: اعتراف قريش بقوة المسلمين وكيانهم حيث فاوضتهم وصالحتهم على بنود معروفة، وهذا كان له أثر عظيم على القبائل العربية التي كانت تنتظر نتيجة المعركة بين الإسلام والوثنية لتحدد موقفها .

ولذلك دخلت خزاعة ـ عقب الصلح ـ في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وعقده، كما دخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم[2] .

وأبت قريش على النبي ـ ﷺ ـ دخول البلد الحرام على أن له أن يأتي العام القادم فيدخلها بسلاح الراكب: السيوف في القُرُب، لا يدخلها بغيرها[3]، وهي تريد برد المسلمين عن مكة حفظ ماء وجهها .

وهذا الموقف زعزع مكانة مشركي قريش، وأكد أنهم ليسوا أهلاً لسدانة البيت وحمايته، بل هم يصدون عن المسجد الحرام، وما كانوا أولياءه، إذ قد ظهر للجميع من حال النبي ـ ﷺ ـ أنه لم يأت لقتال، بل جاء معتمراً، معظماً للبيت .

= وفي الكبرى، أفاده المزي في التحفة، حديث (٢٢٤٢)، (١/١٧٥) .
وأحمد في المسند: (٣/٣٢٩، ٣٦٥) .
والبيهقي في الدلائل، جماع أبواب غزوة الحديبية، باب ما ظهر من الحديبية، بخروج الماء من بين أصابع رسول الله ـ ﷺ ـ (٤/١١٥ـ١١٦) .
وأبو نعيم في الدلائل، الفصل الخامس والعشرون، في فوران الماء من بين أصابعه.. ص (٤٤٦) .
وابن سعد في غزوة الرسول ـ ﷺ ـ الحديبية (٢/٩٨) .

(١) كما في حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم :
وقد رواه البخاري في: ٥٤ ـ كتاب الشروط، ١٥ ـ باب الشروط في الجهاد: (٣/١٧٨ـ١٨٤) .
والإمام أحمد في المسند: (٤/٣٢٣ـ٣٢٦)، وفيه زيادات. وفيه تفاصيل أحداث الحديبية .

(٢) كما في رواية الإمام أحمد لحديث المسور، ومروان، وانظر: سيرة ابن هشام (٣/٣٣٢) .

(٣) كما في رواية الإمام أحمد أيضاً، وانظر: سيرة ابن هشام: (٣/٣٣٢) .

وكانت سائر بنود الصلح نصراً للإسلام في حقيقتها، وإن كان ظاهرها في صالح قريش ـ باديَ الرأي ـ .

وفوق هذا فإن وضع الحرب بين الطرفين أتاح فرصة كبيرة لانتشار الإسلام، ودفع غربته، ومد سلطانه على القلوب .

قال الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»[١] .

قال ابن هشام: «والدليل على قول الزهري أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، في قول جابر ابن عبدالله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»[٢] .

ولهذه الأسباب كلها كانت غزوة الحديبية تمهيداً طبعياً لفتح مكة .

٦ ـ المواجهة مع اليهود :

وقد شاء الله بحكمته البالغة أن تجاور يهودُ الإسلام في مقر دولته الأولى، وأن يكونوا أحد الأسباب الملحوظة لالتفاف الأنصار حول الإسلام، وبيعتهم للرسول عليه الصلاة والسلام، وقد حال الحقد، والحسد، والبغي، دون إسلام اليهود، ومتابعتهم للنبي العربي الذي يعرفون .

وبعد استقرار المسلمين في المدينة نظموا العلاقة مع اليهود منذ البداية وأذعن اليهود لحكم الإسلام وسلطانه، والتزموا بالإنفاق مع المؤمنين ما داموا محاربين، والدفاع

---

(١) سيرة ابن هشام: (٣/٣٣٦) .

(٢) سيرة ابن هشام: (٣/٣٣٧)، وانظر في غزوة الحديبية عموماً: مرويات غزوة الحديبية للشيخ حافظ الحكمي، سيرة ابن هشام: (٣/٣٢١ـ٣٤١) فقه السيرة للغزالي (٣٤٨ـ٣٦٧) .

عن المدينة ضد من دهمها، والرجوع إلى الرسول ـ ﷺ ـ فيما يحدث من شجار يخاف فساده والحفاظ على أمن المدينة[1] .

---

(١) كما في وثيقة المؤاخاة بين المؤمنين، والموادعة مع اليهود، وقد روى هذه الوثيقة ابن إسحاق بدون سند، كما في: سيرة ابن هشام هجرة الرسول ـ ﷺ ـ (٢/١٤٧ـ١٥٠) ومن طريقه رواه جمع من المؤلفين .
وروى بعضه: البيهقي في السنن ـ كتاب الديات، باب العاقلة: (٨/١٠٦)، من طريق ابن إسحاق: حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذا الكتاب..، واقتصر فيه على الجزء المتعلق بالمؤاخاة، وإن كان فيه إشارة إلى المعاهدة، والإسناد منقطع، كما هو ظاهر .
ورواه حميد بن زنجوية في كتاب الأموال: كتاب العهود التي كتبها رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه لأهل الصلح، برقم (٧٥٠)، (٢/٤٦٦) .
وأبو عبيد في الأموال: كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ بين المؤمنين وأهل يثرب، برقم (٥١٨): ص (١٩٣ـ١٩٦) .
كلاهما من طريق عبدالله بن صالح، عن الليث، عن عُقيل بن خالد، عن ابن شهاب، أنه قال: بلغني فذكره .
وعبدالله بن صالح: صدوق كثير الغلط، ومضى .
لكن تابعه يحيى بن عبدالله بن بكير ـ عند أبي عبيد ـ ويحيى ثقة في الليث. انظر التهذيب (١١/٢٣٧)، التقريب (١/٣٥١) .
والليث، وعُقيل ـ بضم العين ـ ثقتان، ومضيا .
والإسناد ضعيف لإرسال الزهري .
ورواه ابن أبي خيثمة، كما في عيون الأثر: ذكر الموادعة بين المسلمين واليهود (١/١٩٨) من طريق كثير بن عبدالله بن عمرو المزني، عن أبيه، عن جده .
والبيهقي في: كتاب الديات، باب العاقلة (٨/١٠٦) .
وهذه الطريق ضعيفة جداً، ولا تصلح للاستشهاد، ولا للاعتضاد كما سبق .
وقد روى أبو داود، عن كعب بن مالك، في قصة قتل كعب ابن الأشرف، وفيه: فلما قتلوه، فزعت اليهود والمشركون، فغدوا على النبي ـ ﷺ ـ فقالوا: طُرِق صاحبُنا، فقُتِل فذكر لهم النبي ـ ﷺ ـ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي ـ ﷺ ـ بينه وبينهم، وبين المسلمين عامة صحيفة . =

....

= رواه أبو داود في: ١٤ ــ كتاب الخراج والإمارة والفيء، ٢٢ ــ باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، برقم (٣٠٠٠) (٤٠١/٣–٤٠٢) من طريق محمد بن يحيى بن فارس، عن الحكم بن نافع عن شعيب، عن الزهري، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، عن أبيه ــ وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم .

ومحمد بن يحيى بن فارس، هو الذهلي: ثقة جليل. انظر: التهذيب (٥١١/٩)، والتقريب (٢١٧/٢) .

والحكم بن نافع: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (٤٤١/٢)، والتقريب (١٩٣/١) .

وشعيب هو ابن أبي حمزة: ثقة عابد، من أثبت الناس في الزهري، انظر: التهذيب (٣٥١/٤)، والتقريب (٣٥٢/١) .

والزهري: إمام حجة، ومضى .

وعبدالرحمن بن عبدالله بن كعب: ثقة. انظر: التهذيب (٢١٥/٦)، والتقريب (٤٨٨/١) .

وأبوه هو كعب بن مالك، جده، كما يظهر من قوله ــ وكان أحد الثلاثة، وقد ثبت سماع عبدالرحمن من جده كما في التهذيب وغيره.

فالحديث ــ بهذا الإسناد ــ صحيح .

وقد رواه البيهقي في كتاب الجزية باب من لا تؤخذ منه الجزية من أهل الأوثان: (١٨٣/٩) من طريق أحمد بن الحسن القاضي، عن أبي سهل بن زياد القطان، عن عبدالكريم بن الهيثم، عن أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن عبدالرحمن ابن عبدالله بن كعب، أظنه عن أبيه، وكان ابن أحد الثلاثة الذين تيب عليهم .

وأحمد بن الحسن هو الحيري: إمام ثقة. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٥٦/١٧)، والوافي للصفدي: (٣٠٦/٦) .

وأبو سهل هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن زياد القطان: ثقة. انظر: السير (٥٢١/١٥)، الوافي (٣٤/٨) .

وعبدالكريم بن الهيثم هو الدير عاقولي: ثقة انظر: السير (٣٣٥/١٣)، والمنتظم (١٢٠/٥) .

وأبو اليمان، هو الحكم بن نافع الحمصي، وسبق قبل قليل .

وعلى هذا فالرواية مرسلة، لأنها عن عبدالله بن كعب، وهو تابعي ويمكن ترجيح رواية أبي =

ولم تبرز لليهود أية مواقف مشهورة خلال التحركات الأولى في المدينة، سواء قبل الهجرة أو بعدها، فعلى علمٍ منهم أسلم من أسلم من الأنصار ثم بايعوا البيعة الأولى ثم استقدموا مصعباً لتعليمهم ونشر الدين بينهم، ولم تكن جهود مصعب في نشر الدعوة لتخفى عليهم، وكان موقفهم أقرب إلى السلبية .

ولعل هذا يشير إلى وجود جفوة بين الأوس والخزرج وبين اليهود خلال تلك الفترة جعلت تأثير اليهود أقل من أن يعوق سير الدعوة، إضافة إلى قوة شأن الأوس والخزرج، وكثرتهم، وضعف اليهود إزاءهم(١) .

وثمت سبب آخر وهو طبيعة اليهود التي تتعمد الدس الخفي، والكيد والطعن من وراء الظهور، وتبرز هذه الطبيعة في حركة النفاق، التي كان لليهود يد طولى في إنشائها، وإذكائها، والتخطيط لها .

وخاصة حين أدرك اليهود تعاظم مد الإسلام بعد موقعة بدر الحاسمة وقد ذكر الله علاقة المنافقين باليهود في قوله :

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾(٢) .

أما عن موقف الرسول ﷺ، فقد كان أول الأمر حريصاً على إسلام اليهود، وتأليف قلوبهم، باعتبارهم أهل كتاب، ولو آمنوا به ـ ﷺ ـ لترتب على إيمانهم

= داود للجزم الذي فيها، خلافاً لرواية البيهقي التي فيها التردد .

ويُلحظ في هذه الرواية تأخرُ الكتابة عن بداية العهد المدني، وهذا خلاف ما عليه معظم أهل السير والمؤرخين وغيرهم .

وجمع بعضهم بين الروايتين بأن ما في رواية كعب إنما هو تجديد للموثق الأول. والله أعلم .

انظر: الأموال لأبي عبيد: ص (١٩٧)، وتاريخ الطبري (٤٧٩/٢)، وكتاب: المجتمع المدني في عهد النبوة للدكتور أكرم ضياء العُمري ص (١١٤) .

(١) انظر ما سبق في موضوع البيعة .

(٢) سورة البقرة: رقم الآية ١٤ وانظر: تفسير الطبري (١٢٩/١)، تفسير البغوي (٥١/١)، الدر المنثور (٧٨/١)، وهذا أحد الأقوال في الآية .

آثار بعيدة المدى، ولعله لذلك كان يحب موافقتهم أول الأمر فيما لم ينزل عليه فيه[1]، وظل - ﷺ - يبذل النصح لهم، ويجيب على سؤالاتهم المتعنتة، ويحرص أن يفيد من إسلام بعض مخلصيهم، مثل عبدالله بن سلام وغيره، ولكن دون جدوى، بل إنهم أظهروا روح العداء للإسلام والمسلمين ونقضوا العهود والمواثيق التي أبرموها، وتحالفوا مع الوثنية ضد الإسلام، فأجلى الرسول - ﷺ - قبيلتين منهم: بني قينقاع، وبني النضير، واستأصل شأفة بني قريظة، لعظم خيانتهم، وخطورتها، ثم قضى في غزوة خيبر على وجودهم السياسي في الحجاز نهائياً .

كما خطط الرسول - ﷺ - لاغتيال رؤوس الفتنة ومثيري الشغب فيهم، فأرسل مجموعات فدائية اغتالت كعب بن الأشرف ثم أبا رافع[2]، فذعر اليهود من ذلك وكفوا عن إساءتهم .

---

(١) جاء الحديث بذلك عن ابن عباس:
رواه البخاري في ٦١ - كتاب المناقب، ٢٣ - باب صفة النبي - ﷺ - (١٦٦/٤) .
وفي: ٦٣ - مناقب الأنصار، ٥٢ - باب إتيان اليهود النبي - ﷺ - حين قدم المدينة (٢٦٩/٤) .
وفي: ٧٧ - كتاب اللباس، ٧٠ - باب الفرق (٥٩/٧) .
ومسلم في: ٤٣ - كتاب الفضائل، ٢٤ - باب في سدل النبي - ﷺ - شعره وفرقه، رقم (٩٠) (١٨١٧/٤) .
وأبو داود في: ٢٧ - كتاب الترجل، ١٠ - باب ما جاء في الفرق، رقم (٤١٨٨) (٤٠٧/٤) .
والترمذي في الشمائل: ٣ - باب ما جاء في شعر رسول الله ﷺ رقم (٢٩)ص(٤٦).
والنسائي في: ٤٨ - كتاب الزينة، ٦٢ - فرق الشعر (١٨٤/٨) .
وابن ماجه في: ٣٢ - كتاب اللباس، ٣٦ - باب اتخاذ الجمة والذوائب، رقم (٣٦٣٢) (١١٩٩/٢) .
وأحمد في المسند: (٢٤٦/١، ٢٦١) .
وانظر في هذا كتاب: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. ناصر العقل (٤١٠/١-٤١٩) فهو مهم .
(٢) سيأتي بعض ذلك في رسالة العزلة ضمن مبحث: الاستسرار بالدين ضمن هذه السلسلة .

وبذلك أزاح المسلمون عقبة كبيرة تعترض طريق الدعوة، وإن كان اليهود لا يزالون، ولن يزالوا يخططون للقضاء على هذا الدين[1] .

٧ ـ فتح مكة :

تتوجت الانتصارات الإسلامية بفتح مكة في العام الثامن للهجرة، وقد كان هذا الفتح مطلباً مهماً لدى المسلمين للأسباب التالية :

(أ) لأن مكة كانت معقل الوثنية الأكبر، فسقوطها يعني الإجهاز عليها، واقتحام آخر حصونها، ولقد كانت العرب تتربص ما يؤول إليه أمر قريش، فكانت غزوة الحديبية التي هزت موقف قريش، وأضعفت مكانتها ثم كان الفتح الذي أنهى كل تردد أو شك .

(ب) ولأنها البلد الذي أخرج منه الرسول ـ ﷺ ـ والمسلمون وهو الذي كان يتولى كِبْر الحرب لهم، طيلة تلك المدة، فدخولهم إياه فاتحين يعني إنهاء أمد الحرب مع قريش، التي طالما كابرت الحقائق، ولجت في العناد .

(جـ) ولمكة أهمية كبرى في الإسلام بحكم وجود الأماكن المقدسة، ومواضع الحج، وذكريات النبوات السابقة، وبحكم اختيار الله لها لتتنزل وحيه أول الأمر **﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾**[2][3] .

ويظهر أن النبي ـ ﷺ ـ منذ غادر مكة مهاجراً، كان ينتظر اليوم الذي يأذن الله فيه بفتحها، ويتأكد هذا حين يوجه الله نبيه ـ ﷺ ـ إلى استقبال الكعبة في الصلاة وفي هذا من الدلالة ما فيه :

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى:
﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾[4].

---

(١) انظر حول موضوع اليهود: دراسة في السيرة لعماد الدين خليل: ص (٣١٩ـ٣٥٩)، وفقه السيرة للغزالي (٢٥٧ـ٢٦٤، ٣٠١، ٣٣٥، ٣٦٨) .

(٢) سورة القصص رقم الآية ٦٨ .

(٣) وانظر ما يأتي في آخر هذا الفصل في موضوع: عوامل دفع الغربة .

(٤) سورة القصص: رقم الآية ٨٥ .

قال: إلى مكة[1] .

ولهذا كان النبي ﷺ ينتظر الفرصة المواتية لفتح مكة، وتحريرها من سيطرة المشركين، وإعادتها إلى المؤمنين الذين هم أحق بها وأهلها .

فلما نقضت بنو بكر وقريش عهدهم، واعتدوا على خزاعة، وقاتلوهم ولم يراعوا حرمة العهد والميثاق، ولا مكانة الحرم، واستصرخت خزاعة المسلمين ـ بحكم الحلف[2] ـ استعد الرسول ﷺ لفتح مكة، وفرض حصاراً على خبر هذا التحرك حتى يبغت قريشاً، لضمان النصر وحقن الدماء، حتى استطاع أن يفاجىء مكة بعسكر لم تر مثله قط في العدد والعدة المادية والمعنوية .

وقد فوجىء زعماء قريش بنيران العسكر تملأ الفضاء، فخرجوا يستطلعون الخبر، فعثرت عليهم خيل المسلمين، فاستاقتهم إلى الرسول ﷺ وهم أبو سفيان، وبديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، فما لبثوا أن أعلنوا إسلامهم واستسلامهم، وسألوه الأمان لقريش فأمّنهم .

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة مجيء الزعماء الثلاثة، وإسلام أبي سفيان وتأمين قريش قال: فلما انصرف إلى مكة ليخبرهم، قال رسول الله ﷺ احبسه بمضيق من الوادي، عند حَطْم الخيل حتى تمر به جنود الله، فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ، فمرت القبائل على ركبانها، فكلما مرت قبيلة قال: من هذه؟ فأقول: بنو سليم، فيقول: مالي ولبني سليم، ثم تمر أخرى فيقول: ما هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة .

---

(١) رواه البخاري في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٢٨ ـ القصص، باب إن الذي فرض عليك القرآن: (١٨/٦) .
والنسائي في الكبرى، أفاده المزي في التحفة، حديث (٦٠٩٤)، (١٣٥/٥) .
والطبري في التفسير: (١٢٥/٢٠) .
ونسبة السيوطي لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردوية، والبيهقي: الدر (٤٤٥/٦) .

(٢) انظر ما سبق في موضوع الحديبية .

فلم يزل يقول ذلك حتى مرت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء[1] فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق، قال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ، ولا طاقة!، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنَعَم إذن[2] .

---

(١) سميت الخضراء لكثرة الحديد والسلاح فيها، كما قال ابن هشام (٤/٤٦) .

(٢) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد، في ذكر الأسباب الموجبة المسير إلى مكة (٤/٤٧) .

والطبري في التاريخ، ذكر الخبر عن فتح مكة عن محمد بن إسحاق قال: حدثني حسين بن عبدالله بن عبيدالله بن عباس عن عكرمة عن ابن عباس .

والحسين ضعفه ابن معين وأبو حاتم وقال النسائي: متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه يشبه بعضها بعضاً، وهو ممن يكتب حديثه فإني لم أجد في حديثه حديثاً منكراً قد جاوز المقدار .

وقال الذهبي: ضعفوه، وقال ابن حجر: ضعيف .

انظر: تهذيب التهذيب: (٢/٣٤١)، التقريب (١/١٧٦)، والكاشف (١/١٧٠) .

ولكن رواه إسحاق بن راهوية في مسنده من طريق ابن إسحاق قال: حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس .

وإسناد إسحاق حسن، ورجاله ثقات خلا ابن إسحاق فهو صدوق مدلس وقد صرح في هذه الرواية بالتحديث، ولذلك قال الحافظ ابن حجر:

«هذا حديث صحيح، ورواه الذهلي بتمامه في الزهريات من طريق (أبي أدريس) عن محمد بن إسحاق لكن ليس فيه تصريح ابن إسحاق بسماعه له من الزهري، والسياق الذي هنا حسن جداً» .

المطالب العالية (النسخة المسندة المخطوطة)، كتاب السيرة والمغازي، باب غزوة الفتح: (ل٣٥٩ـ٣٦٠) .

وعزاه الهيثمي في المجمع للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح .

كتاب المغازي والسير، باب غزوة الفتح: (٦/١٦٦ـ١٦٧).

ولم أجده في مسند ابن عباس في الطبراني الكبير . =

وذهب أبو سفيان مبهوراً ليعلن لقريش الأمان، لمن دخل دار أبي سفيان، أو دخل المسجد، أو أغلق عليه بابه .

ولم يفكر أحد في المقاومة إلا ما كان من صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو في نفر من قريش، ولقد لقيهم خالد بن الوليد في مُجَنبته فناوشوهم شيئاً من قتال ثم انهزموا وقتل منهم من قتل .

ودخل رسول الله ﷺ مكة متخشعاً متواضعاً متذللاً لله تعالى، حتى إذا وصل البيت حطم الأصنام ومحا التصاوير معلناً سقوط آخر قلاع الوثنية، وانتصار التوحيد، وبسط سلطان الإسلام على الجزيرة العربية .

وكان فتح مكة هو الضربة الأخيرة التي أجهزت على الإصرار العنيد الذي تذرع به القرشيون حيناً من الدهر، فاستيقظت عقولهم وفطرهم على أصداء هذا الانتصار الأخير، فأسلم عامتهم ـ لا خضوعاً للسلطان فحسب، ولكن لأن هذا الانتصار قد قشع عن نفوسهم غشاوة العناد، والتردد، والتعصب وجعلهم أمام الحقيقة وجهاً لوجه .

وبفتح مكة أحكم المسلمون السيطرة على الجزيرة العربية ـ عموماً ـ وزالت غربة الدين، وغربة أهله، إذ أصبحوا سادة الجزيرة، وحماة المقدسات، حتى قال ﷺ: لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية[٢]، وصارت جميع القبائل تسعى إليهم،

= وروى أبو داود قصة إسلام أبي سفيان، والتأمين من طريق ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس .

١٤ ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء، ٢٥ ـ باب ما جاء في خبر مكة، رقم (٣٠٢١)، (٤١٦/٣) .

وساق البخاري في صحيحه نحوه عن هشام بن عروة عن أبيه .

٦٤ ـ كتاب المغازي، ٤٨ ـ باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح: (٩١/٥) .

فهو مرسل. قال ابن حجر: «ولم أره في شيء من الطرق عن عروة موصولاً»الفتح (٦/٨)

(١) المجنبة: بضم الميم وفتح الجيم وكسر النون المشددة ـ هي الكتيبة التي تكون في الميمنة والميسرة، فللجيش مجنبتان، انظر: النهاية (٣٠٣/١) .

(٢) سيأتي تخريجه .

وتخطب ودّهم، وتفكر تفكيراً جاداً في الدين الذي جاءوا به، فتؤمن أنه الحق، بلا مرية، فتذعن له[1]، ولهذا برزت ظاهرة الوفود، حتى سميت السنة التاسعة: سنة الوفود .

قال ابن إسحاق: «وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله ﷺ وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس، وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل ـ أفواجاً، يضربون إليه من كل وجه»[2].

وقد كان من الوفود التي قدمت على النبي ﷺ معلنة الولاء، والسمع والطاعة، والإسلام: وفد بني تميم، ووفد بني سعد بن بكر، ووفد بني حنيفة، ووفد طيء، ووفد بني زبيد، ووفد كِندة .

واستعراض الوفود يبين أنها تمثل معظم القبائل العربية القاطنة في الجزيرة[3] .

وهكذا أصبح الغرباء المطرّدون سادة وأئمة، وأورثهم الله عز وجل أرض المشركين، وديارهم، وأموالهم، ومكن لهم في الأرض، وجعل الدائرة على أعدائهم[4] .

٨ ـ الأفق العالمي للدعوة :

ولقد حرص الرسول ﷺ على رسم بداية لنشر الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة العربية، سواء عن طريق الدعوة بالحسنى والكلمة الطيبة، أو عن طريق بسط نفوذ الدولة الإسلامية وتوسيع سلطانها، والذي يتم بالجهاد في سبيل الله .

---

(١) انظر ما سبق في أول هذا الفصل .

(٢) سيرة ابن هشام: (٢٠٥/٤) .

(٣) وانظر تفصيلات الوفود في: سيرة ابن هشام (٢٠٥ـ٢٤٧)، ودلائل النبوة للبيهقي: (٣٠٩/٥ـ٤١٦)، طبقات ابن سعد (٢٩١/١ـ٣٥٩)، ولعله من أوسع المصادر في هذا الموضوع، وزاد المعاد (٤٩٨/٣ـ٥١٢، ٥٩٥ـ٦٨٦) .

(٤) انظر ما سبق في أول الموضوع (خطوات بارزة) .

فقد راسل ﷺ الملوك والجبابرة يدعوهم إلى الله، ويبلغهم، خاصة بعد الحديبية .

عن أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى. وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ[1].

فبعث ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط، وغيرهم من الرسل إلى غيرهم من الملوك، كما كاتب ﷺ، زعماء اليمن، وحضرموت، وبعض القبائل العربية التي تلبثت بإسلامها .

وكان ـ لهذه الكتب أثر عظيم في نشر الإسلام حيث كان من هؤلاء الزعماء والملوك وأمراء القبائل من أسلم ودخل في الدين، وكان منهم من أعلن خضوعه لحكم الإسلام، ودخوله في طاعة الدولة، هذا إلى ما لها من أهمية في إعلان الإسلام في أطراف الجزيرة، وخارجها وإقامة الحجة على هؤلاء وتبليغهم ببعثة الرسول ﷺ ليكون ذلك تمهيداً لقتال من أبى الإسلام منهم .

وقد عمقت هذه المراسلات الشعور لدى المسلمين بضرورة تحقيق عالمية الإسلام تحقيقاً عملياً، والانتقال بالدعوة إلى آفاق جديدة ومواقع جديدة[2] .

أما الجانب العسكري فقد بعث الرسول ﷺ بعثاً من أصحابه إلى مؤتة، في

---

(١) رواه مسلم في: ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير، ٢٧ ـ باب كتب النبي ﷺ، إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل رقم (٧٥)، (١٣٩٧/٣) .
وأبو عوانة في: كتاب الجهاد، بيان كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٩٥/٤، ١٩٦، ١٩٦ـ١٩٧) .
والبيهقي في الدلائل، باب كتاب النبي ﷺ إلى الجبارين يدعوهم إلى الإسلام (٣٧٦/٤) .

(٢) انظر في مراسلات النبي ﷺ: طبقات ابن سعد (٢٥٨/١ـ٢٩١) وهو من أوسع المصادر، ومستخرج أبي عوانة (١٧٦/٤ـ١٩٨)، وزاد المعاد: (٦٨٨/٣ـ٦٩٧) .

مطلع السنة الثامنة للهجرة، وأمر عليهم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبدالله بن رواحة، والتقى المسلمون مع جموع غفيرة من الروم ومن انضم إليهم من قبائل لخم وجذام، بَلْقَين، وبلي وغيرهم .

وقد اختلف المؤرخون: هل انتصر الروم؟ أو المسلمون؟ والذي رجحه ابن إسحاق أن خالد بن الوليد لما أخذ الراية بعد مقتل الأمراء الثلاثة دافع القوم وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف الناس(١) .

ثم كانت غزوة تبوك في السنة التاسعة حيث خرج النبي ﷺ بنفسه لغزو الروم وإحكام السيطرة على القبائل القاطنة في الشمال، فصالح صاحب أيلة(٢) على الجزية، وكذلك أهل جربا(٣) وأذرُح(٤) .

وبعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل(٥) فأخذه وجاء به إلى النبي ﷺ فصالحه على الجزية، ثم قفل الرسول ﷺ عائداً إلى المدينة(٦) .

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٢١-٢٢)، وانظر: زاد المعاد (٣/٣٨٣)، حيث قال ابن القيم رحمه الله: «والصحيح ما ذكره ابن إسحاق أن كل فئة انحازت عن الأخرى» .
وانظر: في غزوة تبوك: المصدرين السابقين، وسيرة ابن كثير (٣/٤٥٥-٤٩٣)، وكتاب خالد بن الوليد للشيخ محمد صادق عرجون ص (٥٦-٦٩) وهو مهم .

(٢) أيلة: بفتح الهمزة مدينة على ساحل البحر مما يلي الشام، وذكر بعضهم أنها التي تعرف اليوم بالعقبة .
انظر: معجم البلدان (١/٢٩٢)، معجم المعالم الجغرافية في السيرة: ص(٣٥) .

(٣) جرباء ـ بفتح الجيم ـ موضع من أعمال عمان بالبلقاء، وتقع شمال غربي مدينة معان الأردنية على بعد ٢٢ كيلا تقريباً. انظر: معجم البلدان (٢/١١٨)، معجم المعالم: ص (٨١) .

(٤) أذرح ـ بفتح الهمزة وضم الراء ـ بلد في أطراف الشام من أعمال الشرارة ثم من نواحي البلقاء وهي على مقربة من جرباء، معجم البلدان (١/١٢٩)، معجم المعالم: ص (٨١) .

(٥) دومة الجندل ـ بضم الدال وفتحها ـ هي بلدة على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة المنورة، وهي من قرى الجوف، معجم البلدان (٢/٤٨٧)، معجم المعالم: ص (١٢٧) .

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٤/١٥٩-١٨٠)، زاد المعاد: (٣/٥٢٦-٥٩٢) .

إن أهمية هاتين الغزوتين لاتقاس بمدى النصر المادي الذي أحرزته، أو النتائج العسكرية التي ترتبت عليها فحسب، بل إن مداها أوسع من ذلك فهي تأكيد من النبي ﷺ في حال حياته لما يريد أن يفعله خلفاؤه من بعده، من توسيع رقعة الدولة الإسلامية، وتنشيط حركة الفتح وإخضاع الدنيا لحكم الإسلام .

ولعل من العجيب أن يكون آخر بعث جهزه الرسول ﷺ هو بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين حيث تجهز معه الناس، وأوعب معه المهاجرون الأولون[1] .

وقد قبض النبي ﷺ قبل رحيل هذا البعث ليتولى تسييره الخليفة الأول، وفي هذا من الدلالة مالا يخفى .

زوال غربة الاسلام :

وفي نهاية هذا العرض العام المجمل لأهم خطوات مواجهة الغربة الأولى وإزالتها ودفعها، يتضح للمتأمل المسافة البعيدة التي قطعها المسلمون خلال سنين وجيزة من أعمار الأمم والجماعات فخلال ثلاث وعشرين عاماً ـ فحسب ـ أعلنتِ الدعوة، ثم ظلت حبيسة بين جوانب مكة ـ غالباً ـ مدة ثلاث عشرة سنة، ثم أقيمت الدولة وقُضي على المناوئين من المشركين، واليهود وغيرهم، وأُخضعت الجزيرة لحكم الإسلام، وبدأت المحاولات الأولى للقضاء على دولتي فارس والروم وغيرهما ـ خلال عشر سنوات.

وهذا نصر لم يشهد التاريخ له مثيلاً، ولن يشهد ـ خاصة إذا تأملنا البعد العَقَدي لهذه الدولة، إذ لم تكن دولة الإسلام دولة جبروت ترسي دعائم ملكها على الجثث والأشلاء، بل كانت دولة رحمة وهداية ترسي دعائمها على عروش القلوب، فتلين لها النفوس وتنقاد، لأنها قامت لتحقيق عبودية الناس لربهم، وتحريرهم من عبوديتهم للطواغيت المادية، أو المعنوية .

ولذلك كان جنودها من كل الأجناس، والشعوب، والأمم، وكانت البلاد المفتوحة سرعان ما تؤدي دورها في حمل الرسالة بجد، وحماس، حتى سيطر المسلمون خلال مدة وجيزة من الزمان على معظم أنحاء المعمورة .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢٩١/٤) .

ولقد تحول المسلمون من قلة مستضعفة مقهورة إلى أئمة يرثون الأرض من بعد أهلها، ويقودون ركب البشرية إلى حيث الأمن والإيمان، وحقق الله لهم ما سبق في سنته الماضية في الأمم كلها من التمكين للصالحين، ورفع الاستضعاف عنهم. قال تعالى: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**﴾(١) .

وقال تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم. وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا. يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾(٢) .

وقال تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**﴾(٣) .

كما حقق الله تعالى سنته الماضية في أعدائهم ومناوئيهم، فأذاقهم مرارة الهزيمة والقتل المهين، وطوى ذكرهم وأخمل شأنهم حتى لا يذكرهم أحد إلا باللعنة والمقت، وما أعد لهم من عذاب الآخرة أشد وأبقى .

عن حذيفة رضي الله عنه في قوله تعالى :

﴿**فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم**﴾(٤) .

قال: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة. فقال أعرابي: إنكم ـ أصحاب محمد ﷺ تخبروننا، فلا ندري، فما بال هؤلاء الذين

---

(١) سورة القصص، رقم الآيات ٥، ٦ .

(٢) سورة النور رقم الآية ٥٥ .

(٣) سورة التوبة رقم الآية ٣٣ .
وسورة الفتح رقم الآية ٢٨ .
وسورة الصف رقم الآية ٩ .

(٤) سورة التوبة رقم الآية ١٢ .

يَنْقرون بيوتنا، ويسرقون أعلاقنا؟ قال: أولئك الفساق. أجل: لم يبق منهم إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده[1] .

وبهذا ارتفع شأن الإسلام واندحر شأن الكفر والنفاق، وتحقق للمسلمين ما وعد به الرسول ﷺ حين كانوا يشتكون إليه أذى قريش وظلمها وتعذيبها لهم، ويقولون ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ فيقول ﷺ.. «**والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[2] إن الله عز وجل لابد أن ينصر عباده المؤمنين الصادقين وهو الذي يحدد ـ بعلمه ـ الوقت الذي ينصرهم فيه، والحال التي ينصرهم عليها .

ولم يكن هذا النصر الذي منحه الله للمؤمنين مرتبطاً بشخص أو أشخاص يزول بزوالهم، بل إن جذوره لتضرب في الأرض، وتقاوم عوادي الحدثان، على مر العصور، وكر الدهور .

فقد ظلت دولة الإسلام ـ رغم ما أصابها من انحرافات ـ قائمة ممكنة يستظل بظلها المسلمون قروناً طويلة، حتى إذا تمكن اليهود من الإجهاز على طليحها الفاني ظل الإسلام يشمخ برأسه عزيزاً في سائر بلاد الإسلام يمثله المؤمنون المستمسكون والعلماء العاملون، والدعاة المخلصون، والمجاهدون المستبسلون، تصديقاً لموعود رسول الله ﷺ ببقاء الطائفة الظافرة المنصورة .

﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون. فتول عنهم حتى حين. وأبصرهم فسوف يبصرون. أفبعذابنا يستعجلون. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين، وتول عنهم حتى حين، وأبصر فسوف

---

(١) رواه البخاري في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٩ ـ سورة براءة، ٥ ـ باب فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم. (٢٠٣/٥). وهذا لفظه .
ورواه النسائي في كتاب التفسير في السنن الكبرى، أفاده المزي في التحفة، رقم الحديث (٣٣٣٠)، (٣٣/٣) .
وعزاه السيوطي في الدر لابن أبي شيبة وابن مردوية: (١٣٦/٤) .

(٢) سبق تخريجه في الفصل الثاني.

يصرون. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين﴾[1] .

عوامل ووسائل دفع الغربة :

لقد أنشأ الرسول ﷺ بفضل الله، وعونه، ومدده دولة من العدم، دانت لها الأقطار، والأمم، راضية مختارة، وأقام دعوة خالدة تالدة، جعل الله العزة والتمكين لمن اتبعها وحالفها، والذل والصغار على من أباها وخالفها، وأورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض، ومغاربها، وجعل من رعاة الشاة والغنم، رعاة الشعوب والأمم .

وحين نبحث عن عوامل تكوّن هذا البناء الشامخ الماثل عبر العصور، المقاوم لعوامل الهدم والخراب، نجد أن السبب الرئيسي في ذلك هو عون الله وتوفيقه لهذه الدعوة، وحملتِها، لما علمه منهم من صدق السرائر، وصلاح الظواهر، والتجرد من المطامع الدنيوية، فكانوا ـ هم ـ جنده الغالبين، وعباده المنصورين، وإن الأسباب المادية والعوامل البشرية وحدها لا يمكن أن تفسر ما حدث أبداً، فما حدث كان أكبر من الأسباب المادية، وأكبر من العوامل البشرية .

ولكن هذه الأسباب والعوامل تصلح أن تكون «جزءاً» ـ فحسب ـ من توفيق الله لهذه الدعوة، ورحمته لها، بل رحمته البشرية بها .

ولو نظرنا إلى الأسباب المادية ـ مجردة عن المدد الإلهي ـ لوجدنا أنه كان من الممكن أن تنجح خطة من خطط قريش في اغتيال النبي ﷺ ومن الممكن أن يقتل الرسول ﷺ في بدر أو غيرها كما قتل نبيون قبله، ومن الممكن أن تنكشف خطة الهجرة للمشركين، ومن الممكن أن تتداعى القبائل بقيادة قريش ـ الموتورة يوم بدر ـ لترمي المسلمين عن قوس واحدة وتناجزهم .

---

(١) سورة الصافات الآيات من ١٧١ـ١٨٢ .

ومع أن هذا كله كان ممكناً، بل حصل ما يشبه بعضه[1] فإن الله كان يحوط دعوته، ويحميها، ويكلأ رسوله، وقد سبقت كلمته بأن سينصر هذا النبي وهذا الدين، ويقيم لهم الدولة، ويقيم بهم الملة، ويمحق بهم الكافرين .

ويوم يتخلى الله عن فرد أو أمة تتحول الأسباب المادية لنصرهم أسباباً إلى الهزيمة، وكما قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

فلابد عند دراسة، أو تحليل، أي موقف من المواقف العَقَدية، الدينية، من استحضار البُعدِ الإيماني الذي يستجلب توفيق الله وعونه ونصره .

وبقدر ما يتحقق به المؤمنون من الصفات الإيمانية، وبقدر قوتهم في تنفيذ التوجيهات الربانية، يكون عون الله لهم .

أما حين نلتفت إلى العوامل والأسباب الظاهرة، فإننا نجد أولاً أن كل دعوة أو حركة تعتمد على أسس ثلاثة :

الأول : المبدأ أو المعتقد الواضح المتميز الذي تنادي به وتقوم من أجله أيا كان هذا المبدأ، ومنه تتحدد أهدافها وغاياتها، وعلى ضوئه تكون نظمها ومناهجها .

الثاني : الأنصار والأتباع الملتفون حول هذا المبدأ، الملتزمون به .

الثالث : القيادة التي تسير بهؤلاء الأتباع إلى تحقيق الأهداف .

فإذا توفرت هذه الأسس الثلاثة، من وجود معتقد واضح صحيح، تتحدد على ضوئه المقاصد، والغايات، ووجود أنصار صادقين مؤمنين مستعدين للتضحية في سبيل نجاح معتقدهم، ووجود قيادة حكيمة قوية قادرة على السيطرة على المواقف والتوجيه السليم، وتجنب العثرات ما أمكن .

إذا وجدت هذه الأسس، وتحققت لدعوة ما، احتاجت في نجاحها إلى أمرين :

الأول : تهيؤ الظروف المكانية .

الثاني : تهيؤ الظروف الزمانية .

---

(١) كما حدث في يوم الأحزاب، وسبق بيانه .

وقد تجد دعواتٍ قويةً ذات عقيدة واضحة سليمة، نجحت في جمع الناس حولها، وكان لها قيادات تملك قدراً من الحكمة والقوة، ولكنها لم تراع ـ حق المراعاة ـ الظروف المكانية، أو الزمانية التي تتحرك فيها، فلم تنجح في الوصول إلى مبتغاها، لأنها تحركت في مكان غير ملائم، أو زمان غير ملائم .

وتجد دعوات أخرى لا تملك المعتقد الواضح الذي تجمع الناس عليه، ولا تملك من الأتباع المؤمنين كما تملك تلك، ولكنها استطاعت أن تستفيد من عنصري الزمان والمكان، وأن تراقب الفرص المواتية وتتعامل معها بذكاء فكانت أكثر نجاحاً، وأقل تضحية، وما أكثر هذا في الدعوات المنابذة للإسلام كالشيوعية، والبعثية، والنصيرية، والعلمانية .

وحين نطبق هذه المفهومات العامة على الدعوة الإسلامية الأولى، نجد أنها استكملت الأسس الثلاثة أتم استكمال، ثم انتفعت بعنصري الزمان والمكان أتم انتفاع، فكان نجاحها فوق كل نجاح :

١ ـ **فأما المعتقد** الذي التف حوله المؤمنون، فكان هو الإسلام، وهو الدين الإلهي المهيمن على الأديان كلها، والذي لا يقبل الله في الآخرة سواه، وقد جاء كتابه القرآن جامعاً للأصول، والقواعد العامة في جميع شؤون الحياة، مفصلاً للجوانب المهمة في الاعتقاد، والأحكام، والسلوك، محدداً للمصادر التشريعية الأخرى التي يحيل عليها .

يقول الله تعالى: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرىٰ للمسلمين**﴾[1] .

ويقول ﷺ: «**ألا إني أوتيت القرآن، ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعاناً على أريكته، يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**»[2] .

---

(١) سورة النحل رقم الآية ٨٩ .

(٢) رواه الإمام أحمد: (١٣١/٤)، من طريق يزيد بن هارون، أخبرنا حريز بن عبدالرحمن بن =

هذا من حيث حقيقة هذا الدين، وهذه الدعوة أما من حيث وضوحها في عقول المؤمنين بها، وقلوبهم، فكانت في الغاية العليا ـ كذلك .

وذلك راجع إلى ربانية هذا الدين، حيث جاء ملائماً للفطرة، منسجماً معها، فبمجرد أن يصغى الإنسان لداعي الإيمان، برغبة صادقة، يشرق الإيمان في قلبه، وينهار الركام المطبق عليه .

إضافة إلى طبيعة المؤمنين، حيث لم تفسد عقولهم الفلسفات البشرية، ولم تلوث نفوسهم المظاهر المادية، وكان انحرافهم ـ قبل ـ قريباً سهل الاندفاع، وكانوا قريبين من مصدر هذا الدين، حيث كان النبي ﷺ بين ظهرانيهم، والوحي يتنزل عليه بكرة وعشيا .

ولذلك كانوا أعلم الناس بالله، وأطوعهم له، وأبعدهم عن التكلف .

أما وضوح الدعوة لسائر الناس، فإن النبي ﷺ جهر بدعوته في وقت مبكر من الرسالة لتحقيق هذا المطلب، وأعلنها على الملأ بلا تلجلج، ولا غموض[1]، ومنذ أعلن ﷺ دعوته صارت دعوة الإسلام واضحة جلية ليس فيها مجال للالتباس .

ولقد حاول المشركون ـ منذ البداية ـ إخفاء حقيقة هذه الدعوة، أو تشويهها، والتشكيك في سلامة أهدافها فلم يفلحوا .

﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد﴾[2].

= أبي عوف الجرشي (والصواب: عن عبدالرحمن بن أبي عوف) عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه .

ويزيد بن هارون: ثقة متقن عابد. انظر: التهذيب (٣٦٦/١١)، والتقريب (٣٧٢/٢) .

وحريز هو ابن عثمان: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (٢٣٧/٢)، التقريب (١٥٩/١) .

وعبدالرحمن بن أبي عوف الجرشي: ثقة، وقيل: له صحبة. انظر: التهذيب (٢٤٦/٦)، والتقريب (٤٩٤/١) .

فالحديث ـ بهذا الإسناد ـ صحيح .

(١) انظر: ما سبق في موضوع الجهر بالدعوة، والعرض على القبائل، وقبلهما في موضوع الاضطهاد .

(٢) سورة ص رقم الآية ٦ .

قال الإمام الطبري: «أي إن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعونا إليه، من قول: لا إله إلا الله، شيء يريده منا محمد، يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعاً، ولسنا مجيبيه إلى ذلك»[1] .

كما أطلقوا على النبي ﷺ أوصاف الشعر والسحر والكهانة وغيرها. فكان الإعلان والصدع قضاء على هذه الشائعات، وتبياناً للحقيقة التي لابد أن يعلمها الناس أجمعون .

وحين انطلق المسلمون من المدينة للجهاد في سبيل الله كانت الدعوة إلى الإسلام تسبق كل هجوم عسكري على قبيلة، أو بلدة ـ خاصة إن كانت لم تبلغها الدعوة، كما في حديث بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**»[2] .

---

(١) تفسير الطبري: (١٢٦/٢٣) .

(٢) رواه مسلم في: ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير، ٢ ـ باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، رقم (٣)، (١٣٥٧/٣) .

وأبو داود في: ٩ ـ كتاب الجهاد، ٩ ـ باب في دعاء المشركين، برقم (١٦١٢)، (٨٣/٣) .

والترمذي في: ٢٢ ـ كتاب السير، ٤٨ ـ باب ما جاء في وصيته ﷺ في القتال، برقم (١٦١٧)، (١٦٢/٤)، وقال: حديث حسن صحيح .

والنسائي في الكبرى: كتاب السير، ٣ ـ الدعوة قبل القتال (ل١١٤ب) .

وابن ماجه في: ٢٤ ـ كتاب الجهاد، ٣٨ ـ وصية الإمام، برقم (٢٨٥٨)، (٩٥٣/٢) .

والإمام أحمد في المسند: (٣٥٢/٥، ٣٥٨) .

وما بعثه ﷺ أصحابه وكتبه إلى القبائل والملوك في الجزيرة وغيرها[1]، إلا جزءاً من الجهد الذي يهدف إلى إيضاح حقيقة الدعوة، وأهدافها للناس، ليحيى من حيّ عن بينة، فيؤمن بهذه الدعوة، ويناصرها عن علم وبصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، فيحارب الدعوة، ويقاومها عن علم أيضاً .

٢ ـ **أما الأنصار** الملتفون حول هذا المعتقد فقد جمعوا، إلى الخصائص الفطرية، الخصائص الإيمانية .

فقد كانت الأمة التي ينتسبون إليها خير أمم الأرض ـ على ما أصابها من الإنحراف، والفساد ـ وقد تحصنت بصحرائها المترامية عن زيف الحضارات المادية، وتخليطات الفلسفات البشرية، فكانت أقرب إلى الفطرة، والسلامة، من غيرها .

وقد توارثت العديد من الصفات الخيرة، كالشجاعة، والكرم، والنجدة، والصدق، والصراحة، والغيرة .

وكان إسراع الرعيل الأول، فمن بعدهم ـ ممن لهم شأن وخطر في نشر الدعوة، والقيام بها ـ دليلاً على استيلائهم على الذروة العليا من هذه الأخلاق الكريمة، وتخلصهم من كثير من قبائح البيئة العربية .

وآية ذلك ما تحملوه في سبيل دينهم من الضر والجهد، فما ثنى ذلك من عزائمهم، ولا أضعف يقينهم، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً[2] .

ثم ما ظهر على سلوكهم وأعمالهم في الحرب والسلم، والعسر واليسر، من التأثر العميق بهذا الدين، والإستجابة التامة لله والرسول، حتى ضربوا في ذلك الأمثلة الفذة، التي يشهد التاريخ أنه لم يشهد لها مثيلاً .

وقد اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ على علم، ثم قيض لهم من أسباب التربية، والبناء، والتكوين، ما لم يتيسر لغيرهم .

---

(١) سبق تخريج حديث بعثه ﷺ الرسائل، والإشارة إلى الموضوع جملة ـ قبل صفحات .

(٢) وقد سبق ذكر أمثلة عديدة لذلك في مواطن عديدة، كصبرهم على اضطهاد قريش، وهجرتهم إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وموقف الأنصار من البيعتين وفي استقبال المهاجرين، وموقف المؤمنين ـ مهاجرين وأنصاراً ـ في المعارك الكثيرة بينهم وبين المشركين .

فكانت صحبتهم لسيد المربين ﷺ وبناؤهم على عينه، مزية وفضيلة زكت نفوسهم، وجردتها من إرادة غير الله، حتى صارت أعمالهم مضاعفة الأجور أضعافاً لا يدركها غيرهم :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»**[1] .

---

(١) رواه البخاري في: ٦٢ ـ فضائل أصحاب النبي ﷺ، ٥ ـ باب «ضمن فضائل أبي بكر»: (١٩٥/٤) .

ومسلم في: ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة، ٥٤ ـ باب تحريم سب الصحابة، رقم (٢٢١، ٢٢٢)، (١٩٦٧/٤)(*) .

وأبو داود في: ٣٤ ـ كتاب السنة، ١١ ـ باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ رقم (٤٦٥٨): (٤٥/٥) .

والترمذي في: ٥٠ ـ كتاب المناقب، ٥٩ ـ باب رقم (٣٨٦١) (٦٩٥/٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح .

والنسائي في فضائل الصحابة، مناقب أصحاب النبي ﷺ، والنهي عن سبهم رقم (٢٠٣، ٢٠٤) ص(١٧٩) .

وفي الكبرى، ٤٨ ـ كتاب المناقب، ٦٠ ـ مناقب أصحاب النبي ﷺ: (ل١٠٩ب) .

وابن ماجه في: المقدمة ١١ ـ باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ رقم (١٦١)، (٥٧/١)(*) .

والإمام أحمد في مسنده: (١١/٣، ٥٤)، وفي فضائل الصحابة، رقم (٦ـ٧)، (٥١/١) .

والخطيب في تاريخ بغداد: ترجمة رقم (٣٥٩٦) (١٤٤/٧) .

وله شواهد منها :

عن جابر في تاريخ بغداد ترجمة (١١٨٠): (١٤٩/٣) .

وعن أنس في فضائل الصحابة للإمام أحمد رقم (٨): (٥٣/١) .

ونحوه في تاريخ بغداد، ترجمة (٤٢٤٠): (١٤٤/٨) .

(*) وقع في مسلم ـ الموضع الأول، وفي ابن ماجه، وفي الفضائل للنسائي: الموضع الثاني، وفي الكبرى: الموضع الثاني: عن أبي هريرة. وقد قال خلف الواسطي، وأبو مسعود الدمشقي، وأبو علي الجياني، والمزي، وابن حجر، وغيرهم: إنه خطأ، انظر: تحفة الأشراف (٣٤٣/٣ـ٣٤٤)، فتح الباري: (٣٥/٧ـ٣٦) .

هذا إلى ما كان من شدة العوز والحاجة إلى النفقة في زمنهم، لشدة الحال، وضيق ذات اليد، ولذلك قال تعالى :

﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير﴾(١) .

وكان من صنيع الله لهم ـ خاصة في الفترة المكية ـ أن وفقهم لاحتمال ألوان الأذية الحسية والمعنوية، التي كانت قريش توجهها إليهم، وكانت مما لا طوق للإنسان باحتماله، لولا تثبيت الله، وأَمَرَهم ـ مع ذلك ـ بكف اليد، وعدم الانتصاف من المعتدين، ووجههم إلى العبادة لما فيها من المعونة على الصبر، فتحرروا بذلك من الغضب للنفس، والانتصار لها، وتجردوا من إرادة الدنيا ـ بجميع صورها ـ وتعلقوا بالآخرة، ونعيمها، وخيرها، وسلموا من رِدّاتِ الفعل الضارة لدعوتهم، المفسدة لنفوسهم، وهم الذين ورثوا النخوة العربية، والثأر والشجاعة والحمية .

وإنك لتجد كثيراً من الناس قد تثيرهم الحماسة الطائشة إلى الانتقام، والانتصار، وتزين لهم نفوسهم أنهم ما غضبوا إلا لله، وما تأثروا إلا لدينه فإذا جد الجد، وعزم الأمر، انفلت عزائمهم، ووهنت قواهم .

قال تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا﴾**(٢) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عبدالرحمن بن عوف، وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يارسول الله، إنا كنا في عز، ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا، فلما حوّلنا الله إلى المدينة، أمرنا بالقتال، فكفوا، فأنزل الله عز وجل :

---

(١) سورة الحديث: رقم الآية ١٠ .

(٢) سورة النساء: رقم الآية ٧٧ .

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة﴾[1] .

٣ ـ أما القيادة التي حملت هذه الدعوة، وجمعت الناس عليها، فيقف في مقدمتها النبي ﷺ ثم كبار أتباعه، ومقدموهم، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم .

والرسول ﷺ هو خاتم الرسل، وأفضلهم والمخصوص بالمزايا والفضائل التي ما حازها غيره، من آدم فمن دونه، وقد ألفت في شمائله، وأخلاقه، وخصائصه، مؤلفات مستقلة، فضلاً عن الأبواب المتعلقة بذلك في سائر كتب السنة[2] .

ومن الجوانب البارزة في شخصيته ﷺ ما يلي :

(أ) كمال خلقه، واتصافه باللين، والسماحة، والصبر، والإحسان، والتجاوز، والجود، وحسن المعشر، ولذلك كان من رآه أحبه، فإذا عاشره ازداد له تعظيماً

---

(١) رواه النسائي في: ٢٤ ـ كتاب الجهاد، ١ ـ باب وجوب الجهاد: (٦/٣) .
والطبري في التفسير، تفسير سورة النساء، (١٧٠/٥) .
وابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير ـ (٥٢٥/١) .
والحاكم في: كتاب الجهاد، (٦٦/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .
والبيهقي في سننه، كتاب السير، باب مبتدأ الإذن بالقتال: (١١/٩) .
ونسبه ابن كثير في التفسير لابن مردوية أيضاً: (٥٢٦/١) .
رووه كلهم من طريق علي بن الحسن بن شقيق، أنبأنا الحسين بن واقد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس .
وعلي بن الحسن بن شقيق: ثقة حافظ. انظر: التهذيب (٢٩٨/٧)، التقريب (٣٤/٢).
والحسين بن واقد: ثقة له أوهام. انظر: التهذيب (٣٧٣/٢)، والتقريب (١٨٠/١) .
وعمرو بن دينار: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (٢٨/٨)، والتقريب (٦٩/٢) .
وعكرمة: ثقة ثبت، ومضى .
فالحديث ـ بهذا الإسناد ـ صحيح .

(٢) وقد جمع معظم ما كتب حوله ﷺ الدكتور صلاح الدين المنجد، في كتاب: معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ .

وإجلالاً، مع الإلفة، والاطمئنان إليه، ولا تكاد تبدر منه بادرة غضب، أو عنف، إلا أن تنتهك حرمات الله، فيغضب لله، لا لنفسه .

إلى ما حباه الله من القوة، والهيبة، والوقار .

ومن كان كذلك كان حرياً أن يؤلف حوله القلوب، ويروض نافر النفوس، ويستل راسخ السخائم، والأحقاد، وهكذا كان ﷺ .

قال تعالى: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**(1) .

(ب) كمال حكمته ﷺ فقد آتاه الله من وفور العقل، وبعد النظر ما لم يؤت أحداً من العالمين .

وقد زكى هذه المنحة بكثرة المشاورة لأصحابه، والاستئناس بقولهم، والرجوع إلى رأيهم إذا رآه صواباً امتثالاً لقوله تعالى: **﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾**(2) .

وما عزم ﷺ على أصحابه في أمر إلا كان الخير فيه، والضرر في خلافه .

(جـ) وضوح شخصيته وضوحاً تاماً للعدو والصديق، والقريب والبعيد قبل البعثة وبعدها، في حالة الحرب والسلم .

فقد اعترف أعداؤه الألداء في حال عداوتهم له باستقامته، ومباعدته لأخلاق الجاهلية، وبراءته من كل ما يدنس حاشيته، كما اعترفوا بصدقه، وأمانته، وعفافه، وعزوفه عن مطامع الدنيا، والشهرة، والجاه، والرياسة، وعلموا ذلك منه علم اليقين .

فلما احتاجوا في حربهم له أن يغمزوه بما يشينه لم يجدوا شيئاً من ذلك البتة(3)، فحاولوا أن يجعلوا من فضائله معايب، ومن محاسنه مساوىء، فصاروا كما قيل :

إذا محاسني اللآئي أدل بها .. كانت ذنوباً.. فقل لي: كيف أعتذر؟

---

(1) ، (2) سورة آل عمران رقم الآية ١٥٩ .

(3) كما في قصة أبي سفيان مع هرقل حين سأله: هل يكذب؟ فقال: لا، وحين سأله: هل يغدر؟ فقال: لا، وسيأتي تخريجها .

كما حاولوا أن يلصقوا فيه ما هو منه براء، فلم يفلحوا في هذه، كما لم يفلحوا في تلك[1] .

ذلك لأن شخصيته ﷺ كانت غير قابلة لتلك الدعاوى والافتراءات، فكان كل من عرفه يدرك بلا عناء كذبها، ومن سمعها فسبقت إلى عقله، فسرعان ما تزول بمجرد مقابلته للنبي ﷺ أو محادثته له .

ولذلك يقول عبدالله بن سلام رضي الله عنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتُّ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب[2] .

---

(١) كما في وصفهم له بالسحر والجنون وغيرها؟ حاشاه من ذلك ﷺ .

(٢) رواه الترمذي في: ٣٨ ـ كتاب صفة القيامة، ٤٢ ـ باب برقم (٢٤٨٥)، (٦٥٢/٤)، وقال: هذا حديث صحيح .

وابن ماجه في: ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، ١٧٤ ـ باب ما جاء في قيام الليل، برقم (١٣٣٤): (٤٢٣/١) .

وفي: ٢٩ ـ كتاب الأطعمة، باب: إطعام الطعام، برقم (٣٢٥١)، (١٠٨٣/٢) .

والدارمي في: ٢ ـ كتاب الصلاة، ١٥٦ ـ باب فضل صلاة الليل، برقم (١٤٦٨)، (٢٨٠/١) .

وفي: ١٩ ـ كتاب الاستئذان، ٤ ـ باب في إفشاء السلام برقم (٢٦٣٥)(١٨٨/٢).

وأحمد في المسند: (٤٥١/٥) .

والحاكم في: كتاب البر والصلة (١٦٠/٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .

وفي كتاب الهجرة: (١٣/٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

كلهم من طريق عوف بن أبي جميلة، عن زرارة بن أوفى، عن عبدالله ابن سلام .

وعوف: ثقة. انظر: التهذيب (١٦٦/٨)، والتقريب: (٨٩/٢) .

وزرارة: ثقة عابد انظر: التهذيب: (٣٢٢/٣)، والتقريب (٢٥٩/١) .

فالحديث ـ بهذا الإسناد ـ صحيح .

إن أعماله وتصرفاته ـ عليه السلام ـ لم تتلبس بشيء من الغموض، والتورية، والتأويل، الذي يلجأ إليه أهل السياسة، بل كانت واضحة، سهلة، بعيدة عن الالتواء، والتحايل .

(د) ومع هذه الخصائص والصفات حباه الله اليقين الراسخ الذي لا يمكن أن يتطرق إليه ضعف أو تردد، وإيمان المرء، ويقينه بدعوته، هو أول خطوات الطريق إلى اقناع الآخرين بها، ودعوتهم إليها .

ولقد يوجد أشخاص آمنوا بالباطل، وتشبعت به نفوسهم، فاستطاعوا دعوة غيرهم إليه، وحققوا شيئاً مما يريدون، فما بالك بمن يؤمن بالحق؟ .

إنه يجمع إلى قوة الحق الذاتية، قوته الشخصية في عرض الحق والدعوة إليه .

- **أما عن استفادة الدعوة من عنصري الزمان والمكان :**

فثمت جانب قدري إلهي لم يكن من عمل الإنسان واختياره، ولكنه من صنع الله العليم الحكيم لدعوته ودينه .

فقد أرسل رسوله على حين فترة من الرسل، وفي زمان طمست فيه معالم الحق، وحرفت فيه الديانات السماوية، وسيطرت على الناس النزعات المادية، وللشهوات البهيمية، فكانوا أحوج ما يكونون إلى دين رباني، ينقذهم من حمأة الرذيلة والانحطاط، ويحيي فيهم الكرامة الإنسانية .

وكان العرب ـ أيضاً ـ يعانون من فساد الأحوال الدينية، والخلقية، والاجتماعية، وقد سئموا من الحروب الطاحنة، وسفك الدماء، ولم يكن لهم دين صحيح يؤمنون به، ولا شريعة يحتكمون إليها[1]، وقد ترنحت أواصر النسب، والقربى، والرحم، أمام المعارك التي كانت تقع بين ذوي القربى، وبين الأخوين كما يقول القطامي[2] :

وأحياناً على بكر أخينا .. إذا ما لم نجد إلا أخانا

---

(١) سبق في الفصل الأول الحديث عن حال البشرية قبل البعثة، وحال العرب خاصة .

(٢) هو عمير بن شُيَيم التغلبي، واسمه منقول من الصقر، لأن الصقر يقال له: قطامي ـ بفتح القاف وضمها ـ شاعر جاهلي. انظر: خزانة الأدب للبغدادي: (٢/٣٧٠) .

وقد وصف تلك الحال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال للنجاشي: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف[1] .

وكانت مكة ـ بالذات ـ تعاني من شدة الشره، والحرص على المال، والقسوة على الضعفاء، بسبب سيطرة الروح التجارية عليها، وقصة أبي جهل مع الأراشي معروفة[2]، وغيرها مثلها كثير .

وكانت المدينة ـ تعاني من النزاع المسلح بين الأوس والخزرج، الذي يهدد بالانفجار في كل لحظة، كما تعاني من خطر دخول اليهود في صراع مسلح معهم، كما كانوا يهددون بذلك[3] .

وفي ظل هذه الظروف الزمانية القدرية كانت نشأة الدعوة وكانت انتقالها، واستقرارها .

وكان في اختيار الله تعالى للجزيرة، ثم لمكة، والمدينة ـ خاصة ـ مكاناً للدعوة، حكمة عظيمة .

فكانت الجزيرة بيئة صحراوية جافة، تتفشى فيها البداوة، ولم تكن مجتمعاتها مجتمعات حضرية، ولم تنشأ فيها حكومات مركزية، وكانت القبيلة هي كل شيء في نظر العربي.

ولذلك صارت حياتهم قاسية، جلبت المشقة لأصحابها ولمن يقيم على مقربة منهم من الحضر فهم في نزاع دائم فيما بينهم، ثم هم في نزاع مع الحواضر المجاورة .

وهذا الجانب من البيئة المكانية أفاد الدعوة بعدة أمور :

(أ) من حيث طبيعة الأتباع المؤمنين بالدعوة، والذين ولدوا وتربوا في هذه الجزيرة، فكانوا بعيدين عن فساد الحضارات، قريبين من الفطرة، سريعي القبول، واضحي الشخصية .

---

(١) جزء من حديث أم سلمة في قصة الهجرة إلى الحبشة، وقد سبق تخريجه .

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٩) .

(٣) كما سبق الإشارة إليه في قولهم: إن نبياً قد جاء زمانه، نتبعه، ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

(ب) ومن حيث طبيعة الأعداء المناوئين للدعوة حيث كانوا صعبي الانقياد، شديدي التنافس على الرياسة، لا تكاد تجتمع أهواؤهم على شيء، ولا تلتقي على قائد، نظراً لطبيعة الغلظة والأنفة فيهم .

وهذه الطبيعة ـ وإن كانت موجودة في العربي غالباً ـ إلا أن الدين يهذبها، حيث يكون الوازع لهم من أنفسهم، فيذهب خلق الكبر والمنافسة ويسهل انقيادهم واجتماعهم[1] .

ولذلك لم تكد تجتمع القبائل وتتفق على حرب النبي ﷺ بل استفاد المسلمون من هذا التناقض القبلي في مواقف كثيرة ـ خاصة في الفترة المكية ـ[2] .

(جـ) وعدم وجود سلطة مركزية كان له أثره في إضعاف مقاومة الدعوة ـ خاصة مع وجود التنافس القبلي، ولذلك تصاب كثير من الدعوات التي تقوم في ظل حكم مركزي بالفشل، لأن الحكم المركزي يأخذ على عاتقه مقاومة الدعوة وجمع الناس على حربها، وتسخير إمكانياته للقضاء عليها، وحال الدعوة الإسلامية تحت رقابتها وتسلطها كالذي يقول: أين المفر؟ البحر أمامكم، والعدو وراءكم! .

(د) كما كان للوضع القبلي أهمية في حركة الدعوة حيث استطاع الرسول ﷺ أن يستفيد من إيجابياته ويتخلص من سلبياته .

فقد جمعت الدعوة أتباعاً من شتى العشائر والقبائل ـ منذ بدايتها، وهذا يضمن عدم التصاق الدعوة بقبيلة واحدة، بحيث يدعو التشاحن القبلي إلى نبذ الدعوة لأنها دين تلك القبيلة .

ثم استفادت الدعوة من تلك العصبية في حماية قائدها ـ خاصة في بداية أمرها ـ وقد تفانى بنو هاشم، وبنو المطلب، في المدافعة عن النبي ﷺ بصورة مذهلة[3]،

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون: (٢٦٦/١) .
وانظر في البيئة الطبيعية للجزيرة العربية: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص (٣٩ وما بعدها) .

(٢) كما سبق في قصة عمر، وجوار العاص بن وائل له .

(٣) سبق طرف منه في حادث حصار الشعبْ وغيره .

يحكي طرفاً منها أبو طالب حيث يقول :

كذبتم ـ وبيتِ الله ـ نَبزى محمداً .. ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرّع دونه .. ونذهل عن أبنائنا والحلائل[1]!

ثم كان قائد الدعوة ﷺ يعرض نفسه على القبائل ويطلب منها الإيواء والنصرة[2]، وهذا دليل واضح على أهمية القبيلة ـ في بيئة الجزيرة العربية ـ في نصر الدعوة وحماية قائدها وأتباعها .

(هـ) والجزيرة العربية هي المكان الذي يمكن أن يخلص للدعوة، ليظل منطلقاً لها، بعيداً عن المؤامرات التي تهدده من الداخل .

ومع وجود اليهود والنصارى فيها، حيث كان اليهود يقطنون في خيبر، وتيماء وفَدَك، ووادي القرى[3]، والمدينة، وفي بعض بلاد اليمن، والنصارى يقطنون في نجران[4] .

فإنهم كانوا ـ بالنسبة لسعة الجزيرة ـ قليلين، ومعظمهم طارئون عليها، وهم في مناطق محددة يصعب عليهم التحرك في غيرها، ويسهل حصارهم فيها، وإجلاؤهم منها .

---

(١) سيرة ابن هشام: (١/٢٩٤) .

(٢) سبق مراراً .

(٣) انظر: كتاب (اليهود في شبه الجزيرة العربية) للدكتور/ محمد العقيلي: ص(٦١) .

وخيبر: ناحية على نحو (١٦٥) كيلومتراً من المدينة إلى الشمال على طريق الشام وكانت سبعة حصون مشهورة بالنخيل. انظر: معجم البلدان (٢/٤٠٩)، ومعجم المعالم الجغرافية ص (١١٨) .

وتيماء: بلد بين الشام ووادي القرى. معجم البلدان (٢/٦٧) .

وفدك: بتحريك الدال ـ قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان أو أكثر وتعرف اليوم بالحائط، معجم البلدان: (٤/٣٨)، معجم المعالم الجغرافية ص (٢٣٥) .

ووادي القرى: هو المعروف بوادي العلا، شمال المدينة على نحو (٣٥٠) كيلومتراً منها معجم البلدان (٥/٣٤٥)، معجم المعالم الجغرافية: ص(٢٥٠) .

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٢٢) .

ونجران مدينة معروفة على الطريق بين صعدة وأبها، وهي على نحو (٩١٠) كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من مكة. انظر: معجم المعالم الجغرافية ص (٣١٤) .

ولذلك كان النبي ﷺ يوصي بإخراج المشركين كافة من الجزيرة، وهو في مرض موته: كما في حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال:

يوم الخميس، وما يوم الخميس؟ اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما شأنه؟ أهَجَر؟ استفهموه، فذهبوا يردون عليه، فقال: «**دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه وأوصاهم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة، أو قال فنسيتها**»[1] .

بل صرح ﷺ بإخراج اليهود والنصارى خاصة:

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلا مسلماً**»[2] .

---

(١) رواه البخاري في: ٥٦ ـ كتاب الجهاد والسير، ١٧٦ ـ باب هل يستشفع إلى أهل الذمة؟: (٣١/٤) .
وفي: ٥٨ ـ الجزية والموادعة، ٦ ـ باب إخراج اليهود من جزيرة العرب (٦٥/٤) .
وفي: ٦٤ ـ كتاب المغازي، ٨٣ ـ باب مرض النبي ﷺ ووفاته: (١٣٧/٥) وهذا لفظه .
وروى طرفاً منه في: ٣ ـ كتاب العلم، ٣٩ ـ باب كتاب العلم (٣٧/١) .
وفي: ٧٥ ـ كتاب المرضى والطب، ١٧ ـ باب قول المريض: قوموا عني: (٩/٧) .
وفي: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٣٦ ـ باب كراهية الخلاف: (١٦١/٨) .
ومسلم في: ٢٥ ـ كتاب الوصية، ٥ ـ باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، رقم (٢٠)، وطرفاً منه في (٢١، ٢٢)، (١٢٥٧/٣ـ١٢٥٩) .
وأبو داود في: ١٤ ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء، ٢٨ ـ باب في إخراج اليهود من جزيرة العرب، رقم (٣٠٢٩)، (٤٢٣/٣) .
وروى طرفه: النسائي في الكبرى، ٢٧ ـ كتاب العلم، ١١ ـ كتابة العلم (ل٧٥ب، ٧٦أ)، ١٣ ـ كتابة العلم في الألواح والأكتاف (ل:٧٦أ) .
ورواه الإمام أحمد في المسند: (٢٢٢/١) .
والبيهقي في السنن، كتاب الجزية، باب لا يسكن أرض الحجاز مشرك: (٢٠٧/٩) .
(٢) رواه مسلم في: ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير، ٢١ ـ باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، رقم (٩٣) .
وأبو داود في: ١٤ ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء، ٢٨ ـ باب في إخراج اليهود من جزيرة =

وبالنسبة للبيئة المكانية الخاصة في مكة، فقد كانت مكة مركزاً دينياً عند العرب، حيث يوجد البيت والمشاعر، وآثار الحنيفية وذكرياتها، وكانت العرب تعظم البيت وتحجه، وهذا جعل لمكة، ولقريش خصائص فريدة، قال الإمام الخطابي ـ رحمه الله ـ «وبلغني عن بعض العلماء أنه سئل عن قريش، كيف صارت أفضل العرب قاطبة، وإنما هي قبيلة من مضر؟ فقال: لأن دار قريش لم تزل موسم الناس، ومنسك الحاج، وكانت العرب تقصدها في كل عام لحجهم، وَترِدُها لقضاء نسكهم، فهم لا

= العرب، رقم (٣٠٣٠، ٣٠٣١)، (٤٢٤/٣) .
والترمذي في: ٢٢ ـ كتاب السير، ٤٣ ـ باب ما جاء في إخراج اليهود والنصارى من جريرة العرب، رقم (١٦٠٦، ١٦٠٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح: (١٥٦/٤) .
والنسائي في الكبرى ٥٠ ـ كتاب السير، ٧٨ ـ إجلاء أهل الكتاب: (ل١١٦أ) .
وأحمد في المسند: (٢٩/١) .
والبيهقي في السنن، كتاب الجزية، باب لا يسكن أرض الحجاز مشرك (٢٠٧/٩) .
وله شواهد منها: حديث أبي هريرة عند البخاري في: ٥٨ ـ كتاب الجزية، ٦ ـ باب إخراج اليهود من جزيرة العرب: (٦٥/٤) .
وفي: ٨٩ ـ كتاب الإكراه، ٢ ـ باب بيع المكره (٥٦/٨) .
وفي: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ١٨ ـ باب قوله تعالى: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا» (١٥٦/٨) .
وعند مسلم في: ٢٣ ـ كتاب الجهاد والسير، ٢٠ ـ باب إجلا اليهود من الحجاز رقم (٦١)، (١٣٨٧/٣) .
وأبي داود في: ١٤ ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء، ٢٢ ـ باب كيف كان إخراج اليهود؟ رقم (٣٠٠٣) (٤٠٣/٣) .
والنسائي في الكبرى ٥٠ ـ كتاب السير، ٧٨ ـ إجلاء أهل الكتاب: (ل١١٦أ) .
وأحمد في المسند، (٤٥١/٢) .
والبيهقي في السنن، الموضع السابق: (٢٠٨/٩) .
ومنها حديث أبي عبيدة عند الإمام أحمد: (١٩٥/١)، وأبي نعيم في الحلية، رقم الترجمة (٤٣٧) (٣٧٢/٨) .
وأيضاً: ترجمة (٤٣٨)، (٣٨٥/٨)، والبيهقي (٢٠٨/٩) وغيرهما .

يزالون يتأملون أحوالهم، ويراعونها، فيختارون منها أحسن ما يشاهدونه، ويتكلمون بأفصح ما يسمعون من كلامهم، ويتخلقون بأحسن ما يرونه من شمائلهم، فصاروا أفضل العرب من قِبَل حُسن الاختيار، الذي هو ثمرة العقل، فلما ابتعث الله نبيه ﷺ منهم، تمت لهم الفضيلة، وكملت لهم به السيادة(١) .

ولذلك صارت مكة ـ أيضاً ـ مركزاً تجارياً، وحوله تقوم الأسواق المشهورة للعرب، وهذا جعلها مكاناً مناسباً لانطلاق الدعوة الإسلامية المجددة للملة الحنيفية، وجعل من ارتياد العرب لها للحج، أو التجارة أو غيرهما فرصة لمحادثتهم، ونشر الدعوة بينهم، وهذه كانت أقوى وسيلة إعلامية ممكنة في ذلك العصر .

وقد استفاد النبي ﷺ من هذه الميزة، فكان يعرض نفسه على الناس في المواسم، والأسواق(٢)، وكانت قريش تلقي عنتاً، وعناء شديداً، في حجب حقيقة النبوة عن العرب .

أما المدينة، فبالإضافة إلى قربها من مكة، ووجود الروابط القوية بينهما، فقد كانت توجد فيها قبيلتا الأوس والخزرج، وهما قبيلتان كبيرتان تتمتعان بالقوة، كما كانت المدينة أقدر من غيرها على استيعاب جموع المهاجرين إليها، وإيجاد المجالات المناسبة لعملهم .

فضلاً عن وقوعها في طريق القوافل التجارية المتجهة نحو الشمال من مكة مما يسهل حصار مكة منها، وتضييق الخناق عليها إذا دعى الأمر(٣) .

وهذه الأسباب: زمانية ومكانية لا تعدو أن تكون تلمساً لبعض الحكم الإلهية في توقيت الدعوة، وتحديد مكانها .

ولكن ثمت جانب آخر مهم في مراعاة عنصري الزمان والمكان، وهو الجانب المتعلق باجتهاد البشر وجهدهم في تحديد الزمان المناسب، والمكان المناسب، وهو في السيرة باب واسع أكتفي بالإشارة إلى بعض أمثلته .

---

(١) كتاب العزلة: ص (٤٨) .

(٢) سبق مراراً .

(٣) وهذا ما حدث فعلاً، كما في غزوة بدر وغيرها .

فقد كان النبي ﷺ يأمر من أسلم من القبائل الأخرى أن يستخفي بإسلامه ويقول: «**فإذا سمعت أني قد ظهرت فأتني**» كما حدث لعمرو بن عبسة حيث قال له النبي ﷺ حين قال: إني متبعك: «**إنك لا تستطيع يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني**»[1]، ومثله أبو ذر رضي الله عنه حيث قال ﷺ: «**ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري**»[2] .

وذلك لأن توقيت إعلانهم الإسلام في الساعة التي أسلموا فيها غير ملائم وإنما ينبغي أن يذهبوا إلى قومهم، وينشروا الإسلام بينهم، حتى تحين الفرصة المناسبة لجمع الأتباع في موطن واحد .

وحين أسلم أول نفر من الأنصار، كانوا من الخزرج، ولم يكن الإسلام قد فشا في المدينة، فلو حدثت الهجرة لما كان للحيين ـ الأوس والخزرج ـ عليه جماعة، ولربما واجه مصاعب جمة في مهاجره[3] .

ولذلك تربص الرسول ﷺ حتى انتشر الإسلام في الأوس والخزرج، واطمأن إلى ملاءمة الأحوال، فهاجر .

وحين بايع ﷺ أصحاب العقبة الثانية، حدث ما يرويه عبدالله بن كعب :

عن كعب بن مالك في قصة البيعة قال :

فقال العباس بن عبادة بن نضلة ـ أخو بني سالم ـ يارسول الله! والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا!

فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نؤمر بذلك، ارفضوا[4] إلى رحالكم**»[5] .

---

(١) سبق تخريج الحديث .

(٢) سبق تخريج الحديث .

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي: (٢/٤٣١) وسيرة ابن هشام (٢/٧٠ـ٧١) .

(٤) ارفضوا: ارجعوا .

(٥) رواه ابن إسحاق في السيرة، كما في سيرة ابن هشام، أسماء النقباء وتمام خبر العقبة: (٢/٨٦ـ٩٠) .

والإمام أحمد في مسنده: (٣/٤٦٢) .

فالجهاد قبل تأمين قاعدة يفيء إليها الإسلام، ويهاجر إليها المسلمون لا يكون، ولذلك وصف الله المؤمنين بقوله :

﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾[1] .

﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾[2] .

﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾[3] .

﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم، وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾[4] .

فالجهاد الذي يقصد من ورائه توسيع رقعة الإسلام، ونشر الدعوة والدين، لا يكون إلا بعد قيام الدولة المسلمة .

أما الدفاع عن النفس، والعرض، والمال، والوطن، فهو مشروع في حال الاستطاعة، في كل وقت .

وحين هاجر الرسول ﷺ تدرج في موضوع الجهاد، فبدأ بالمناوشات التي يقصد من ورائها ردع القبائل المجاورة عن الهجوم على المدينة، ثم اعترض عير قريش،

= والطبري في التاريخ: (٣٦٤/٢) .
وابن سعد في الطبقات، ذكر العقبة الآخرة (٢٢١/١) .
والبيهقي في الدلائل، باب ذكر العقبة الثانية (٤٤٤/٢-٤٤٩) .
كلهم من طريق محمد بن إسحاق، حدثني معبد بن كعب بن مالك عن أخيه عبدالله، عن أبيه كعب .
وهذا إسناد حسن – وقد سبق .

(١) سورة الأنفال رقم الآية ٧٢ .
(٢) سورة الأنفال رقم الآية ٧٤ .
(٣) سورة الأنفال رقم الآية ٧٥ .
(٤) سورة التوبة رقم الآية ٢٠ .

فحصلت معركة بدر على غير ميعاد، ثم كانت أُحد، والأحزاب التي غُزِيَ فيها المسلمون وتعرضوا للبلاء الشديد، وخلال ذلك كان وادع اليهود ليتفرغ لغيرهم، ويأمن شرهم ـ إلى حين ـ .

ثم بدأ بعد الأحزاب في مرحلة الهجوم على الأعداء، حيث هاجم بني قريظة، ثم غزا بني المصطلق، ثم خرج إلى الحديبية، ثم خيبر، ثم مؤتة، ثم الفتح الأعظم وهكذا...[1] .

وهذا ما لم يفعله ﷺ في بداية العهد المدني .

أما بالنسبة لعنصر المكان فأول ما يلحظ: اختيار الرسول ﷺ للحبشة مكاناً لهجرة أصحابه، حيث يوجد فيها ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، وقد أثبتت الأحداث دقة هذا الاختيار، حيث عاش المسلمون في خير دار، عند خير جار، وأمنوا على دينهم ولم يلقوا منه ظلماً[2] .

بل أكثر من ذلك أن النجاشي ـ نفسه ـ أسلم، وتابع النبي ﷺ[3] .

وحين نلحظ اتجاه السرايا والبعوث الأولى نجدها كانت موجهة إلى قريش ـ بالذات ـ غالباً، وكانت مهماتها سريعة، تتمثل في الهجوم على بعض ركبان المشركين، وبث الرعب في نفوس المتربصين .

إن معرفة المسلم الداعي للأرض التي يتحرك عليها، والظروف التي يعيش فيها، أمر في غاية الأهمية، فالمناسب في زمان، أو مكان، قد لا يناسب في مكان، أو زمان آخرين .

والمرء في حال الاستضعاف، غيره في حال القوة، وهو في حالة التشتت والتفرق، غيره في حال الدولة وجمع الكلمة، ومن الخطأ أن تكون الدعوة إلى الله انفعالات وعواطف، وردود فعل يستجيب لها الإنسان، دون وعي، ثم يعجب ألا ينصره الله!

---

(١) سبقت تفصيلات هذه الأحداث .

(٢) سبق الحديث عن أم سلمة مراراً .

(٣) سبق الحديث عن إسلام النجاشي، وصلاة النبي ﷺ عليه بعد موته، وتسميته له أخاً .

وسائل دفع الغربة :

لقد سلك الرسول ﷺ ثم أصحابه معه في دفع الغربة عن الإسلام وسائل شتى، بل لم يتركوا وسيلة مشروعة ممكنة إلا حاولوها ولكن يمكن تحديد أهم الوسائل فيما يلي :

١ ـ تكوين الجماعة المسلمة :

فقد جاء الإسلام إلى بيئة تعتبر الانتماء للقبيلة هو كل شيء، وتتفانى في حفظ هذا الانتماء، والقيام بحقوقه، والتضحية في سبيله .

فلما بدأ الرسول ﷺ دعوته، والتف حوله المؤمنون، بدأوا يدركون إدراكاً عميقاً بُعد الفجوة القائمة بينهم وبين قومهم المشركين ـ من جهة ـ ويشعرون بشدة القرب والتشاكل بينهم وبين سائر المؤمنين بالدعوة ـ من جهة أخرى وبدأوا يشعرون بعظيم مكانة الرسول ﷺ باعتباره المبلغ عن الله، والداعي الذي أنقذهم الله على يديه[١] .

فتآلفت قلوب المؤمنين، وكانت متباعدة، وتباعدت قلوبهم مع أقوامهم المشركين، وحل الانتماء للدين، وللجماعة التي تحمله، وتدعو إليه، محل الروح من الجسد، فما بقي ينافسه في القلب انتماء لشيء، لا لقبيلة، ولا لبلد، ولا لغيرهما، وصار الانتماء القبلي، أو الفئوي ـ في حدوده الطبَعية ـ ميداناً للسباق في الخير، والتنافس في البلاء والجهاد والتضحية[٢] .

---

(١) كما في حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، في قصة الحديبية، وفيه قول عروة بن مسعود الثقفي إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر، والنجاشي، في ملكهما، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد ﷺ في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يُسْلمونه لشيء أبداً، وكان عروة رأى ما يصنع الصحابة بالنبي ﷺ لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، والحديث سبق في الحديبية .

(٢) كما حدث حين قتل الأوس كعب بن الأشرف، فاستأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلام بن أبي الحقيق، أبي رافع، فأذن لهم فقتلوه، وقد سبق بيان شيء من ذلك، وانظر: سيرة ابن هشام (٢٨٦/٣) .

وقد تجمع هؤلاء المؤمنون من شتى القبائل حول القيادة المحمدية، وخلعوا من أعناقهم نير الطاعة لشيخ القبيلة، أو زعيمها .

وهذا الترابط الشديد بين المؤمنين: في قلوبهم، وفي أعمالهم، وفي أشخاصهم، جعلهم فئة واحدة متراصة، وحقق لهم أهدافاً عديدة :

(أ) فهو ذو أثر كبير في دفع الشعور بالغربة الفردية، وتحويله إلى شعور جماعي منتج مثمر، وفرق كبير بين فرد يحس بغربته عمن حوله، فيتجافى عن واقعه، ويضرب على نفسه سوراً من العزلة، وبين فئة مترابطة متكاتفة تشعر بغربتها وتميزها، وتعلم أن الله فضلها واختارها لتؤدي دوراً عظيماً في التاريخ، فيدفعها ذلك إلى مزيد من التلاحم والبذل والعطاء، ويغرس فيها شعور العزة والاستعلاء .

وهذا هو الشعور الذي كان النبي ﷺ يبعثه في أصحابه في مواقف عديدة .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أَعْتَمَ رسول الله ﷺ ليلة بالعشاء، وذلك قبل أن يفشو الإسلام، فلم يخرج حتى قال عمر: نام النساء والصبيان، فخرج، فقال لأهل المسجد :

«ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم» .

وفي رواية: ولا يصلىٰ يومئذ إلا بالمدينة، وكانوا يصلون العتمة فيما بين أن يغيب الشفق، إلى ثلث الليل الأول[1] .

---

(١) رواه البخاري في ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة، ٢٢ ـ باب فضل العشاء (١٤١/١) .
باب النوم قبل العشاء لمن غلب: (١٤٢/١) .
وفي: ١٠ ـ كتاب الأذان، ١٦٢ ـ باب خروج النساء إلى المساجد (٢١٠/١) .
١٦١ ـ باب وضوء الصبيان (٢٠٩/١) .
ومسلم في: ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ٣٩ ـ باب وقت العشاء وتأخيرها: (٤٤١/١) .
والنسائي في: ٥ ـ كتاب الصلاة، باب فضل صلاة العشاء (٢٣٩/١) .
٦ ـ كتاب المواقيت، آخر وقت العشاء (٢٦٧/١) .
والدارمي في: ٢ ـ كتاب الصلاة، ١٩ ـ باب ما يستحب من تأخير العشاء، =

فهو ﷺ يحيي في نفوس أصحابه تفردهم بهذه الفضيلة، وتميزهم بها عن غيرهم، ليزيد من رغبتهم في التنافس على الخير وإحساسهم بفضل الله عليهم .

(ب) وهذا الترابط والانتماء من أسباب تثبيت المؤمن على دينه، وتحريضه على الصبر عليه، وعلى ما يلقاه في سبيله، فالإنسان مهما يكن مؤمناً تصيبه الوحشة من قلة الموافقين، ويشعر بالاعتزاز بكثرتهم وقوتهم، وهذه فطرة جبلية مركوزة، لا يكاد ينفك عنها الإنسان، وتزايُدُ عدد المؤمنين ـ مع ما يولده من العزة ـ هو خطوة نحو تحقيق كيان مستقل لهم، وبناء دولة تحميهم، ولذلك قال عمر: والله لو بلغنا ثلاثمائة لأخرجناكم منها ـ يعني مكة[1] .

(جـ) وهو من أسباب التضحية والبذل والجهاد عند الصحابة، فإن شعور الإنسان بانتمائه إلى كيان واقعي يمثل العقيدة التي يؤمن بها، والمنهج الذي يسير عليه، يجعله يصب جميع طاقاته وقدراته في سبيل دعم هذا الكيان وتقويته وحمايته .

وإذا كان ارتباط الإنسان بهذا الكيان ـ أصلاً ـ إنما هو بدافع الإيمان، فليس يخل بنية المرء، وإخلاصه، أن تزيد رغبته في الطاعة وحرصه عليها، بمجاورة أهل الخير

= رقم (١٢١٦)، (١/٢٢١) .

وأحمد في المسند: (٦/١٩٩، ٢١٥، ٢٧٢) .

وابن خزيمة في: كتاب الصلاة، ٢٦ ـ باب الخبر الدال على الرخصة في النوم قبل العشاء رقم (٣٤٨)، (١/١٧٩) .

وابن حبان ـ كما في الإحسان، كتاب الصلاة، ذكر خبر تعلق به من لم يحكم صناعة الحديث فزعم أن تأخير المصطفى صلاة العشاء كان ذلك في أول الإسلام، رقم (١٥٢٦)، (٣/٥٩) .

والرواية المذكورة هي في البخاري: (١/٢١٠) .

وللحديث شواهد عن أنس، وابن عمر، وأبي سعيد، وأبي موسى، وابن مسعود، وجابر، وابن عباس، وأبي موسى، وابن مسعود، وجابر وابن عباس، ومحمد بن المنكدر عن أبيه، وغيرهم .

(١) سبق في حديث ابن عمر .

وقربهم، وإنما شرع الإجتماع على الخير لهذا المعنى، وما شابهه، ولذلك كان بعض المقبلين على الإسلام يسأل الرسول ﷺ من معك على هذا الأمر؟[1] .

(د) ومن خلال هذا التجمع تمكن الرسول ﷺ من تنسيق جهود الداعين، بحيث تتآلف وتتكامل، ولا تتناقض، وتمكّن كذلك من توجيهها الوجهة السليمة التي تخدم ولا تهدم، ولذلك أبى الرسول ﷺ على عباس بن عبادة بن نضلة التسرع في قتال المشركين[2] .

(هـ) وهو الصورة العملية التي يمكن أن تهيىء للداخلين في الدين جواً يعينهم على الترقي في درجات الإيمان، والتخلص من انحرافات البيئة المحيطة بهم، خاصة قبل قيام الدولة ـ كما في الفترة المكية .

٢ ـ بناء الدولة :

والدولة الإسلامية تقوم لثلاثة أهداف :

(أ) لرفع الفتنة ودفعها عن المؤمنين الضعفاء المضطهدين، بحيث يوجد قوة تحميهم وتمنعهم .

(ب) لتحقيق الدينونة الكاملة لله، بتحكيم شرعه المنزل، وإخضاع العالم كله لحكم الإسلام، مع عدم الإكراه على الدين .

(جـ) لنشر الدعوة الإسلامية، وبيان حقيقة الإسلام للناس، باعتباره ديناً من الله ـ ربهم أجمعين ـ يجب أن يبلغ إليهم، ليحيى من حيَّ عن بينه، ويهلك من هلك عن بينة .

ومن الواضح أن النبي ﷺ كان يبحث خلال عرض نفسه على القبائل عن قبيلة تؤويه وتحميه حتى يبلغ كلام الله، مع أنه كان له أتباع كثير، وهذا يشير إلى أهمية الاستفادة من إمكانيات القبيلة في نشر الدعوة، كالأرض التي تنطلق منها، والعصبية التي تقوم عليها .

---

(١) في حديث عمرو بن عبسة، وسبق مراراً .

(٢) في حديث كعب بن مالك، وسبق أكثر من مرة .

ولقد كان ظفر الرسول ﷺ بقبيلتي الأوس والخزرج خطوة جبارة نحو الهجرة، فقيام الدولة .

ولما هاجر ﷺ واستقر هو وأصحابه بالمدينة، بدأت تتكامل أجهزة الدولة ومؤسساتها، وصار الرسول ﷺ هو الحاكم فيها، وبدأت تتلاشى القيادات الجاهلية، كزعامة عبدالله بن أُبي بن سلول .

وقد قامت هذه الدولة على أرض الأوس والخزرج، وانضم إليها المهاجرون من كل مكان، بل صارت الهجرة إليها واجبة(١) .

وقد قامت هذه الدولة بدفع الأذى والاضطهاد عن المؤمنين، حيث أوى إليها المؤمنون من كل مكان، وعاد إليها المغتربون في الحبشة، فانتهى عهد الاستضعاف ـ بالنسبة لجملة المؤمنين ـ وإن وجد حالات فردية خاصة تعرض فيها أفراد مؤمنون للاضطهاد.

كما حققت جانباً عظيماً من جوانب العبادة، وأقامت ركناً من أركانها، وهو تحكيم شريعة الله في سائر أمور الحياة: الاقتصادية والإجتماعية والسياسة وغيرها. فحكمت الوحي السماوي في علاقتها بغيرها من الأمم، وفي علاقة بعض أفرادها ببعض، وفي بناء اقتصادها، وفي سائر أمورها .

وهذا جانب تعبدي عظيم، ناتج عن إفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية .

وأدت هذه الدولة مهمتها في نشر الدعوة الإسلامية في الأرض، فكان الرسول ﷺ يبعث أصحابه إلى القبائل لدعوتهم إلى الإسلام، وتعليمهم الأحكام، ويستقبل الأفراد، والجماعات المبعوثة من تلك القبائل فيؤويهم ويعلمهم أو يعهد إلى بعض أصحابه بتفقيههم .

وكان يرسل الرسل أو يبعث الكتب إلى أنحاء الجزيرة، وإلى الملوك والأقيال والجبابرة يدعوهم إلى الله تعالى، ويبلغهم ببعثته ﷺ(٢) .

---

(١) انظر: حديث بريدة السابق في أول موضوع عوامل التمكين، وانظر ما يأتي بعد، في موضوع الجهاد، في الرسالة الثالثة من هذه السلسلة .

(٢) كما في حديث أنس السابق في آخر: خطوات بارزة، وسبق فيها الإشارة إلى مراسلاته ﷺ للملوك وغيرهم .

٣ ـ القيام بالجهاد :

والجهاد جزء من مهمة الدولة، إذ كان المؤمنون مأمورين بكف اليد، وإقام الصلاة، وهم في مكة[١] .

فلما كانت الهجرة والدولة، أذن الله لهم في الجهاد، ثم أمرهم بقتال من قاتل، والكف عمن اعتزل فلم يقاتل، ثم أمرهم بقتال المشركين كافة، حتى يكون الدين كله لله[٢] .

والجهاد أصل من أصول الدين، وليس مجرد دفاع عن النفس أمام هجمات الأعداء، بل هو دفاع عن النفس، وقيام بواجب نشر الدعوة، وإسقاط الدول الكافرة التي تعوق انتشار الإسلام، وإخضاعها لحكم الإسلام، عن طريق الدخول في الدين، أو دفع الجزية للمسلمين .

ولئن كانت البيئة العربية التي قام فيها الإسلام أول أمره بيئة تؤمن بالقوة، وتستجيب لها أكثر من استجابتها للحجة، كما قيل :

دعا المصطفى دهراً بمكة لم يُجَبْ ... وقد لان منه جانب وخطاب

فلما دعا، والسيف بالكف مصلت ... له أسلموا، واستسلموا وأنابوا

فإن جميع البيئات لا تخضع للحق المجرد من القوة، الأعزل من السلطان، وكل أمر يراد حمل الكافة عليه، في أي عصر، وفي أي بيئة، فلابد له من قوة .

وليست القوة التي تكره الناس على الدخول في الدين، بل القوة التي تظهر للناس حقيقة الدين، وتزيل الضغوط التي تحول بينهم وبين الإيمان به، وتهيىء الجو لتقبل الحق، ثم تخلى بين الناس وبين أنفسهم: يؤمنون، أو لا يؤمنون[٣] .

---

(١) كما في الآية ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم...﴾ وسبق حديث ابن عباس في سبب نزولها .

(٢) زاد المعاد (٣/١٥٩)، وسيأتي مزيد بسط لذلك في موضوع الجهاد، من الباب الثالث .

(٣) من المعلوم أن من دخل في الإسلام ثم خرج منه فهو مرتد حلال دمه وماله لحديث «من بدّل دينه فاقتلوه» رواه البخاري .

ولهذا بدأ الرسول ﷺ عقب استقراره بالمدينة يرسل السرايا المسلحة تجوس خلال الصحراء المجاورة، وتخترق طريق القوافل المارة بين مكة والشام، وتستطلع أحوال القبائل الضاربة هنا وهناك[1].

وكانت المدينة مهددة بالهجوم عليها من قبل البدو الضاربين حول المدينة، أو من قبل قريش المهددة في اقتصادها، بل في مكانتها وكيانها، فكان المسلمون على استعداد دائم للدفاع عن أنفسهم.

حتى إذا كانت الأحزاب، وانصرفت جموع الكفار عاجزة عن تحقيق أي انتصار انتقل المسلمون إلى الجهاد الهجومي، وتجاوزوا مرحلة الدفاع.

عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: حين أجلى الأحزابُ عنه:

«الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[2]!

وهكذا كان، فلم تتلق المدينة بعد هزيمة الأحزاب أي هجوم، وصارت السرايا والبعوث، والغزوات تنطلق منها إلى كل حدب، حتى فتحت مكة..

وهذه الوسائل ــ وغيرها ــ تعتمد اعتماداً كبيراً على الفرد المؤمن الجاد المضحي في سبيل الله، فهو الذي يحمل الدعوة، ويتفانى في سبيلها ويقاتل من أجلها، وليس كل المؤمنين بالإسلام من المستعدين لهذه التضحية، ولا يلزم أن يكونوا كذلك، بل إن القاعدة القليلة المستجمعة للصفات المطلوبة ــ حسب طاقتها ــ هي التي تحقق على يديها ــ بإذن الله ــ نصر الله لهذا الدين، واندفعت عنه الغربة، حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله، وهي التي يمكن أن يتحقق على يديها هذا الأمر في كل زمان ومكان.

---

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي: ص (٢٢٧)، وراجع ما سبق في أول هذا الفصل.

(٢) رواه البخاري في: ٦٤ ــ كتاب المغازي، ٢٩ ــ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب: (٤٨/٥).
والإمام أحمد في المسند: (٢٦٢/٤)، (٣٩٤/٦).



خاتمة

وفي ختام هذه الجولة الممتعة مع سيرة المصطفى ﷺ وسنته نخلص إلى النتائج التالية :

١ - الحديث الوارد في الغربة صحيح بل متواتر عن أكثر من عشرين طريق.

٢ - معرفة أسباب غربة الاسلام الأولى .

٣ - معرفة المظاهر والصور التي تمثلت فيها هذه الغربة من الإيذاء والحصار والقلة وغيرها.

٤ - وتبين كيف استطاع رسول الله ﷺ والمؤمنون معه أن يجاهدوا بهذا الدين (جهاد الدعوة بالقرآن، ثم جهاد السيف والسنان) حتى كتب الله لهم النصر والتمكين، وفتح لهم البلاد، فدانت الجزيرة للإسلام قبل موت النبي عليه الصلاة السلام، وأكمل الله الدين، وأتم النعمة على المؤمنين وبذلك زالت غربة الإسلام في بلاد العرب، وصار له وجوده القائم المتميز.

٥ - كما تم التعرف على الأسباب والعوامل والوسائل التي أفاد منها المسلمون في إعزاز الدين ودفع الغربة عنه وعن أهله.

وهي دروس للمسلم في كل زمان ومكان، خاصة المسلم المتبع لرسول الله ﷺ، السائر على هديه، السالك منهج أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين والسلف المهتدين.

وسيمر في رسالة (صفات الغرباء وواجباتهم في هذا العصر) حديث عن واجب أهل السنة والجماعة في نشر الدعوة وحماية الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



فهرس الموضوعات